سيمون الحايك
دكتور في الفلسفة

عبد الرحمن الأوسط

إلى C.C.B. أُهدي هذا الكتاب.

المؤلف

تمهيد

عبد الرحمن الداخل على فراش المرض «وحلل» لا تفارقه و «تكفات ووانسوس» وابنه عبد الله البلنسي.

- اقترب يا بني هل ارسلت في طلب اخويك سليمان وهشام؟
- اجل سيدي، وجهت الرسل منذ خمسة ايام الى طليطلة وماردة.
- دع عنك البكاء واسمعني جيداً. هذا خاتمي. من سبق اليك من اخويك فابرأ اليه بالخاتم والأمر. فان سبق اليك هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه. وان سبق اليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب الناس له.
- سمعاً وطاعة، سيدي.

ساعتي دنت واني سائر الى لقاء ربي، خارت قواي ودب الشلل في مفاصلي.

ويحني رأسه الى جانب «حلل» ويغمض عينيه فتدنو حلل مرتمية عليه تحاول ان تعيد الحياة اليه وهي باكية العين كئيبة الفؤاد.

وفي هذه الأثناء يدخل هشام في ثياب السفر والعرق يتصبب منه واللهفة في وجهه ويرتمي على والده.

- سيدي، ابي!

ويجهش بالبكاء.

وبعد قليل دخل سليمان ايضاً في ثياب السفر فاكب على جثمان والده نائحاً باكياً.

ويدفع عبد الله الخاتم الى هشام

- هذا لك حسب وصية والدنا، فقد وصلت الأول.

وامتعض سليمان ولكنه استطاع اخفاء امتعاضه الى حين، فاحترام الميت واجب مقدس. ويقترب عبدالله البلنسي من جثمان والده ويقول باكياً:

ـ نفذت اوامرك يا ابتاه، فنم قرير العين.

كان ذلك اليوم الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٧٢هـ، تشرين الأول سنة ٧٨٧م وهو في الثامنة والخمسين من عمره[1].

ولما ولي هشام اشخص المنجم المعروف بالضبي من وطنه الجزيرة الخضراء الى قرطبة كان في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه حذْقاً واصابة.

فلما اتاه خلا به وقال له: «يا ضبي، لست اشك انه قد عناك من امرنا اذ بلغك ما لم تدع تحديد النظر فيه فانشدك الله، ما نبأتنا بما ظهر لك فيه». فلجلج وقال:
«اعفني ايها الأمير، فاني الممت به ولم احقق النظر فيه لجلالته في نفسي».

فقال له: «قد اجلتك لذلك، فتفرغ للنظر فيما بقي عليك منه ثم احضره بعد ايام.»
فقال: «ان الذي سألتك عنه جد مني مع اني والله ما اثق بحقيقته اذ كان من غيب الله الذي استأثر به، ولكني احب ان اسمع ما عندك فيه فالنفس طُلَعَةٌ[2]

والزمه الصلة او العقوبة

فقال: «اعلم ايها الأمير انه سوف يستقر ملكك سعيداً جدك قاهراً لمن عاداك، الا ان مدتك فيه فيما دل عليه النظر، تكون ثمانية اعوام او نحوها.
فاطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: «ما اخوفني ان يكون النذير كلمني بلسانك، والله، لو ان هذه المدة كانت في سجدة لله تعالى لقلت طاعة له».
ووصله وخلع عليه وزهد في الدنيا ولزم افعال الخير والبر..

ويروي عنه المقري هذه الحكاية في الجود:
«انه كان قاعداً لراحة في علية على النهر في حياة والده فنظر الى رجل من قدماء صنائعه من اهل «جيان» قد اقبل يوضع السير في الهاجرة، فانكر ذلك وقدر

---

١ ـ عبد الرحمن الداخل: سيمون الحايك ص: ٢٠١ ـ ٢٠٢
٢ ـ كثيرة التطلع والميل الى الهوى.

شراً وقع به من قبل خيه سليمان، وكان والياً على جيان. فامر بادخاله عليه فقال له:

«مهيم يا كناني، فلأمر ما، وما احسبك الا مزعجاً لشيء دهمك.

فقال: «نعم يا سيدي، قتل رجل من قومي رجلاً خطأ فحملت الدية على العاقلة فاخذ بها من كنانة عامة وحملنا على من بينهم خاصة، وقصدني اخوك بالاعتداء اذ عرف مكاني منك.

فمد هشام يده الى جارية كانت وراء الستر وقطع قلادة عقد نفيس كان في نحرها وقال له: «دونك هذا العقد، يا كناني، وشراؤه على ثلاثة آلاف دينار فلا تخدعن عنه، وبعه واذٍ عن نفسك وعن قومك، ولا تمكن الرجل من اهتضامك.

فقال: «ياسيدي، لم آتك مستجدياً، ولا لضيق المال عما حملته، ولكني لما اعتمدت بظلم صراح احببت ان يظهر عليّ عز نصرك واثر ذلك وامتعاضك فاتمجد بذلك عند من يحسدني على الانتماء اليك».

فقال هشام: «فما وجه ذلك؟

فقال: «ان تكتب الى اخيك في الامساك عني والقيام بذمتك لي».

فقال: «امسك العقد».

وركب من حينه الى والده عبد الرحمن الداخل واستأذن عليه في وقت انكره فانزعج وقال: «ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت الا امر مقلق، ائذنوا له».

فلما دخل سلم عليه ومثل قائماً بين يديه.

فقال له: «اجلس يا هشام.»

فقال: اصلح الله الأمير سيدي، وكيف جلوسي بهم وذل مزعج وحق لمن قام مقامي ان لا يجلس الا مطمئناً ولن يقعدني الا طيب نفسي باسعاف الأمير لحاجتي والا رجعت على عقبي».

فقال له: «حاشى لك من انقلابك خائباً فاقعد مجاباً مشفعاً».

فجلس. فقال له ابوه: «فما الحدث المقلق؟»

فاعلمه فامر بحمل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال. فسر هشام واطنب في الشكر. وكتب الأمير الى ولده سليمان في ترك التعرض لهذا الكناني بما لم يدر في خلده.

ولما دخل الكناني لوداع هشام قال له: «يا سيدي، قد تجاوزت بك حد الأمنية وبلغت غاية النصر، وقد اغنى الله عن العقد المبذول بين يدي العناية الكريمة فتعيده الى صاحبته.»

فابى من ذلك وقال: «لا سبيل الى رجوعه الينا».

وفي ايامه فتحت «اربونة» Narbonne واشترط على المعاهدين من اهل «جليقية» من صعاب شروطه انتقال عدد من احمال التراب من سور «اربونة» المفتتحة الى باب قصره بقرطبة. وبنى منه المسجد الذي قدام «باب الجنان»، وفضلت منه فضلة بقيت مكومة.

وقد لاقى هشام الأمرين من اخويه سليمان وعبد الله البلنسي، فسليمان دعا لنفسه في طليطلة وانضم اليه اخوه عبدالله البلنسي وتحالفا على العصيان والثورة. سار سليمان خفية الى قرطبة، وتحرك هشام الى منازلتهما، فاجلت الحال عن لحاق عبدالله بهشام من غير عهد ولا امان، وتقبله. وصالح سليمان بستين الفاً على الخروج باهله وولده عن الاندلس الى عدوة المغرب.

ونازل هشام بعد ذلك سرقسطة وبها مطروح بن سليمان الاعرابي فامكنه الله منه وخلا له الجو.

وكان هشام، الملقب «بالرضي» من ائمة العدل. تولى بناء القنطرة العظمى بقرطبة بنفسه وانفق عليها اموالاً عظيمة.

وحكى ابن وضاح انه ذكر له ان الناس يقولون انما بناها لتصيده ونزهته. فحلف، لما بلغه ذلك، ان لا يجوز عليها الا لغزو في سبيل الله او مصلحة.

توفي في الثالث من صفر سنة ١٨٠هـ نيسان ٧٩٦م في نحو الأربعين من عمره.

وكان ابيض اشهل وبعينيه حول كما عرض به الشاعر ابو المخشى لما قال يمدح سليمان اخيه:

«وليسوا مثل من ان سيل عرفا   يقلب مقلة فيها اعورار»

فاستدعاه الى مدينة «ماردة». وكان هشام حينئذ واليها في حياة ابيه عبد الرحمن الداخل. فخرج اليه ابو المخشى من قرطبة طامعاً في عطائه. فلما دخل قال له: «يا ابا المخشى ان المرأة الصالحة التي هوت ابنها فقذفتها فافحشت فيها قد اخلصت دعاءها لله في ان ينتقم لها منك، فاستجاب رجاءها وسلطني لاقتص لها».

ثم امر به فقطع بعض لسانه وسملت عيناه. وشفي من لسانه واقتدر على الكلام. اما العمى فقد استمر به وله قصيدة في العمى من اروع القصائد نذكرها لاهميتها يقول فيها:

«خضعت ام بناتي للعدا	اذ قضى الله بامر فمضى
ورأت اعمى ضريراً انما	مشيه في الأرض لمس بالعصا
فبكت وجداً وقالت قولة	وهي حرى بلغت مني المدى
ففؤادي قرح من قولها	ما من الأدواء داء كالعمى
واذا نال العمى ذا بصر	كان حياً مثل ميت قد ثوى
وكان الناعم المسرور لم	يك مسروراً اذا لاقى الردى
ابصرت مستبدلاً من طرفه	قائداً يسعى به حيث سعى
بالعصا ان لم يقده قائداً	وسؤال الناس يمشي ان مشى
واذا ركب دنوا كان لهم	هوجلاً في المهمه الخرق الصوى[1]
لم يزل في كل مخشيّ السرى	يصطلي الحرب ويجتاب الدجى

ولما صدر الأمر الى هشام بعد ابيه استشعر الندم مما اصاب الشاعر على يده فترضاه وضاعف ديته.

الحَكَم

وولي بعده ابنه الحكم بعهد منه اليه في الثامن من صفر سنة ١٨٠/٧٩٦ وهو في السادسة والعشرين من عمره، فاستكثر من المماليك.. وكانت له الوقعة الشهيرة مع اهل الربض لأن الناس انكروا عليه اموراً منها انه اطلق يد «ربيع القومس» متولي المعاهدين بالأندلس من النصارى. وكان حظياً في رجاله سوغه افتراض المعاون والمغارم على المسلمين، فثار به اهل الربض بقرطبة سنة ٢٠٢هـ الثورة الشهيرة ونابذوه وجاهروا بخلعه ورجعوا الى باب قصره في السلاح واحاطوا به في امم لا يحصيها الا الله، وفيهم الفقهاء واهل الفتيا مثل «طالوت» الفقيه ويحيى الراوية عن مالك وغيرهم.

---

١ ـ الهوجل: البطيء الثقيل. والمهمه: المفازة. والخرق: القفر. والصوى: جمع صوة وهو ما غلظ وارتفع عن الأرض. وقد وردت هذه الأبيات في كتاب الاحاطة لابن الخطيب وهو مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٧٣ (ورقة ٣٥١ ـ ٣٥٢).

وذعر الحكم لهول ما رآه وامر بعض خدامه الصقالبة ان يأتيه بوعاء الغالية.. فاستراب الفتى وانكر ذلك وقال: «واي وقت غالية هذا؟»
فصاح به وقال: «ائت به، ويحك، والا فمن اين يعرف رأس الحكم؟
وجاء بها فغلف بها رأسه ولحيته واستبسل للموت.

وتوافى اليه كثير من خدمته واستركب عبيده وحجابه واخذوا اعقاب الناس. فدهشوا اذ عدموا من يلتف عليه جمعهم. فقد كان من نوادر ذلك اليوم، ان حداداً كان بين يديه صبي يسوق الكير، وابصر اجتماع الناس وحضورهم في الأسلحة. فقال: «ومن رئيسهم؟» فقيل: «ليس لهم رئيس». فقال للصبي: «حرك الكير واعمل عملك، فان هؤلاء لا يكون منهم شيء.
فاعمل السيف يومئذ في اهل الربض فقتل منهم ازيد من عشرة آلاف رجل، وجلى عن قرطبة اضعاف ذلك. وما استقر منهم طائفة ببلد من البلدان الا وثاروا حتى لقد حكي ان آلافاً منهم استقرت بالاسكندرية وان رجلاً منهم تكلم مع جزار فرمى الجزار بوجهه بكرش كانت في يده فبطش به وقتله. ونادى مناديهم في المدينة فثاروا وتغلبوا على المدينة حتى صرفوا عنها صلحاً الى جزيرة «اقريطش».
واقسم الحكم بمحرجات الايمان ان لا يمشي عن الربض حتى يدعه دكا، فصيره على عظمه وهوله واصالة بنائه مزرعة.
وقال لما قتل اهل الربض وهدم ديارهم:

«رأبت صدوع الأرض بالسيف راقعاً ... وقدماً لاءمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغوري هل لها اليوم ثغرة ... ابادرها مستنضي السيف دارعا
وشافه على الأرض الفضاء جماجما ... كاقحاف شريان الهبيد[1] لوامعا
تنبيك اني لم اكن في قراعهم ... بوان، واني كنت بالسيف قارعا
واني اذا حادوا جزاعاً من الردى ... فلم اك ذا حيد من الموت جازعا
حميت ذماري فانتهبت ذمارهم ... ومن لا يحامي ظل خزيان ضارعا
ولما تساقينا سجالاً حروبنا ... سقيتهم سماً من الموت ناقعا
وهل زدت ان وفيتهم صاع قرضهم ... فوافوا منايا قدّرت ومصارعا
فهاك بلادي انني قد تركتها ... مهاداً ولم اترك عليها منازعا[2]

---

١ - الأقحاف: جمع قحفة وهي الفلقة التي تشبه قحف الرأس. شريان الهبيد: شجر الحنظل.
٢ - وردت هذه الأشعار في «الأدب الاندلسي»: الدكتور احمد هيكل دار المعارف ص ٨٣ وقد اخذها بدوره عن «أخبار مجموعة» ص ١٣٢ - ١٣٣.

واصدر الحكم عقب اخماده هذه الثورة كتاباً الى الكور يشرح فيه الواقعة وظروفها وقد جاء فيه:

«باسم الله الرحمن الرحيم: اما بعد فان الله ذو الفضل والمنن والطول والعدل اذا اراد اتمام وتهمية لمن جعله اهله وكفيه، سدده واعزه وانفذ قضاءه بفلحه ولم يجعل لأحد من خلقه قوة على عناده ودفاعه حتى يمضي فيه حكمه له وعليه كما شاء.

وانه لما كان يوم الأربعاء لثلاث عشرة من شهر رمضان تداعى فسقة اهل قرطبة وسفلتهم واذنبتهم من الشرطانيين المدفئة المعلوجي اشراً وبطراً عن غير مكروه سير ولا قبيح اثر ولا نكر حادثة كان منا فيهم فاظهروا السلاح وتلينوا للكفاح وهتفوا بالخلعان وتأنقوا بالخلاف ومدوا عنقاً الى ما لم يجعله الله له اهلاً من التأمير على خلقه والتسور في حكمه.

فلما رأيت ذلك من غدرهم وعدوانهم امرت بشد جدار المدينة فشد بالرجال والأسلحة، ثم انهضت الاجناد خيلاً ورجالاً الى من تداعى من الفسقة في ارباضها فاقحموا الخيل في شوارعها وازقتها واخذوا بفوهاتها عليهم، ثم صدقوهم الحملات وكورهم بالسدات المتواليات، فما صبر العبدان ان كشفوا السؤات ومنحوا اكتافهم المتوانيات وامكن الله منهم ذوي البصائر المؤيدات فاسلمهم الله بجريرتهم وصدعهم ببغيهم واخذهم بنكثهم فقتلوا تقتيلاً وعموا تدميراً وعروا تشويهاً وتمثيلاً جزاء عاجلاً على الذي نكثوه من بيعتنا ودفعوه من طاعتنا، ولعذاب الآخرة اخزى واشد تنكيلاً.. فلما قتلهم الله بحرمهم فيها واحسن العون عليهم لنا امسكت عن نهب الأموال وسبي الذرية والعيال وعن قتل من لا ذنب له من اهل البراءة والاعتزال ازدلافاً الى رضى الله ناصري عليهم ذي العزة والجلال، تهنأت صلحه وفلحه واستورعت حمده وشكره.

فاحمدوا الله ذا الآلاء والقمع معشرة الأولياء والرعية الذي اتاح لنا ولجميع المسلمين في قتلهم واذلالهم وقمعهم واهلاكهم، مما اعظم به علينا المنة وخصنا فيه بالكفاية وتمم علينا وعليكم به النعمة، فقد كانوا اهل جرأة واقدام وذعرة ضلالة واستخفاف بالأئمة وظهير الى المشركين وحطوط اليهم وتحنن لدولتهم. فلله الحمد المكرور والاعتراف المدخور على قطع دابرهم وحسم شرهم.

احببت اعلامك بالذي كان من صنع الله عليهم لولائك بنا ومكانك منا لمشاركتنا في نصرته، وتحمد الله ومن قبلك من شيعتنا ومعتقدي طاعتنا على جميل صنعه فيه وتشيعوا شكره عليه ان شاء الله».

ويقول عنه ابن حزم وغيره من المؤرخين انه خصى عدداً من ذوي الجمال من اهل قرطبة منهم:

- طرفة بن لقيط بن الأزرق المرادي. وكان ابوه واخوه وبنو عمه من اصحاب السلطان وولاة الثغور وجلة الناس واليه ينسب مسجد طرفة الذي داخل مدينة قرطبة.

- نصر الذي تنسب اليه منية نصر وكان ابوه من نصارى قرمونه، اسلم قبل الحادث على ولده

- شريح الذي ينسب اليه مسجد شريح بغربي قرطبة.

ويقول الحَكَم ايضاً في تمجيد السيوف واسلحة القتال:

«غناء صليل البيض اشهى الى الأذن ... من اللحن في الأوتار واللهو والردن[1]
اذا اختلفت زرق الأسنة والقنا ... ارتك نجوماً يطلعن من الطعن
بها يهتدي الساري وينكشف الدجى ... وتستشعر الدنيا لباساً من الأمن

وكان الحَكَم على فظاظته شاعراً مطبوعاً مما يؤثر من شعره قوله في جوار له كان مغرماً بهن:

«ظل من فرط حبه مملوكا ... ولقد كان قبل ذاك مليكا
ان بكى او شكا الهوى زيد ظلما ... وبعادا يدني حماما وشيكا
تركته جاذر القصر صبا ... مستهاما على الصعيد تريكا
يجعل الخد واضعا فوق ترب ... للذي يجعل الحرير اريكا
هكذا يحسن التذلل بالحسن ... اذا كان في الهوى مملوكا

وقوله ايضاً:

«قضب من البان ماست فوق كثبان ... ولين عني وقد ازمعن هجراني
ملكنني ملكاً ذلت عزائمه ... في الحب ذل اسير موثق عان
من لي بمغتصبات الروح من بدني ... يغصبنني في الهوى عزى وسلطاني»

ومن بديع اخبار الحكم الربضي ان العباس الشاعر توجه الى الثغر فلما نزل بوادي الحجارة سمع امرأة تقول: «واغوثاه بك يا حكم، لقد اهملتنا حتى كلب العدو علينا فايمنا وايتمنا.» فسألها عن شأنها. فقالت: كنت مقبلة من

---

١ ـ الردن صوت وقع السلاح بعضه على بعض.

البادية في رفقة فخرجت علينا خيل العدو فقتلت واسرت، فصنع قصيدته التي اولها:

«تململت من وادي الحجارة مسئدا اراعي نجوما ما يرون تغيرا
اليك، ابا العاصي، نضيت مطيتي تسير بهمّ ساريا ومهجّرا
تدارك نساء العالمين بنصرة فانك احرى ان تغيث وتنصرا».

فلما دخل عليه انشده القصيدة ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه. فانف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد بخروج بعد ثلاث الى وادي الحجارة. وسأل عن الخيل التي اغارت من اي ارض العدو كانت. فاعلم بذلك. فغزا تلك الناحية واثخن فيها وفتح الحصون وخرب الديار وقتل عدداً كثيراً. وجاء الى وادي الحجارة فأمر باحضار المرأة وجميع من اسر له احد في تلك البلاد، فاحضر فامر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها. وقال للعباس: سلها: هل اغاثها الحكم؟

فقالت المرأة وكانت نبيلة: «والله لقد شفى الصدور وانكى العدو واغاث الملهوف فاغاثه الله واعز نصره». فارتاح لقولها وبدا السرور في وجهه وقال:

«الم تر يا عباس اني اجبتها على البعد اقتاد الخميس المظفرا
فادركت اوطاراً وبردت غلة ونفست مكروباً واغنيت معسرا
فقال عباس: «نعم، جزاك الله خيراً عن المسلمين».
وقبل يده.

واقعة الحفرة:

وثارت طليطلة على الحكم كما ثارت على ابيه هشام. فولى الأمير الحكم على طليطلة «مولداً» اصله من «وشقة» اسمه عمروش. وكان اتفق مع الأمير ان يأخذ اهل طليطلة في شرك يوقعهم فيه. وكانت الواقعة المسماة: «واقعة الحفرة».

وما وصل عمروش الى طليطلة حتى بدأ باعمال الحيلة حتى ينال ثقة الطليطليين ويبدي البغض لبني امية وللعرب.

ثم قال للطليطليين: ان سبب العداوة بينكم وبين السلطان هو وضع الجنود في بيوتكم وتثقيلهم عليكم بالمغارم فاذا ساعدتموني في بناء حصن لايواء هؤلاء الجنود في طرف البلدة كفيتم انفسكم مؤونة هذه المشاجرات.

ولما كان الطليطليون قد اولوا عمروش ثقتهم رضوا باقتراحه بل آثروا ان يكون هذا الحصن وسط البلدة بدلاً من ان يكون على طرف منها.

ولما انتهى بناء الحصن اعلم عمروش الحكم انه قد تم البناء وانتقل اليه بجنوده.

فسير الحكم جيشاً بقيادة ولده عبد الرحمن لمقاتلة نصارى الشمال في الظاهر ولم يكن عبد الرحمن (وهو موضوع كتابنا) قد تجاوز الرابعة عشرة من سنه.

وصلت الجيوش الى ضواحي طليطلة، فاشار عمروش الى اعيان المدينة بالسلام على الأمير. ففعلوا. وقابلهم عبد الرحمن بالحفاوة الزائدة ورجعوا مسرورين.

فقال لهم عمروش: تقضي المصلحة ان ندعو الأمير ليقيم بيننا عدة ايام، فان عبد الرحمن هو ولي العهد وانه يحسن ان تكون علاقتنا به وثيقة.

فاستحسن القوم رأي عمروش. واقبلوا على عبد الرحمن يدعونه ليقيم عندهم اياماً. فلبى دعوتهم بعد ان اعتذر. واقام لهم وليمة ورتب الدخول من باب والخروج من باب آخر، منعاً للزحام. فكان الواحد يدخل من باب ويرسل فرسه مع تابعه لانتظاره امام الباب الآخر.

وكان عمروش امر بحفر حفرة في دار الحصن اقام بجانبها عدداً من الجلادين، فعندما يصل الواحد من اعيان طليطلة الى جانب الحفرة يتلقونه بالسيوف ويلقونه فيها. ولم يعلم عدد القتلى في ذلك اليوم. عذاري يقول سبعمائة. والنويري وابن القوطية يجعلانهم خمسة آلاف.

ولما صار الوقت ضحى قال احد اطباء طليطلة لجماعة كانوا معه امام باب القصر: «ماذا تراه حصل بهؤلاء المدعوين؟»

فقيل له: لعلهم خرجوا من الباب الآخر.

فقال لهم: كنت عند الباب الآخر فلم اجد احداً خرج.

ثم نظر فرأى دخاناً يتصاعد فقال لهم: «ليس هذا دخان وليمة وانما هو بخار دماء قتلاكم».

وكانت اصوات الطبل والزمر تحول دون سماع استغاثاتهم. ففطن البعض الى الكمين وتصايح القادمون ونكصوا على اعقابهم.

وكانت ضربة قاسية لطليطلة جردتها من زعمائها واعيانها ووجهائها.

وكانت «واقعة الحفرة» هذه سنة ٨٠٧/١٩١.

وفي سنة ١٩٢هـ غزا الفرنج بقيادة لويس بن قارله ولاية الثغر الأعلى وحاصروا طرطوشة فبعث الحكم جيشاً الى الشمال بقيادة ابنه عبد الرحمن، فهزمهم وفتح الله على المسلمين، وعاد ظافراً.

ثم عادوا الى حصار طرطوشة في العام التالي بقيادة لويس ايضاً وعاد المسلمون الى قتالهم بقيادة عبد الرحمن ومعه في هذه المرة عمروش عامل الثغر الأوسط وعبدون عامل الثغر الأعلى في قواتهما.

ونشبت بين المسلمين والفرنج عدة وقائع انتهت بهزيمة الفرنج وانقاذ طرطوشة سنة ٨٠٩/١٩٣. ولقد فاتنا ان نذكر ان عمروش هذا هو ابن يوسف كان في خدمة مطروح بن سليمان الاعرابي مع وصيف آخر اسمه «خلف» فاغتالا مطروحاً وقتلاه.

ولما قدم عمروش قرطبة ولّاه الامام الحكم «طلبيرة» ثم قدمه الى طليطلة كما رأينا.

وغزا بنبلونة واوقع باهلها ثم غزاها ثانية فتكاثرت النصرانية عليه فخرج منهزماً عنهم وهم يطلبونه حتى تحصن بحصن تطيلة فخاف اهل بنبلونة مدد المسلمين فانصرفوا عنه.

ويقال ان عمروش وشبريط كانا غلامين لعيشون الاعرابي وفي خدمته. وكان عيشون بجيروندة محارباً الافرنجة، فاسر عيشون واتى به الى قارله. فكان في حبسه اعواماً يخدمه عمروش ويأتيه من برشلونة وجيروندة بكل ما يشتهيه. فرمد عيشون، فجعل في البيت ستراً لرمده واسدل ثوباً على وجهه، وفي كل ذلك يأتيه السجان فينظر اليه في كل يوم على تلك الحال.

فتحول عيشون الى عمروش فقال له: ان هذا الستر الذي اغطي به وجهي فرصة فهل لك ان تبيعني نفسك وتجلس مجلسي وتسدل الثوب على وجهك وتلبس ثيابي والبس ثيابك واخرج كأني انت؟ فأجابه عمروش الى ذلك.

فلما رأى وقت خلوة وقد خف الوكلاء، خرج عيشون وقعد عمروش مكانه. فلم يُنكرَ عليه اذ رأوه في ثوبه. وكان، لطول مرضه، يدخل السجان وينظر الى الجالس المسدل عليه الستر فيظنه عيشوناً ولا يمتحنه.

وانتشر خبر عيشون وبلغ قارله خبره فبعث في السجّان وكشفه عن عيشون فقال: هو في السجن، فامره بالاختبار. فلما اختبر الفى عمروشاً، فاعلم به قارله فقال له: ائتني به.

فلما دخل عليه قال له: قد علمت ان الذي عملت ليس فيه الا العذاب والقتل، فما حملك على ذلك؟ فقال له: آثرته على نفسي.

فلما سمع قارله كلامه اعجبه ورق عليه وقال: «ان هذا لوفاء وما مثله يقتل». اطلقوه وخلوا سبيله.

وكساه وحمله. وورد على عيشون فآثره.

بهلول:

في سنة احدى وثمانين ومائة ظهر بهلول بجهة الثغر الأعلى وملك سرقسطة. وقصة بهلول طريفة لا بأس من ذكرها.

لما دخل المسلمون الأندلس وتقدموا الى الثغر الأعلى، احتل بعض العرب وشقة ونزلوا منها بموضع يعرف «بالعسكر»، نسب اليهم لنزولهم فيه فحصروا وشقة واهلها نصارى وبنوا عليها المساكن وغرسوا الكروم وحرثوا لمعاشهم، واتصل ذلك فعلهم سبعة اعوام واهل بوشقة في القصبة القديمة محصورون. فلما ضاقت لذلك حالهم نزلوا الى هؤلاء العرب مستامنين لأنفسهم وذراريهم واموالهم. فمن دخل في الاسلام ملك نفسه وماله وحرمته ومن اقام على النصرانية ادى الجزية.

ثم ان اولئك لم يزالوا حتى ثار بنو سلمة التجيبيون وباينوا بالخلعان وحاربوا اهل الطاعة ولم يحسنوا السياسة واظهروا العبث حتى ان احدهم اطلق بازاً على دجاجة فتحاماها الباز ونزل على طفل ترضعه امه فرامت دفع البازي عن ولدها فمنعها الوالي من ذلك وتركه على الطفل حتى حوصل من لحمه.

فلما ابدى بنو سلمة مثل هذا من الناس وشبهه، ضجوا وفزعوا الى رجل من صالحي وشقة يعرف بابن المفلس، وكان خيراً فاضلاً غاية في الورع والزهد. وكان من العرب. فقالوا له: قد ترى ما ابتلينا به من ظلم بني سلمة واسرافهم وغشهم ونحن راغبون بركة دعائك».

وتقلبت احوال بني سلمة ورماهم الله ببهلول بن مرزوق.

وكان السبب في ذلك ان بني سلمة هؤلاء تحرش لهم رجل وقال لهم: «ان ملككم زائل وان ذلك انما يكون من جهة «بربطانية» BARBATANIA. فتدبروا امرهم ووقعت ظنونهم واتفقت آراؤهم ان ذلك يدور عليهم من قبل مرزوق. وكان لمرزوق هذا ثلاثون ولداً ذكورا. وكان قد ارتفع مرزوق الى حصن «قصر

مونش» من حوز «بربطانية». وهو حصن منيع كان قد استولى على اكثره هو وولده.

فعزم بنو سلمة على قصد مرزوق وبنيه حيث هم.

فقال لهم مرزوق: ما لكم تخرجوننا عن اوطاننا ولسنا باهل لما تتوقعونه منا ولكن تعالوا وتوثقوا منا برهائن.

فرضوا بقوله واخذوا الرهائن وانصرفوا بهم وفي جملتهم بهلول هذا وكان اجمل بني ابيه، فضمه والي بوشقة الى سدته.

فبينما هو فيها، اذ طلعت عليه جارية كان ابن سلمة صاحب وشقة قد اختصها لحرمته وائتمنها على امواله. فنظرت من بهلول منظراً راعها فعلقته ووعدته الخروج معه من القصر، فاجابها الى مطلبها. وخرجا ليلاً باكثر الأموال الخاصة بابن سلمة.

فلما فقدها مولاها نظر في بهلول وكشف عنه ففقده ايضاً فايقن بالشر. وركب من فوره وقصد والد بهلول ليلاً فوجدهم ركوداً لا حركة لهم فهاجهم وقال لهم: ما فعل بهلول؟

فقالوا: لا عهد لنا به بعد ان اسلمناه بيدك رهينة.

فلم يقبل منهم واظهر العزم في طلبه عندهم.

فقالوا له: دونك ايماننا وذرارينا فلا طاقة لنا بغير ذلك.

فسكن عند ذلك عنهم.

فلما كان بعد هداءة من الليل استفتح بهلول على ابيه الباب ومعه الجارية والأموال. فقال له ابوه: «ان لم تمض عني وضعتك بين ايدي طالبك».

ففر بهلول بنفسه والجارية والأموال فلحق بارض برشلونة، ثم مل الثواء بها فقصد قرية «شلقوه» من بسيط «بربطانية» وهي من عمل «بربشتر». وكان له فيها اخت وصهر. فلما دخل على اخته قال لها: «لا تتروعي انا اخوك بهلول الذي من قصته كذا وكذا».

فعرفته وسكنت اليه.

وكان عامل بني سلمة يومئذ على «شلقوه» هذه يسخر اهلها ويؤذيهم بالنوائب. وكان فيهم زوج اخت بهلول. فارسلت اليه ان يقدم فلم يأذن له العامل. ثم اكدت عليه فأذن له. فقدم على بهلول وتلقاه واعلمه خبره. وفيما هو معه يستريح اليه اذ طلع عليه خادم العامل يأمره بالانصراف. فجعل بهلول يرغب الى الخادم ويسأل ان يدعه له بقية يومه ذلك فأبى وقال له:

«تعال فاخدم انت مكانه وادعه لك».
وذلك في ايام حصاد الزرع.
فقال بهلول: «لانتهين في سوء الحال الى حصاد زرع بني سلمة بيدي ان لم انظر نفسي».
فشد على الخادم بالسيف فقتله. ثم نظر في امره وما نشب فيه فخشي التلف. فقصد العامل حيث هو فقتله.
ثم نظر في امره والتفت الى صهره واهل قرية «شلقوه» فقال لهم: «كلنا قتل عامل بني سلمة وخادمهم وانتم عارفون بغشهم وعبثهم فما ظنكم الآن بهم؟
فقالوا له: اشر علينا برأيك نتبعه.
فقال: الرأي ان نضربهم ويجعل الله لنا سبيلاً اليهم.
وتحالف له اربعون رجلاً، وقصدوا «ربرش» من عمل بوشقة ودخلوه.

فلما اتصل بولاة وشقة من بني سلمة، ركبوا بمن معهم من رجالهم واهل طاعتهم فاحتلوا بحصن «ربرش» وفيه بهلول بن مرزوق بمن اجتمع اليه، فقاتلوهم قتالاً شديداً ثم انحلوا عن قتالهم نصف النهار وذلك في الصيف. ثم انبسط عسكر بني سلمة فنام بعضهم وغفل بعضهم.
فلما نظر بهلول الى الغرة في الوالي قال لمن معه: «انما ننتظر الموت فلا نضرب بسيوفنا قدماً فنموت موتاً كريماً خير من ان نعجز فنقهر ويتحكم فينا، ولكن شدوا بنا الى مضرب الوالي شد عزم فان اصبناه فهي حاجتنا وان تكن الأخرى فلا بد من الموت».
فشدوا عليه فالفوه مضطجعاً فقتلوه وتزلزل عسكره فصاح بهلول باعلى صوته:
«ايها الناس، لا بأس والله، عليكم مني فما قمت الا غضباً لله وذبا عن حريمه لعظم ما احدثه هؤلاء النفر الطغاة من هتك استاركم والعبث بكم في انفسكم وذراريكم»...
ثم ذكرهم بالبازي وقصته والطفل وامنهم في انفسهم واموالهم ودعا بالأمر لنفسه والتزم لهم ان يحسن السيرة ويأخذ فيهم بالواجب. فسكنوا الى قوله ودانوا له وضافروه واصطنعوا على بني سلمة وذكروا مسالبهم وقبح مذاهبهم.

فقتل من في العسكر من بني سلمة وتقبض بهلول بن مرزوق على الكراع والأموال، وقصد مدينة «وشقة» فدخلها وملكها ودان له اهلها... وكذلك

دخل مدينة سرقسطة، كما رأينا، وملكها وملك ايضاً «طرطوشة» وما والاها من الثغر. وذكر انه انتهى بولايته مدينة طليطلة.
ثم رماه الله بخلف بن راشد فقتله.

وفاة الحَكَم:

وشعر الحكم بدنو اجله فاستدعى ولده عبد الرحمن وتلا عليه وصيته التي جاء فيها:

«اني وطدت لك الدنيا وذللت لك الأعداء واقمت اود الخلافة وامنت عليك الخلاف والمنازعة، فاجر على ما نهجت لك من الطريقة، واعلم ان اولى الأمور بك واوجبها عليك حفظ اهلك ثم عشيرتك ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك فهم انصارك واهل دعوتك ومشاركوك في حلوك ومرك، فبهم انزل ثقتك، واياهم واس من نعمتك، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين الى مراتبهم من عوام رعيتك الذين لا يزالوان ناقمين على الملوك افعالهم، مستثقلين لاعبائهم. فاحسم عللهم ببسط العدل لكافتهم واحسام اولي الفضل والسداد لأحكامهم وعمالاتهم دون ان ترفع عنهم ثقل الهيبة. وان رأيت فيمن يرتقي من صنائعك رجلاً لم تنهض به سابقة ويشف بخصلة وتطمح نفسه وهمته فاعنه واختبره وقدمه واصطنعه. ولا يريبنك خمول اوله فان اول كل شرف خارجيته. ولا تدعن مجازاة المحسن باحسانه ومعاقبة المسيء باساءته فان عند التزامك لهذين ووضعك لهما مواضعهما يرغب فيك ويرهب منك. وملاك امرك كله بالمال، وحفظه بأخذه من حله وصرفه في حقه، فانه روح الملك المدبر بجثمانه. فلا تجعل بينك وبينه احداً في الاشراف على اجتنائه وادخاره والتثقيف لانفاقه وعطائه.

وختام وصيتي اياك باحكامك في احكامك، فاتق الله ما استطعت والى الله اكلك واياه استحفظك، فقد هان علي الموت اذ خلفني مثلك».

قد نقلنا نص هذه الوصية عن عبد الله عنان وهو بدوره نقلها، كما يقول، في ملاحظة عن مخطوط ابن حيان. وقد وردت فيه برواية الرازي ومعاوية بن هشام الشبينسي في نصين مختلفين حاولنا ان ننسق بينهما.

وقد كان الحكم كما رأينا محباً للشعر والشعراء وشعر هؤلاء بميله اليهم فالتجأوا اليه في ملماتهم. وهذه «حسانة التميمية الشاعرة، وكانت من اهل

البيرة ابنة ابي الحسن الشاعر. ولما مات ابوها لجأت الى الحكم. وكانت وسيلتها اليه تلك الأبيات:

«اني اليك ابا العاصي موجّعة ... ابا الحسين سقته الواكف الديم
قد كنت ارتع في نعماء عاكفة ... فاليوم آوى الى نعماك يا حَكَمُ
انت الامام الذي انقاد الانام له ... وملكته مقاليد النهى الأمم
لا شيء اخشى اذا ما كنت لي كنفا ... آوى اليه ولا يعرّوني العدم
لا زلت بالعزة القعساء مرتديا ... حتى تذل اليك العرب والعجم

ويقول المقرى في «نفح الطيب»، جزء ٢ صفحة ٤٢٨:

«فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه وامر لها باجراء مرتب وكتب الى عامله على «البيرة»، غرناطة الحالية فجهزها بجهاز حسن.

ويحكى انها وفدت على ابنه عبد الرحمن بشكية من عامله جابر بن لبيد والي البيرة. وكان الحكم قد وقع لها بخط يده تحرير املاكها فلم يفدها. فدخلت الى الامام عبد الرحمن فاقامت بفنائه وتلطفت مع بعض نسائه حتى اوصلتها اليه وهو في حال طرب وسرور فانتسبت اليه فعرفها وعرف اباها ثم انشدته:

«الى ذي الندى والمجد سارت ركائبي ... على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعي انه خير جابر ... ويمنعني من ذي الظلامة جابر
فاني وايتامي بقبضة كفه ... كذى ريش اضحى في مخالب كاسر
جدير لمثلي ان يقال مروءة ... لموت ابي العاصي الذي كان ناصري
سقاه الحيا لو كان حيا لما اعتدى ... علي زمان باطش بطش قادر
ايمحو الذي خطته يمناه جابر ... لقد سام بالأملاك احدى الكبائر

ولما فرغت رفعت اليه خط والده وحكت جميع امرها، فرق لها واخذ خط ابيه فقبله ووضعه على عينيه وقال: «تعدى ابن لبيد طوره حتى رام نقض رأى الحكم وحسبنا ان نسلك سبيله، بعده ونحفظ بعد موته عهده. انصرفي، يا حسانة، فقد عزلته لك.

ووقّع لها بمثل ابيه الحَكَم فقبّلت يده وامر لها بجائزة فانصرفت وبعثت اليه بقصيدة منها:

«ابن الهشامين خير الناس مأثرة ... وخير منتجع يوما لرواد
ان هز يوم الوغى اثناء صعدته ... روى انابيبها من صرف فرصاد

قـل للامـام ايا خـير الـورى نسبـا   مـقـابـلا بـين آبـاء واجـداد
جودت طبعي ولم ترض الظلامة لي   فهـاك فضـل ثـنـاء رائـح غـاد
فـان اقمت ففي نعمـاك عـاكفـة   وان رحـلـت فـقـد زودتـني زادي

ويقول الدكتور احمد هيكل:

«وحسانة، فيما نعلم اولى الشواعر الأندلسيات واسبقهن الى قرض الشعر. وشعرها كما يبدو، مزيج من الرثاء والشكوى والمدح وطلب العون، وهو على جانب كبير من النضج الفني. وفيه بعض تلك السمات الأندلسية المميزة، فهو شعر يتسم بالتجويد الفني وبالتركيز العاطفي. ولنتأمل ابياتها الأولى التي تقدمت بها الى الحكم بعد موت ابيها. اننا نحسها تفيض بالعاطفة الحارة الصادقة. ولننظر ابياتها الأخرى التي انشدتها عبد الرحمن الأوسط فنراها على حظ كبير من التجويد الفني، الذي لا يأتي مصادفة ولا تند به طبيعة شاعر عادي. انظر الى استخدامها الألفاظ ولعبها بكلمة «جابر» دون تصنع أو افتعال في قولها:

ليجبر صدعي انـه خير جـابر   ويمنعني من ذي الظلامة جابر

وشعر حسانة بعد ذلك يتسم بالاصالة والصدق، ففيه كثير من طبيعة المرأة في ضعفها وحاجتها الى الحماية وبحثها عن الكنف وفزعها من القهر وفرط احساسها بالعدوان، وصراخها في طلب الغوث وجبر الصدع واقالة العثرة»[1].

---

١ ـ الدكتور احمد هيكل: الأدب الأندلسي، دار المعارف كورنيش النيل ـ القاهرة ١٩٨٢ صحفة: ١٠٨ ـ ١٠٩

الفصل الأول

عبد الرحمن الأوسط

قرطبة منغمسة في الحداد. انه يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ٢٠٦ ايار ٨٢٢، توفي الحكم الأول وبويع ابنه عبد الرحمن في اليوم التالي، واخذ له البيعة في القصر. ولما صلى على والده واراه التراب جلس متطاطئاً ليس تحته وطأ. وفعل من معه كذلك وقال: «الحمدلله الذي جعل الموت حكماً من حكمه وعزماً من امره واجرى الأمور على مشيئته واستأثر بالملكوت والبقاء واذل خلقه بالفناء . . . وقد كان مصاب الامام ـ رحمه الله ـ ما جلت به المصيبة وعظمت به الرزية، فعند الله نحتسبه، واياه نسأل الهام الصبر واليه نرغب في اكمال الاجر والذخر، وعهد الينا بما فيه اصلاح حالكم. ولسنا ممن يخالف عهده بل لكم لدينا مزيد، ان شاء الله».

ثم قام، وخرجت الكساوى والأموال على اقدارهم.

وفي فاتحة ولايته عاد عبد الله البلنسي عم ابيه الى الثورة واحتل كورة تدمير مطالباً باقطاعها سنة ٢٠٧ هـ والتف حوله جمع كبير وهم بالزحف على قرطبة رغم شيخوخته.

ان عبد الله هذا سمت نفسه بعد وفاة ابيه عبد الرحمن الداخل لطلب الأمر فناقض هشاما سلطان الأندلس وشايع اخاه الخارج عليه سليمان بن عبد الرحمن الداخل. وكان حريصاً محروماً مما طلبه. حارب اخاه هشاما ثم حارب ابن اخيه الحكم بن هشام ثم حارب عبد الرحمن الأوسط فاظهر العصيان وعسكر بمرسية وصلى الجمعة على ان يخرج يوم السبت. وقال في خطبته:

«اللهم ان كنت احق بهذا الأمر من عبد الرحمن حفيد اخي فانصرني عليه، وان كان هو احق به مني وانا صنو جده فانصره علي. فامنوا على دعائه ولم يستتم كلامه حتى ضربته الريح الباردة فسقط مفلوجاً، فكمل الناس صلاتهم بغيره. وافترق الجمع وصار الى بلنسية فمات بها في سنة ثمان ومائتين واحسن

عبد الرحمن الأوسط على اهله وولده. وبه انتهت فتنة امتدت من ٧٧٨ الى ٨٢٤ م واستراح من خصم لدود.

زرياب:

هو ابو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب . مولى امير المؤمنين المهدي العباسي. وزرياب لقب غلب عليه لسواد لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله، شبه بطائر اسود. اعتقه مولاه لما ظهر عليه من الذكاء والنباهة.

وكان من خبره في الوصول الى الأندلس انه كان تلميذاً لابراهيم الموصلي المغني الشهير. وما دامت المسألة تتعلق بالغناء والمغنين فلنذكر ما قاله ابن خلدون بهذا الشأن:

«صناعة الغناء هي تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منظمة معروفة يوقع كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة. ثم تؤلف تلك النغم بعضها الى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات، وذلك ان تبين في عالم الموسيقى ان الأصوات تتناسب فيكون صوت نصف صوت وربع آخر وخمس آخر وجزء من احد عشر من آخر، واختلاف هذه النسب عند تأديتها الى السمع بخروجها من البساطة الى التركيب. وليس كل تركيب منها ملذوذاً عند السماع بل تراكيب خاصة هي التي حصرها اهل علم الموسيقى وتكلموا عليها. وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع اصوات اخرى من الجمادات، اما بالقرع أو بالنفخ في الآلات تتخذ لذلك، فنرى لها لذة عند السماع فمنها اصناف ما يسمونه الشبابة وهي قصبة جوفاء بابخاش في جوانبها معدودة ينفخ فيها فتصوت فيخرج الصوت من جوفها على سداده من تلك الأبخاش ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعاً على تلك الأبخاش وضعاً متعارفاً حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلتذ السمع بادراكها للتناسب الذي ذكرناه.

ومن جنس هذه الآلة المزمار الذي يسمى «الزلامى» وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب جوفاء من غير تدوير لأجل ائتلافها من قطعتين منفردتين بابخاش معدودة ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل فينفذ النفخ بواسطتها اليها وتصوت بنغمة حادة يجري فيها من تقطيع الأصوات من تلك الأبخاش بالأصابع مثلما يجري في الشبابة.

ومن احسن آلات الزمر البوق وهو بوق من نحاس اجوف في مقدار الذراع يتسع الى ان يكون انفراج مخرجه في مقدار دون الكف في شكل بري القلم وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من الفم اليه فيخرج الصوت ثخيناً دوياً وفيه ابخاش ايضاً معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على التناسب فيكون ملذوذا.

ومنها آلات الأوتار وهي جوفاء كلها اما على شكل قطعة من الكرة مثل المربط والرباب او على شكل مربع كالقانون توضع الأوتار على بسائطها مشدودة في رأسها الى دساتر جائلة ليأتي شد الأوتار ورخوها عند الحاجة اليه بادارتها. ثم تقرع الأوتار اما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد ان يطلى بالشمع والكندر. ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في امراره او نقله من وتر الى وتر، واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع باصابعها على اطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر فتحدث الأصوات متناسبة ملذوذة وقد يكون القرع في الصوت بالقضبان او في الأعواد بعضها ببعض على توقيع مناسب يحدث عنه التذاذ بالمسموع.

واللذة بالغناء هي ان اللذة ادراك الملائم والمحسوس انما تدرك منه كيفية فاذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة، واذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة، فالملائم من الطعام ما ناسبت كيفيته حاسة الذوق في مزاجها وكذا الملائم من الملموسات.

والحسن في المسموع ان تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة وذلك ان الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقة والضغط وغير ذلك، والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحس، فاولاً ان يخرج من الصوت الى حده دفعة بل بتدريج ثم يرجع كذلك وهكذا الى المثل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين[1].

ويقول المسعودي في مروج الذهب جزء ٢ ص ٢٧٧، تحقيق شارل بيلا: ان قوم عاد كانوا عشر قبائل فدعا عليهم هود فمنعوا المطر ثلاث سنين واجدبت الأرض. وكانوا يعظمون موضع الكعبة وكان موضعها ربوة حمراء.

وفدت عاد الى مكة يستسقون لهم وكان بمكة يومئذ العماليق فاتى الوفد

---

١ ـ مقدمة ابن خلدون: المطبعة الأدبية ـ بيروت سنة ١٨٨٦ ص ٣٧٠ وما يليها.

مكة فاقبلوا على الشرب واللهو حتى غنتهم «الجوادتان» قينتا معاوية بن بكر بشعر حث لهم على ما وردوا من اجله

«الا يا قيل ويحك قم فهينم	لعل الله يمطرنا غماما
فيسقى ارض عاد ان عادا	قد امسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو	به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير	فقد امست نساؤهم عياما[1]
وان الوحش تاتي ارض عاد	فلا تخشى لراميهم سهاما
وانتم ها هنا فيما اشتهيتم	نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم	ولا لُقّوا التحية والسلاما

فلما جاء الاسلام حرم كل ما له صلة بالجاهلية والآلات التي كانت تستعمل فهي المزهر والبربط والصنج والمعزفة والقانون والمربع والطبل والدف والمزمار والقصابة.

ولقد اشتهر في العصر الأموي عدد من المغنين والمغنيات: «جميلة» مولاة الأنصار التي يقول فيها معبد انها اصل الغناء وهو مع زملائه الفروع ولولاها لم يكونوا.

وكانت متحفظة لا تغني إلا في بيتها ويأتيها الاشراف والفنانون الذين يريدون الاستماع اليها والاستمتاع بفنها.

عزة الميلاء: تقيم حفلاتها الدورية وتعلم الشعب السكوت عند السماع لتبرز ما تعلمته على «سيرين» و«رباب» و«نشيط» و«سائب خاثر» وهذا الأخير ابتكر الايقاع المسمى «الثقيل الأول».

معبد: الذي قال عنه اسحق بن ابراهيم الموصلي: كان معبد من احسن الناس غناء واجودهم صنعة واحسنهم خلقاً وهو فحل المغنين وامام اهل المدينة في الغناء وهو صاحب الألحان السبعة المعروفة بمدن معبد وحصونه.

أما العصر العباسي الذي يبدأ سنة ٧٥٠ وتصل فيه الحضارة العربية الى القمة في العلوم والفلسفة، وقد ترجمت اثناء هذه الفترة كتب اليونان واقتفى آثارهم ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي ٨٠١ - ٨٦٦ له عدة مؤلفات موسيقية.

---

١ - العيمة: شدة العطش.

وابو نصر الفارابي ٨٧٠ - ٩٥٠ من اشهر تآليفه الموسيقية: «كتاب الموسيقى الكبير» الذي طور به مماوصل اليه اليونان في العلوم الموسيقية وارباطها بالفيزياء، وبين لنا الأصوات والايقاعات مع طرق العزف على العود التي كانت متداولة في عصره.

وقد برز في هذا العصر فنانون على مختلف المستويات حافظوا على التراث ونشروه بين الشعوب التي سيطروا عليها عن طريق الفتوحات منهم:

ابراهيم الموصلي الذي وصلت ثروته الى عشرين مليون درهم وهو ما لم يحصل عليه غيره في عصره، وذلك من تجارته في القيان اللواتي يشتريهن ثم يعلمهن الأدب والموسيقى والغناء ثم يبيعهن باسعار خيالية.

ابنه «اسحق الموصلي» الذي اصبح استاذ عصره في هذه الصناعة بلا منازع، فهو الذي هذب هذه الصناعة ووضع حدودها وميز طرائفها تمييزاً لم يقدر عليه احد، وقد اقتبس الأتراك الحانهم الشجية عن اوضاعه الموسيقية.

وفي هذا العصر حوالي ٨٢٢م ظهرت مدرسة قرطبة بالأندلس ومؤسسها زرياب تلميذ اسحق الموصلي.

اليكم قصة زرياب:

في ذات يوم اقترح الرشيد على اسحق الموصلي مغنياً غريباً مجيد الصنعة لم يشتهر مكانه اليه. فذكر له تلميذه هذا وقال: انه مولى لكم وسمعت له نزعات حسنة ونغمات رائقة ملتاطة بالنفس، فقد اوقفته على ما استغرب منها وهو من اختراعي واستنباط فكري، واحدس ان يكون له شأن.

فقال الرشيد: هذا طلبتي فاحضرنيه لعل حاجتي عنده.

فاحضره.

فلما مثل امام هارون الرشيد اعرب عن نفسه باحسن منطق واوجز خطاب وسأله عن معرفته بالغناء. فقال: «نعم احسن منه ما يحسنه الناس واكثر ما احسنه لا يحسنونه مما لا يحسن الا عندك ولا يدخر إلا لك، فان اذنت غنيتك ما لم تسمعه اذن قبلك».

فامر الرشيد باحضار عود اسحق. فلما ادني اليه وقف عن تناوله وقال: «لي عود نحته بيدي وارهفته باحكامي لا ارتضي غيره وهو بالباب، فليأذن لي امير المؤمنين في استدعائه.

فامر بادخاله اليه. فلما تأمله الرشيد وكان شبيهاً بالعود الذي دفعه قال له: «ما منعك ان تستعمل عود استاذك؟»

فقال: «ان كان مولاي يرغب في غناء استاذي غنيته بعوده وان كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي». فقال له: «ما اراهما الا واحدا».

فقال: «صدقت يا مولاي، ولا يؤدي النظر غير ذلك، ولكن عودي وان كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه فهو يقع من وزنه في الثلث او نحوه واوتاري من حرير يغزل بماء ساخن يكسبها اناثة ورخاوة وبماً ومثلثها اتخذتها من مصران شبل اسد فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة اضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها.

فاستبرع الرشيد وصفه وامره بالغناء فجلس ثم اندفع فغناه:

«يا ايها الملك الميمون طائره   هرون راح اليك الناس وابتكروا»

فاتم النوبة وطار الرشيد طربا وقال لاسحق: «والله لولا اني اعلم من صدقك لي على كتمانه اياك لما عنده وتصديقه لك من انك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك اعلامي بشأنه، فخذه اليك واعتن بشأنه حتى افرغ له فان لي فيه نظرا».

فسقط في يد اسحق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره. فخلا بزرياب وقال:

«يا علي، ان الحسد اقدم الادواء وادوؤها والدنيا فتانة، والشركة في الصناعة عداوة ولا حيلة في حسمها، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من اجادتك وعلو طبقتك وقصدت منفعتك. فاذا انا قد اتيت نفسي من ما منها بادنائك، وعن قليل تسقط منزلتي وترتقي انت فوقي، وهذا ما لا اصاحبك عليه ولو انك ولدي.. ولولا رعيي لذمة تربيتك لما قدمت شيئاً على ان أذهِبَ نفسك يكون به في ذلك ما كان. فتخير في اثنين لا بد لك منهما: اما ان تذهب عني في الأرض العريضة لا اسمع لك خبراً بعد ان تعطيني على ذلك الايمان الموثقة وانهضك لذلك بما اردت من مال وغيره. واما ان تقيم على كرهي ورغمي مستهدفاً لي فخذ الآن حذرك مني فلست والله، ابقي عليك ولا ادع اغتيالك باذلا في ذلك بدني ومالي فاقض قضاءك».

فخرج زرياب لوقته وعلم قدرته على ما قال، واختار الفرار قدامه.

فأعانه اسحق على ذلك سريعاً وراش جناحه فرحل عنه ومضى يبغي مغرب الشمس. واستراح قلب اسحق منه.

تذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه فامر اسحق بحضوره. فقال: «ومن لي به، يا امير المؤمنين، ذاك غلام مجنون يزعم ان الجن تكلمه وتطارحه ما يزهي به من غنائه، فما يرى في الدنيا من يعدله وما هو الا ان ابطأت عليه جائزة امير المؤمنين وترك استعادته فقدر التقصير به والتهوين بصناعته فرحل مغضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عني. وقد صنع الله تعالى ذلك لأمير المؤمنين فانه كان به لمم[1] يغشاه ويفرط خبطه فيفزع من رآه».

فسكن الرشيد الى قول اسحق وقال: «على ما كان به، فقد فاتنا منه سرور كثير».

ومضى زرياب الى المغرب فنسي بالمشرق خبره، اذ لم يكن اسمه شهر هناك.

تحركت قافلته سراً تحمل زوجته واولاده وبعض متاعه، ولكن الى اين؟، فلا بد من السفر الى بلد لا يخضع لنفوذ وسلطة الخليفة هارون الرشيد. فانطلق الركب سراً الى الشام ومصر حتى وصل الى القيروان التي يحكمها الاغالبة الذين لا يصل اليهم نفوذ الرشيد..

وصل الركب الى مدينة القيروان فاستراحت نفس زرياب واطمأن باله. والقيروان تقع جنوب مدينة تونس على مقربة من ساحل البحر الأبيض المتوسط، اسسها عقبة بن نافع في عهد معاوية بن ابي سفيان لتكون العاصمة الجديدة لولاية افريقية الاسلامية، وقاعدة تتجمع فيها جيوش العرب لفتح المغرب، وحصنا للدفاع عنه.

عندما وصل زرياب الى القيروان كانت في يد ابراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة في شمال افريقية.

استقبل زرياب في القيروان خير استقبال وذاع سيطه في جميع ولاية افريقية. ولم تنقض السنوات الأولى على اقامته بالقيروان حتى اشاع نهضة غنائية فنية في البلاد فمال الناس الى الاشتغال بالموسيقى والغناء فسمي احد احياء اللهو والفن بالمدينة «الحي الزريابي».

عاش زرياب مع اهله في القيروان حياة ناعمة مطمئنة واصبحت له مكانة عند ملك البلاد «زيادة الله» وهو ابن ابراهيم بن الأغلب، رأس دولة الأغالبة. وكان زيادة الله افضل ابناء ابراهيم وافصحهم لساناً واكثرهم بياناً فتدعمت

---

١ ـ لمم: طرف خفيف من الجنون.

الصلة بين الملك وزرياب لأن الملك زيادة الله يقول الشعر ويتذوق الألحان والغناء.

وذات يوم كان زرياب في مجلس الملك فغنى اغنية يمتدح فيها السواد في شعر عنترة بن شداد يقول فيه:

«فان تكن امي غرابية   من ابناء حام بها عبتني
فاني لطيف ببيض الظبا   وسمر العوالي اذا جئتني
ولولا فرارك يوم الوغى   لقدتك في الحرب او قدتني.

تغنى زرياب بهذه الأبيات متفاخراً بلونه الأسود امام الملك، فغضب غضباً شديداً واعتبر قول زرياب وغناءه تطاولاً ووقاحة لا تحتمل في مجلسه. فقد جرى العرف ان يمتدح الشاعر والمغني الخليفة والملك والأمير لا ان يمتدح نفسه. فامر زيادة الله بضرب زرياب وابعاده عن البلاد وقال له: «ان وجدتك في مكان ما من بلادي بعد ثلاثة ايام ضربت عنقك بالسيف».

ندم زرياب اشد الندم على ما بدر منه واخذ يفكر في مكان يذهب اليه قبل ان تنتهي هذه المهلة.

وتشاء الظروف الطيبة ان يحضر في ذلك الوقت بالتحديد الى القيروان منصور المغني مبعوثاً الى زرياب من امير الأندلس، الحكم بن هشام يدعوه لزيارة قرطبة.

وكان زرياب قد خاطب امير الأندلس الحكم الأول، المباني للعباسيين وذكر له نزاعه اليه واختياره اياه ويعلمه بمكانه من الصناعة التي ينتحلها ويسأله الاذن في الوصول اليه.

فسار زرياب نحوه بعياله وولده، وركب بحر الزقاق الى الجزيرة الخضراء. فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم الأول، فهم بالرجوع الى العدوة. وكان معه منصور اليهودي المغني رسول الحكم اليه، فثناه عن ذلك ورغبه في قصد القائم مقام الحكم وهو عبد الرحمن الثاني ولده.

وكتب اليه بخبر زرياب ووصوله الى الأندلس. فجاءه كتاب عبد الرحمن الأوسط يذكر تطلعه اليه والسرور بقدومه عليه. وكتب الى عماله على البلاد ان يحسنوا اليه ويوصلوه الى قرطبة. وامر خصياً من اكابر خصيانه ان يتلقاه ببغال ذكور واناث وآلات حسنة. . .

ودخل هو واهله البلد ليلاً صيانة للحرم وانزله في دار من احسن الدور وحمل اليها جميع ما تحتاج اليه وخلع عليه.

وبعد ثلاثة ايام من قدوم زرياب الى الأندلس استدعاه عبد الرحمن الى مجلسه وكتب له في كل شهر بمائتي دينار راتباً وان يجري على بنيه الذين قدموا معه وكانوا اربعة: عبد الرحمن وجعفر وعبيد الله ويحيى عشرون ديناراً لكل واحد منهم كل شهر، وان يجري على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار منها لكل عيد الف دينار ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار، وان يقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مدى، ثلثاها شعير وثلثها قمح واقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم باربعين الف دينار.

فلما قضى له سؤله وانجز موعده وعلم ان قد ارضاه وملك نفسه، استدعاه فبدا بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه. فما هو الا ان سمعه فاستهوله واطرح كل غناء سواه، واحبه حباً شديداً وقدمه على جميع المغنين.

وكان لما خلا به اكرمه غاية الاكرام وادنى منزلته وبسط امله وذاكره في احوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء فحُرِّك منه بحر زاخر عليه مداه، فاعجب الأمير به وراقه ما اورده.

وحضر وقت الطعام فشرفه بالأكل معه هو واكابر ولده. ثم امر كاتبه بان يعقد له صكاً بما ذكرناه آنفا.

ولما ملك قلبه واستولى عليه حبه فتح له باباً خاصاً يستدعيه فيه متى اراد.

وذكر ان زرياب ادعى ان الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة الى صوت واحد. وكان يهب من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة فتأخذان عودهما ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ثم يكتب الشعر ثم يعود عجلاً الى مضجعه. وكذلك يحكى عن ابراهيم الموصلي في لحنه البديع المعروف بالمأخوري ان الجن طارحته اياه. والله اعلم بحقيقة ذلك.

وزاد زرياب بالأندلس في اوتار عوده وتراً خامساً اختراعاً منه، إذ لم يزل العود ذا اربعة اوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الأربع فزاد عليها وتراً خامساً احمر متوسطاً، فاكتسب به عوده الطف معنى واكمل فائدة. وذلك ان الزير صبغ اصفر اللون وجعل في العود بمنزلة الصفراء من الجسد، وصبغ الوتر الثاني بعده احمر وهو من العود مكان الدم من الجسد وهو في الغلظ ضعف الزير ولذلك سمي مثنى. وصبغ الوتر الرابع اسود وجعل من العود مكان السواد من الجسد وسمي البم وهو اعلى اوتار العود وهو ضعف المثلث الذي عطل من الصبغ وترك ابيض اللون وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد. وجعل نصف المثنى في الغلظ فلذلك سمي المثلث.

فهذه الأربعة من الأوتار مقابلة للطبائع الأربع فالبمّ حار يابس يقابل المثنى وهو حار رطب وعليه تسويته، والزير حار يابس يقابل المثلث وهو حار رطب قوبل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم باخلاطه الا انه عطل من النفس والنفس مقرونة بالدم فاضاف زرياب من اجل ذلك الى الوتر الأوسط الدموي، هذا الوتر الخامس الأحمر الذي اخترعه بالأندلس ووضعه تحت المثلث وفوق المثنى فكمل في عوده قوى الطبائع الأربع وقام الخامس المزيد مقام النفس من الجسد.

وهو الذي اخترع بالأندلس مضارب العود من قوادم النسور معتاضاً به من مضرب الخشب فابرع في ذلك، للطف الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته اياه.

وكان زرياب عالماً بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة واخلاف طبائعها واهويتها وتشعب بحارها وتصنيف بلادها وسكانها مع ما سنح له من فك كتاب الموسيقى مع حفظه لعشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بالحانها. وهذا العدد من الألحان غاية ما ذكره بطليموس واضع هذه العلوم ومؤلفها.

وكان زرياب قد جمع الى خصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظروف وفنون الأدب ولطف المعاشرة، وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يجده احد من اهل صناعته حتى اتخذه ملوك اهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه واستحسنه من اطعمته فصار الى آخر ايام اهل الأندلس منسوباً اليه معلوماً به.

فمن ذلك انه دخل الى الأندلس وجميع من فيها من رجل او امرأة يرسل جمته مفروقاً وسط الجبين عاماً للصدغين والحاجبين. فلما عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو وولده ونساؤه لشعورهم وتقصيرها دون جباههم وتسويتها مع حواجبهم وتدويرها الى آذانهم واسدالها الى اصداغهم، هوت اليه افئدتهم واستحسنوه.

ومما سنه لهم استعمال المرتك المتخذ من المردانج يطرد ريح الصنان من معاجنهم، ولا شيء يقوم مقامه. وكانت ملوك الأندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد فكانوا لا تسلم ثيابهم من وضر، فدلهم على تصعيدها بالملح وتبييض لونها. فلما جربوه احمدوه جداً وهو اول من اجتنى بقلة الهليون المسماة بلسانهم الاسفراج ولم يكن اهل الأندلس يعرفونها قبله.

ومما اخترعوه من الطبيخ اللدن المسمى عندهم بالثقالي وهو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة محلى بالسنبوسك والكباب. ويليه عندهم لون النقلية المنسوبة الى زرياب.

ومما اخذه الناس عنه بالأندلس تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة وايثاره فرش انطاع الأديم اللينة الناعمة على ملاحف الكتان واختياره سفر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية اذا لو ضر يزول عن الأديم باقل مسحة. ولبسه كل صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به فانه رأى ان يكون ابتداء الناس للباس الأبيض وخلعهم للملون من يوم مهرجان اهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن في ست بقين من شهر يونيه الشمسي من شهورهم الرومية فيلبسونه الى اول شهر اكتوبر الشمسي منها ثلاثة اشهر متواصلة ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة.

ورأى ان يلبسوا في الفصل الذي بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من صبغهم جباب الخز الملحم والمحرر والدراريع التي لا بطائن لها لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التي ينتقلون اليها لخفتها وشبهها بالمحاشي ثياب العامة. وكذا رأى ان يلبسوا في آخر الصيف وعند اوائل الخريف المحاشي المروية والثياب الصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة وذلك عند قرص البرد في الغدوات الى ان يقوى البرد فينتقلوا الى اثخن منها من الملونات ويستظهرون من تحتها اذا احتاجوا الى صنوف الفراء.

واستمر بالأندلس ان كل من افتتح الغناء فيبدأ بالنشيد اول شدوه بأي نقر كان ويأتي اثره بالبسيط ويختم بالمحركات والاهزاج تبعاً لمراسم زرياب. وكان اذا تناول الالقاء على تلميذ يعلمه امره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة وان يشد صوته جداً اذا كان قوي الصوت. فان كان لينه امره ان يشد على بطنه عمامة فان ذلك مما يقوي الصوت ولا يجد متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم. فان كان الص[1] الاضراس لا يقدر على ان يفتح فاه او كانت عادته زم اسنانه عند النطق راضه بان يدخل فيه قطعة خشب عرضها ثلاث اصابع يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه.

وكان اذا اراد ان يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع امره

---

١ ـ الص الاضراس بفتح اللام متقاربها.

ان يصيح باعلى صوته «يا حجام» أو يصيح «آه» ويمد بها صوته .فان سمع صوته بها صافياً ندياً قوياً مؤدياً لا يعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس عرف ان سوف ينجب واشار بتعليمه. وان وجده خلاف ذلك ابعده.

وكان له من ذكور الولد ثمانية: عبد الرحمن وعبيد الله ويحيى وجعفر ومحمد وقاسم واحمد وحسن ومن الاناث اثنتان: علية وحمدونة، وكلهم غنى ومارس الصناعة واختلفت به الطبقة فكان اعلاهم عبيد الله ويتلوه عبد الرحمن لكنه ابتلى من فرط التيه وشدة الزهو وكثرة العجب بغنائه والذهاب بنفسه ما لم يكن له شبه فيه وقلما يسلم مجلس حضوره من كدر يحدثه، ولا يزال يجترىء على الملوك ويستخف بالعظماء ولقد حمله سخفه على ان حضر يوماً مجلس بعض الأكابر الأعاظم في انس قد طاب به سروره. وكان صاحب قنص تغلب عليه لذته فاستدعى بازياً كان كلفا به كثير التذكر له فجعل يمسح اعطافه ويعدل قوادمه ويرتاح لنشاطه، فسأله عبد الرحمن ان يهبه له فاستحياه من رده واعطاه اياه مع ضنه به فدفعه عبد الرحمن الى غلامه ليعجل به الى منزله واسر اليه فيه بسر لم يطلع عليه. فمضى لشأنه ولم يلبث ان جاء بطيفورية مغطاة مكرمة بطابع مختوم عليها من فضة فاذا به لون مصوص قد اتخذ من البازي بعد ذبحه وقال لصاحب المجلس: «شاركني في نقلي هذا فانه شريف بديع الصنعة». فلما رأى الرجل انكر صفته وعاب لحمه وسأله عنه. فقال: هو البازي الذي كنت تعظم قدره ولا تصبر عنه قد صيرته الى ما ترى.

فغضب صاحب المنزل حتى ربا في اثوابه وفارقه حلمه وقال له: «قد كان والله، ايها الكلب السفيه على ما قدرته وما اقتويت فيه الا بكبار الناس المؤثرين لمثله وما اسعفتك به الا معظماً من قدرك ما صغرت من قدري واظهرت من هوان السنة عليك باستحلالك لسباع الطير المنهى عنها ولا ادع والله الآن تأديبك اذ اهملك ابوك معلم الناس المرؤة».

ودعا له بالسوط وامر قلنوسته وساط هامته مائة سوط. فاستحسن جميع الناس فعله به وابدوا الشماتة به.

وكان محمد منهم مؤنثاً، وكان قاسم احذقهم غناء مع تجويده. وتزوج الوزير هشام بن عبد العزيز حمدونه.

وكان اول من دخل الأندلس من المغنين «علون وزرقون». دخلا في ايام الحكم بن هشام لكن غناؤهما ذهب لغلبة غناء زرياب عليه.

وقال عبد الرحمن بن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن ونديمه في زرياب:

«يا علي بن نافع يا علي   انت انت المهذب اللوذعي
انت في الأصل حين يسأل عنه   هاشمي وفي الهوى عبشمي

وقال ابن سعيد: وانشد لزرياب والدي في معجمه:

علقتها ريحانة هيفاء عاطرة نضيره
بين السمينة والهزيلة والطويلة والقصيرة
لله ايام لنا سلفت على دير المطيره
لا عيب فيها للمتيم غير ان كانت يسيره

وابن الشمر كان نسيج وحده مجموعاً له من الخصال النبيلة. وكان لطيفاً حلواً يغلب على قلب من شاهده. وصحب عبد الرحمن الأوسط قبل السلطنة. ولما صار الأمر اليه وفى له ونادمه. وكان قد بشر عبد الرحمن بان الأمر سيصير اليه من جهة التنجيم. فلما كان ذلك احسن جزاءه واجرى عليه رزقاً للشعر ورزقاً للتنجيم.

وكان الأمير عبد الرحمن مصغياً لأحكام التنجيم ولم يكن عنده في المنجمين مثل ابي الشمر. وغض يوماً من علم المنجمين وقال انها مخرقة ورجم بالغيب. فاراد ابن الشمر ان يقيم له برهاناً على صحته بان قال للأمير: اختبر في مقامك بما شئت. فقال: «ان انباتني على اي باب من ابواب هذا المجلس اخرج في قيامي صدقت بعلمك».

فكتب ابن الشمر في ورقة مختومة ما اقتضى له الطالع، ودعا الأمير من فتح له باباً محدثاً في غارب المجلس الذي يلي مقعده ثم خرج منه وترك الخروج من ابواب المجلس الأربعة وفتح الورقة فوجد فيها ما فعله الأمير فتعجب ووصله.

ونزل بفحص السرادق اعلى قرطبة وقد قفل من غزوة مزمعاً على الدخول الى قرطبة صبيحة غده في تعبئة كاملة. فقال له ابن الشمر: «لتعلم انك مغلوب على ذلك ولا بد لك الليلة من المبيت في قصرك». فقال: «والله لا ادخلنه. فقال: «والله لتدخلنه مكرهاً ولاكونتن في هيئتي شبهك في طريقك اليه فسوف ترى».

فغضب ووكل به.

وكان ذلك اليوم مشمساً صائفاً فما هو الا ان دنا المساء فانهمل من المطر وهب من الريح ما ضج له الناس وتداعوا للدخول الى قرطبة. ولم يجد الأمير

بدا من مبادرة قصره. وركب في نفر من خاصته وابن الشمر الى جانبه يسايره فوطئت دابة ابن الشمر مسماراً فلم تنهض فامر له بفرس من جنائبه بسرجه ولجامه فركبه، وشكا نفوذ الماء لغفارته التي كان يتوقاه بها ووصوله الى جسده فامر له الأمير بممطر خز من مماطره وقنزعة من قنازعه صبا عليه فاستوى والأمير في لبوسه ومضى يسايره.

فلما نزل قال له: «يا مولاي، كيف رأيت قولي؟»

فقال: «انطلق بما عليك وتحتك والصلة لاحقة بك».

وكتب ابن الشمر في الحين رقعة فيها:

«تحرك حين حركه لوقت ايابه القدر
فيا من دونه الحجاب والاستار والحجر
لئن كنت امرؤا تخشى بوادر زجره البشر
فما يخشاك بهرام ولا زحل ولا القمر

وجعله الحجاري رئيس المنجمين بالأندلس الى ما حباه الله من حسن الخلال التي باقلها يبلغ الكمال.

وفي هذا العصر حوالي ٨٢٨ ظهرت مدرسة قرطبة الغنائية بالاندلس ومؤسسها زرياب تلميذ اسحق الموصلي. ففي قرطبة تركزت الاصول للتراكيب الموسيقية التقليدية مثل النوبة والوصلة في المغرب وفي المشرق العربيين اللذين انبنى عليهما الفاصل في تركيا والسنفونية في الغرب اذ بين هذا الفنان التدرج المتبع في تلكم التراكيب من الغناء الخالي من الايقاع الى ما يؤدي على ايقاع بطيء ثم ما هو اسرع الى ان يصل الى المحركات والاهازيج.

ولا يفوتنا تأكيد ان اول مدرسة موسيقية واول طريقة بيداغوجية لتعليم الموسيقى وتلقين الغناء انبثقت على يد هذا الفنان القرطبي الذي حقق اول اتصال مدروس للفن بين اقطار البحر الابيض المتوسط حيث تكلم وتكون في مدرسة بغداد على يد ابرز فنانيها مثل اسحق الموصلي. يبدأ تجاربه الاولى في تطوير الموسيقى العربية في البحر المتوسط اي مدينة القيروان ويستقر به السير الى قرطبة التي تتحقق بها امنيته الكبرى في جعل الموسيقى اداة ارتباط بين الشبان والشابات في اشتراكهم جميعاً في اداء لحن موحد التركيب والايقاع والنغم وهي لعمري ظاهرة للمجموعة الصوتية في الموسيقى العربية.

وقد كان مخالفاً لمدرسة استاذه اسحق الموصلي الذي تزعم مدرسة التقليد

ويعمل على المحافظة على التراث ومحاذاته في الانتاج رغم قيام الخليفة الفنان ابراهيم بن المهدي بمحاولات في التجديد كانت لها نتائجها.

ولكن زرياب قد سار شوطاً بعيداً في تكسير القيود في البحث على التطور وذلك بزيادة الوتر الخامس في العود كما اشرنا ليماشي الامكانات الصوتية الممتازة التي وجدها بالاندلس وبتغييره لمضارب هذه الآلة وجعله من ريش قوادم النسر وباستعماله الاوتار من مصران شبل الاسد ومن حرير لم يستخرج بالماء الساخن وهي تجربة جديرة بالدرس في عصرنا حتى نبحث عن الرنين الذي تعطيه هذه الاوتار ومدى تأثيره على السامع. وهو الذي استعمل اول طريقة لاصلاح نطق المغنين في تجارب عديدة كما رأينا. وهو الذي جعل المغني او المغنية فناناً كاملاً في اختيار هندامه حسب فصول السنة وابتكار تسريح شعره وتخليط العطور التي يستعملها. كما يقول عبد الرحمن الحجي في كتابه تاريخ الموسيقى الاندلسية.

ومما يروى ان علوية كان مع المأمون لما دخل الشام فقال علوية: فدخلنا دمشق وجعلنا نطوف فيها على اماكن بني امية. فدخلنا قصراً مفروشاً بالرخام الأخضر وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها فيسقي بستاناً. وفي القصر من الاطيار ما يغني صوته عن العود والمزمار فاستحسن المأمون ما رأى وعزم على الصبوح فدعا بالطعام فاكلنا وشربنا. ثم قال لي: غن باطيب صوت واطربه فلم يمر على خاطري غير هذا الصوت:

لو كان حولي بنو امية لم ينطق رجال اراهم نطقوا.

فنظر الي مغضباً وقال: «عليك لعنة الله وعلى بني امية، لم يكن لك وقت تذكر مواليك فيه الا هذا الوقت؟»

فعلمت اني قد اخطأت فجعلت اعتذر من هفوتي وقلت: «يا امير المؤمنين، اتلومني ان اذكر موالي بني امية وهذا زرياب مولاك عندهم بالاندلس يركب في اكثر من مائة مملوك وفي ملكه ثلاثمائة الف دينار دون الضياع واني عندكم اموت جوعاً؟»

فغضب عليه المأمون نحو شهر ثم رضي عنه.

ولما غنى زرياب:

«ولو لم يشفني الظاعنون لشاقني حمام تداعت في الديار وقوع
تداعين فاستبكين من كان ذا هوى نوائح ما تجري لهن دموع

ذيلها عباس بن فرناس يمدح بعض الرؤساء بديهة فقال:

«شددت بمحمود يداً حين خانها زمان لاسباب الرجاء قطوع
بنى لمساعي الجود والمجد قبلة اليها جميع الاجودين ركوع»

وكان محمود جواداً فقال: «يا ابا القاسم، اعز ما يحضرني من مالي القبة يعني قبة قامت عليه بخمسمائة دينار وهي لك بما فيها مع كسوتي هذه ونكون في ضيافتك بقية يومنا.

ودعا بكسوة فلبسها ودفع اليه الكسوة.

وقد جاء في نفح الطيب جزء ٢ ص ٣٤٥ ما يلي: «وغنى ابو الحسن زرياب يوماً بين يدي الامير عبد الرحمن الأوسط بهذين البيتين وهما لابي العتاهية:

«قالت ظلوم سمية الظلم ما لي اراك ناحل الجسم؟
يا من رمى قلبي فاقصده انت الخبير بموقع السهم.

فقال عبد الرحمن: «هذان البيتان منقطعان فلو كان بينهما ما يوصلهما لكان ابدع فصنع عبيد الله بن فرناس بديهاً:

«فاجبتها والدمع منحدر مثل الجمان وهي من النظم.

فاستحسنه وامر له بجائزة.

ومما يروى عن زرياب انه غنى عبد الرحمن الأوسط يوماً فاطربه، فاعطاه ثلاثة الاف دينار، فاحتوشه جواريه وولده فنثرها عليهم.

وكتب احد السعاة الى الامير عبد الرحمن ان زرياباً لم يعظم في عينه ذلك المال واعطاه في ساعة واحدة. فاجابه الامير:

«نبهت على شيء كنا نحتاج التنبيه اليه، وانما رزقه نطق على لسانك، وقد رأينا انه لم يفعل ذلك الا ليحببنا لاهل داره ويغمرهم بنعمنا وقد شكرناه وامرنا له بمثل المال المتقدم ليمسكه لنفسه، فان كان عندك في حقه مضرة اخرى فارفعها الينا».

ومما يروى ايضاً والرواية مأخوذة من «المغرب في حلى المغرب» الجزء الثاني صفحة ٩٦ ان زرياباً غنى بين يدي الامير عبد الرحمن الأوسط بشعر اطربه فاعطاه الف دينار.

وسمع الخبر عبد الملك بن حبيب فقال في ذلك:

«ملاك امري، الذي ارتجي هين على الرحمن في قدرته
الف من الشقر واقلل بها لعالم اربى على بغيته
يأخذها زرياب في دفعة وصنعتي اشرف من صنعته

الفصل الثاني

عبد الرحمن الأوسط وجيرانه في الشمال

رأينا في كتابي «عبد الرحمن الداخل» كيف ان «قارله» سلطان الفرنجة حاول الاستيلاء على سرقسطة في الثغر الأعلى بمؤامرة مع الوالي، ثم كيف فشلت الخطة بعد مقاومة سرقسطة، ثم اصابة مؤخرة جيش شرلمان بالنكبة الكبرى لما تصدى لها البشكنس والعرب في ممرات رونسفال وابادوا تلك المؤخرة عن بكرة ابيها.

ولكن هذا الاندحار لم يثن قارله عن عزمه بل ظل يطمع في اسبانيا لتشكيل الامبراطورية الرومانية من جديد، واذا لم يستطع الاستيلاء على الاندلس بكامله على الاقل يستولي على المناطق الشمالية في الثغر الأعلى منه ليجعله سداً منيعاً ضد غارات العرب على جنوبي فرنسا.

فقد حاول قارله كما تسميه الرواية العربية في اواخر القرن الثامن ٧٩٨ ان يجس النبض ويسبر غور المقاومة العربية في الثغر الأعلى فوجه جيشاً الى منطقة جيرونده فاحتل بعض القلاع والحصون وشقت بنبلونة عصا الطاعة على قرطبة واختارت والياً اسمه «فلسكو». وشاء قارله ان يوسع منطقة نفوذه في الثغر الأعلى اي في الشمال الشرقي من الاندلس فرغب في احتلال برشلونة ورفض الوالي العربي «سعدون» تسليمها وطلب النجدة من قرطبة ولكن النجدة لم تصل واستمر يقاوم بدون جدوى واخيراً سقطت المدينة بايدي قوات ملك «اكتانيا» لويس. ومنذ ذلك الحين قام حاجز يصون الامبراطورية الكارونلجية من الغزو الاسلامي واطلق على ذلك الخط الفاصل بين الاندلس والمملكة الكرونلجية «ماركا اسبانكا» Marca Hispanica

وتوفي قارله عام ٨١٤ بعد ان وحّد اوروبة وترك عليها ابنه «لويس

الورع» امبراطوراً. ولكن هذا الامبراطور الجديد لم يكن من الورع والتقوى بالدرجة التي يتصورها الناس فقد كان متزوجاً من «هرمنغردا» HERMENGARDA وله منها ثلاثة اولاد ومع ذلك فقد اتخذ عشيقة يهودية اسمها «يهوديت»، احدى خادمات القصر لها من العمر ست عشرة سنة.. وقد سمّي «الورع» لأنه طرد من اكسغران جميع النسوة اللواتي كن يتاجرن باجسادهن.

وما طال الأمر ان توفيت الملكة الجميلة «هرمنغردا». ورددت الالسن ان الامبراطور سيتزوج عشيقته اليهودية.

غير ان هذه اليهودية كان لها عشيق آخر اسمه برنار. وتزوج الامبراطور من يهوديت.

وفي ذات يوم شعرت انها حبلى ولكن ليس من الامبراطور بل من خليلها برنار. وفي عام ٨٢٠ ولد طفل سموه «قارله» على اسم جده فسر به لويس الورع كل السرور.

وهكذا اصبح للويس الورع اربعة اولاد بدل ثلاثة اي: لوتير وببين ولويس من زوجته الاولى و«قارله» من زوجته الثانية وكان قد اصدر مرسوماً اطلق عليه اسم «تنظيم الامبراطورية» Ordinatio imperii بحيث ان ابنه البكر لوتير يحمل لقب الامبراطور والاخوان الآخران اي لويس ينال «اكتين» والآخر «ببين» ينال «بيرن» BAYERN. وهذا التقسيم لا يخالف روح المرسوم اذ ان الامبراطور هو «لوتير».

ولكن مجيء الأخ الرابع قلب الامور رأساً على عقب، يجب ان تضمن له حصته ومن اين؟ فاقترح بعض المستشارين ان يؤخذ قسم من «ببين» وقسم آخر صغير من «لويس» ويتشكل من هاتين الحصتين مملكة صغيرة للوارث الجديد.

غير ان يهوديت كانت تريد العرش لابنها من برنار. وقد وُجد في البلاط اناس واقفون على علاقاتها الاثيمة ببرنار وان الولد منه وبالتالي لا يرث شيئاً.

واضطرت الملكة ان تحلف اليمين فاقسمت اليمين بشرفها وبالايمان المسيحي انها لم تخن الامبراطور، ولكن لم يصدقها احد فكانوا يقولون: «وما يهمها من الايمان المسيحي اذا كانت يهودية؟»

والامبراطور لويس الورع سرّ كل السرور بعد عودة زوجته اليه لانها

كانت قد القيت في احد الاديرة واقترحت عليه ان يقسم مملكته اربعة اقسام دون ان يحمل اي من الاولاد لقب امبراطور.

وتم التقسيم على هذا الشكل عام ٨٣١

فثار الاخوان الثلاثة على يهوديت وارسلت الى الدير مرة اخرى. ولكنها باتصالاتها ومناوراتها استطاعت الخروج منه والتغلب على الحزب المناوىء لابنها.

وفي عام ٨٣٨ توفي «ببين» فعادت الامور كالسابق وطالب لوتير بتطبيق المرسوم. غير ان يهوديت لا تريد لابنها الخضوع لسلطة لوتير فطلبت من زوجها ان يقسم المملكة من جديد بين الأبناء الثلاثة فنال قارله المنطقة التي هي فرنسة الحالية ولويس نال المناطق الواقعة شرقي نهر الرين ولوتير نال ايطاليا والمناطق الاخرى من المملكة.

وتوفي الامبراطور «لويس» الورع عام ٨٤٠ وظلت يهوديت عشيقة برنار ولكن ما طالت ان توفيت عام ٨٤٣ وما طال الامر ان ادرك قارله انه ليس ابن الامبراطور لويس الورع بل ان برنار والده فثار غضبه وقتل برنار، واطلق عليه لقب «قارله الأصلع»، واصبح جار العرب اذ ان مملكته متاخمة للاندلس.

هؤلاء هم جيران العرب في الشمال الشرقي من الاندلس. اما جيرانهم في الشمال، فقد رأينا في كتابي «بلاي الرومي» كيف ان القوط بعد اندحارهم في معركة وادي بكة توصل «بلاي» الى الفرار واللجوء الى جبال اشتور في اطراف الشمال. ثم اخذت حركته تمتد شيئاً فشيئاً حتى قويت شوكته وترك عند وفاته سنة ٧٣٦ نواة دولة صغيرة ثابتة صارت تتوسع قليلاً قليلاً حتى اصبحت تشكل خطراً على قرطبة او على الاقل تناوئها وتشن عليها الغارات عندما تجدها مشغولة في قمع الثورات والفتن الداخلية التي لم تنقطع في الاندلس طيلة حكم العرب الطويل فيها.

صادف ان كان يملك في اطراف الشمال من شبه الجزيرة الابرية ملك اسمه «الفونسه الثاني»، محبوب عند الله والناس كما تقول عنه الرواية الاسبانية، اتخذ «اوبيط»، «اوفييدو» OUIEDO الحالية عاصمته. بالقرب من دير القديس منصور. وقد اطلق عليه لقب «العفيف» نظراً لشظافة عيشه. وقد استطاع هذا الملك مقاومة الحملات التي شنتها عليه قرطبة، فانه بعد ثلاث سنوات من حكمه هاجمه المسلمون بقيادة عبد الكريم بن مغيث واجتاحوا منطقة «البة» والقلاع بينما عبد الملك اخو عبد الكريم انقض على «ابيط» ونهب المدينة ولكن

ابيدت قواته في عودتها في محلة تدعى «لوس لودوس». ولكن الامير هشام في السنة التالية عاود الكرة واستولى على «استرقة» ASTORGA وطارد الملك الفونسو الثاني الذي لجأ الى قلعة على نهر «نلون» ولم يتمكن المسلمون من القبض عليه .ولا القضاء على مملكته الصغيرة. فانه عمد على تدعيمها باتصاله «بقارله» CARLO سلطان الفرنجة واستطاع في اواخر القرن الثامن الميلادي ان يثبت دعائم تلك المملكة الصغيرة.

وجاء الحَكَم الاول فوجه صائفة ضد مملكة اشتور فاجتاز قائد هذه الصائفة نهر «الابـرُه» EBRO واستولى على «قلهرة» CALAHORRA ونهب القلاع.

وقامت ثورة الربض في قرطبة وبينما كان الحكم الاول مشغولاً بقمع تلك الثورة بادر «لويس الورع» الى احتلال «طركونة» TARRAGONA وواصل زحفه حتى طرطوشة ولكن اضطر للتقهقر امام جيش يقوده عبد الرحمن بن الحَكَم.

موسى بن موسى:

هو موسى بن موسى بن فُورتُون بن قَسِي، اشهر افراد هذه الاسرة المعروفة باسم «بني قَسِي» التي ملكت الثغر الأعلى «سرقسطة» وما حولها منذ القرن الثاني الهجري حتى اوائل القرن الرابع، وقد كان جده الاعلى «قسي» «قومسي» قد «كونت» الثغر الاعلى في اواخر عهد القوطيين. فلما افتتح المسلمون الاندلس لحق بالشام واسلم على يدي الوليد بن عبد الملك وانتمى الى ولائه.

وتعاقب بنو قسي على رئاسة الثغر الاعلى، فكان مطرف بن موسى بن فرتون بن قسي (اخو موسى المذكور) هو آخر الولاة المسلمين على بنبلونة اذ ثار به اهلها وقتلوه في سنة ١٨٣/٧٩٨.

اما موسى فقد ظل على الطاعة للأمير عبد الرحمن الأوسط متولياً على تطيلة Tudela وارنيط Arnedo بينما كان ابنه لُبْ بن موسى عاملاً كذلك على «برجه» حتى سنة ٢٢٦/٨٤١ حينما ولى الامير عبد الرحمن عبدالله بن كليب بن ثعلبة على سرقسطة واخاه عامر بن كليب على تطيلة. فتعرض هذان بالايذاء لموسى واغارا على ضياعه، كما شملا بالاذى اموال «ونقة بن ونقة» امير بنبلونة النصراني وهو اخو موسى بن موسى لامه فكان ذلك سبب انقباض موسى عن الطاعة.

وفي سنة ٨٤١/٢٢٧ خرج المطرف بن الامير عبد الرحمن الأوسط بالصائفة الى بنبلونة فتخلف موسى عن الخروج معه وندب لذلك ابنه «فرتون» بدلاً عنه، فكان تقاعد موسى مما اغضب المطرف. فلما قفلت الصائفة ولى حارث بن بَزِيع سرقسطة فكشف وجهه بالعداء لموسى وتولى محاربته ولكن هذا تمكن من اسره في موضع على نهر «أبره» يعرف باسم «بلمة» Palma

وفي سنة ٨٤٣/٢٢٨، غزا عبد الرحمن الأوسط الثغر الاعلى بنفسه وتوجه لمهاجمة موسى بن موسى وحلفائه النصارى من اهل بنبلونة وجليقية والبة وشرطانية، فسارع موسى الى الاعلان بالطاعة وانعقد له الامان على ان يسجل له على ولاية «ارنيط». واطلق موسى في نظير ذلك حارث بن بزيع من اسره.

وفي سنة ٨٤٤/٢٢٩ عاد موسى الى خلع الطاعة فخرج اليه الامير عبد الرحمن وحاربه وحاصره وحينئذ طلب الامان من جديد فانعقد له في السنة التالية. غير انه عاد الى الخلاف مرة اخرى في سنة ٨٤٧/٢٣٢ فاخرج اليه الامير صائفة ارغمته على الاذعان وولاه الامير مدينة «تطيلة» سنة ٨٤٩/٢٣٥، غير انه عاد الى العصيان في آخر هذه السنة وكشف وجهه بالمعصية فافسد ما حوالي مدينة تطيلة وعاث حوز طرسونة وبرجه. وظاهره اخوه لامه العلج بن ونقة ببنبلونة فخرج اليه بالصائفة عباس بن الوليد المعروف بالطبلي. فعاد الى الطاعة واستقال الزلة وسلم اسماعيل ابنه رهينة فعاد الامير الى القبول منه والاستظهار عليه واخرج بيعته والتوثق منه، وقبض رهينته خالد بن يحيى ومحمد بن الوليد ومطرف بن نصير فتمموا سلمه وتوثقوا من عهده. وجدد له الامير الولاية على تطيلة. ودخل اخوه العلج ابن ونقة صاحب بنبلونة معه في الامان وقبض الامناء المخرجون الى موسى رهينته التي كانت ولده اسماعيل الذي هو لابنة عمه ميمونة. فاقبل عباس الطبلي بالعسكر الى الحضرة لتاخر الوقت على دخول ارض الحرب.

غير ان اسماعيل لما اصبح في يد عبد الرحمن في قرطبة هرب تاركاً ما كان فيه من غضارة العيش متخلياً عن القطائع المنيفة والصلات الجزلة رفض ذلك كله وسما للمعصية. وامر الامير عبد الرحمن بتقصي اثره فلم يبعد ان جيء به من طريق الثغر وقد انتهى الى وادي آنة فقبض عليه هناك بعض من عرف خبره ورده للامير عبد الرحمن بقرطبة فعفا عنه واغضى عن زلته وخلاه على ما كان عليه من سعة قطائعه.

ونأخذ من اخبار ابن حيان ان ونقة هذا خلف ثلاثة ابناء كانوا يتلقبون بالقاب الامارة في بنبلونة وهم: ونقة بن ونقة INIGO INIGUEZ و «غرسية» وفرتون. ولكن السلطة على ما يبدو في يد اولهم ونقة المذكور هنا وقد كان ثلاثتهم اخوة لامير الثغر الأعلى موسى من موسى بن قسي اذ ان اباهم ونقة كان قد تزوج من ارملة موسى بن فرتون بعد وفاته وهذا هو ما جعل موسى بن موسى يحالف اخوته لامه عند ثورته على عبد الرحمن الأوسط في سنة ٨٤١/٢٢٦، فقد كانت غارات عبدالله بن كليب عامل سرقسطة واخيه عامل تطيلة على اموال موسى وتعرضهما بالاذى لونقة بن ونقة اخي موسى لامه السبب في انقباض موسى عن الطاعة.

وفي سنة ٨٥٢/٢٣٧، اشترك موسى في وقعة «البيضاء» المجاورة لمدينة «بقيرة» من بلد بنبلونة حيث دار قتال عنيف بين المسلمين والجاشقيين وكان له في هذه المعركة بلاء حسن جعل الأمير عبد الرحمن يوليه في السنة التالية على سرقسطة مضافة الى اعماله. واستقامت طاعته حينما ولي الامارة محمد بن عبد الرحمن اثر وفاة والده عبد الرحمن الأوسط.

وفي سنة ٨٥٦ كتب الامير اليه بحشد اهل الثغور والدخول بهم الى البة والقلاع فاضطلع بهذه الغزوة وفتح كثيراً من حصون العدو.

وفي السنة التالية ٨٥٧/٢٤٢ عهد اليه الامير محمد بغزو برشلونة فافتتح في غزوته هذه حصن طراجة من آخر احواز برشلونة. ومن اخماس غنيمته هناك زيدت الزوائد في المسجد الجامع بسرقسطة.

وفي سنة ٨٦٠/٢٤٦ غزا الامير محمد بالصائفة الى غرسية بن ونقة صاحب بنبلونة واوقع به. ويبدو ان موسى بن موسى استاء لذلك، وابدى امتعاضه فكتب الى الامير يذكر ما ناله اهل بلده من النصب لمرور الغزوات المتوجهة الى جليقية على بلده ويسأل ان يكون دخول العسكر على غير ناحيته. فاسعفه الامير في ذلك ولو انه تأذى به ورأى فيه بوادر عصيان جديد يوشك موسى ان يعلنه. ويظهر ان الامير محمداً اراد ان يعزله عن الثغر وحينئذ جاهر موسى بالخلاف بل انه حاول ان يمد نفوذه على ثغر طليطلة ونواحيه فسعى في عقد مصاهرة بينه وبين صاحب وادي الحجارة «ازراق بن منتيل بن سالم» اذ زوجه بابنته وكان «ازراق» من اهل بيت عرفوا بالولاء والاخلاص لامراء بني امية فازعج ذلك الامير وحاول ان يفسد هذا الصهر فلم يتم له. غير انه حدث

بعد ذلك بين موسى بن موسى وزوج ابنته «ازراق» ما ادى الى اشعال الحرب بينهما فاغار موسى على «وادي الحجارة» GUADALAJARA ولكن «ازراق» خرج اليه فاصابه بجراح ادت الى وفاة موسى في تطيلة TUDELA بعد ذلك بقليل سنة ٨٦٢/٢٤٨ وخلفه على ملك الثغر الاعلى ابنه فرتون.

غليالم بن برناطر بن غليالم:

يقول لنا ابن حيان في تاريخه «المقتبس» تحقيق الدكتور محمود مكي القاهرة ١٩٧١ ص ١٤٤ وما يليها.

«وفي عام اثنين وثلاثين ومائتين استأمن غليالم بن برناطر بن غليالم احد عظماء قوامس افرنجة على الامير عبد الرحمن بقرطبة، فاكرمه واحسن اليه والى اصحابه وصرفه معهم الى الثغر لمغاورة الملك لذويق LODOVIC بن قارله بن ببين صاحب الفرنجة وكانت بينه وبين قواد «لذويق» وقائع ظهر عليهم فيها واعانه عمال الثغر فاثخن العدو واقام بمكانه ظاهراً على من انتقض عليهم من امته مدة، وكتبه الى الامير متصلة».

وغليالم بن برناطر المذكور هنا هو القومس «غليوم» او غلين بن برنار، نبيل فرنسي كان جده وسميه غليالم هو الذي يحمل لقب «دوق تولوز» ويعرفه الادب الملحمي الفرنسي في العصور الوسطى باسم «غليالم ذو الانف القصير». وكان قائداً لحامية اربونة حينما اشتبك في معركة عنيفة مع القائد الاندلسي عبد الملك بن مغيث في صيف ٧٩٣/١٧٧ في ايام الامير هشام بن عبد الرحمن الداخل، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة ساحقة للجيش الفرنسي الذي يقوده غليالم المذكور.

اما ابنه برناط بن غليالم فقد خلف اباه على امارة هذا الجزء من جنوب فرنسة، وان الملك الفرنسي او الامبراطور المعروف بلويس الورع عهد اليه بالدفاع عن برشلونة حينما حاصرتها جيوش قرطبة بقيادة عبدالله البلنسي سنة ٨١٣/١٩٧

واما غليالم بن برناط المذكور وحفيد غليالم الاكبر فقد اعلن العصيان على امبراطور الفرنج (تحالف مع امير قرطبة عبد الرحمن الأوسط كما يذكر ابن حيان وكما اشار بشكل مبهم المؤرخ القرطبي المسيحي «سنت اخلج» EULOGIO في كتابه اللاتيني «ذكرى القديسين» MEMORIALE SANCTORUM

اذ ذكر ان الامير عبد الرحمن بن الحكم وعد غليالم هذا بان يعينه ويمده لو انه ثار على ملك فرنسة وقد كان الخبر اورده «اخلج» او «ايولوخيو» القرطبي موضعاً لتشكك الباحثين الاوروبيين ولكن نص ابن حيان يؤكد بصفة قاطعة عن انه يزيد بياناً وتفصيلاً حول علاقات عبد الرحمن بن الحكم بالقومس الافرنجي بل ويضيف اليه ما يذكر من سفارته الى قرطبة ومحالفته للامير الاندلسي.

وفي سنة اربع وثلاثين ومائتين يقابلها سنة ثمان واربعون وثمانمائة مسيحية ظهر غليالم بن برناط بن غليالم النازع الى الامير عبد الرحمن القادم الى باب سدته في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين على من عاداه من امته اهل افرنجة، الذي نصبه الامير عبد الرحمن لمغاورتهم وامده بقوته، فاقتحم عليهم «بلده» في جمعه فقتل وسبى وحرق وخرب وحاصر برشلونة حتى اضر بها وتقدم الى جرندة فشارفها. وورد كتابه على الامير عبد الرحمن يعترف بما كان منه. ويذكر تماديه عليه. فاجيب بالاحماد لفعله والارصاد لمكافأته.

وكتب الامير الى عبيدالله بن يحيى عامل طرطوشة والى عبدالله بن كليب عامل سرقسطة في امداده ومعونته وتحريضه على شقاق قومه وتأييد عزيمته.

وتقع طرطوشة قرب مصب نهر ابره في البحر الابيض المتوسط على مسافة مائتي كيلومتر الى الجنوب الشرقي من سرقسطة.

اما جرندة فهي عاصمة احدى مقاطعات ولاية قطلونية في الطرف الشمالي الشرقي من اسبانية على مقربة من الحدود الفرنسية وهي تقع على بعد ١٠٠ كيلومتر الى الشمال الشرقي من برشلونة.

الفصل الثالث

بناء مدينة مرسية

وصل عبد الرحمن الى الحكم واضطر لمحاربة عم ابيه عبد الله البلنسي الذي ثار مرة اخرى واحتل كورة تدمير، وشاء الزحف الى قرطبة ولكن عاجله المرض وتوفي عام ٢٠٨ وانتهت بموته آخر فتنة طالما تكرر حدوثها منذ وفاة عبد الرحمن الداخل ٧٨٨م

ولكن الثورة لم تنته ففي سنة ٨٢٢/٢٠٧ ثارت بتدمير فتنة المضرية واليمنية ودامت سبع سنوات وكان انبعاثها ان رجلاً من اليمانية استقى من وادي لورقة قلة ماء واخذ ورقة من دالية يملكها مضري فجعلها في فم القلة، فنهاه المضري وقال انما فعلت ذلك هواناً بي إذ قطفت الورقة من كرمي بغير امري فتقاتلا حتى قتله اليمني وعسكر بعضهم الى بعض..

اغزى الامام عبد الرحمن الأوسط اليهم يحيى بن عبد الله بن خلف ثم ولاه عليهم. وكان يغزى اليهم قواده فاذا احسوا بهم افترقوا واذا قفلوا عنهم عادوا الى الفتنة حتى اعيى يحيى بن عبد الله بن خلف.

وكانت بينهم في هذه السنة وقعة تعرف بيوم المصارة فني فيها كثير منهم وانتهى القتل فيهم الى ثلاثة آلاف.

ثم في سنة ٨٢٤/٢٠٩، كان ابو الشماخ رئيس اليمنية يقوم بدعوة الامام على المضريين، وقعت عليهم وقيعة بمرسية كوقيعة يوم المصارة بلورقة فني فيها كثير من الفريقين.

ويقول ابن الدلائي، تحقيق عبد العزيز الاهواني، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد ١٩٦٥ ص ٦ وما يليها: انه في إيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم بنيت مدينة مرسية واتخذت دارا للعمال وقراراً للقواد. وكان الذي تولى بنيانها وخرج الكتاب بالعهد اليه في اتخاذها جابر بن مالك بن لبيد. وكان تاريخ

الكتاب يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول سنة عشر ومائتين. يقابلها ٨٢٥ مسيحية. فاتخذ جابر بن مالك مدينة مرسية منزلاً وجعلها للعمال موطنا.

وبعد بنيان مدينة مرسية وحلول العمال بها ورد كتاب الامام عبد الرحمن الأوسط على جابر بن مالك عامل كورة تدمير بخراب مدينة «ايه» من المضرية واليمنية.

ومن غرائب بلد تدمير: ان جماعة من النصارى قصدوا من بلاد افرنجة الى الدير الذي بقرطاجنة الحلفاء من عمل تدمير في زي الرهبان، وكان بقرب ذلك الدير قبر لامرأة شهيدة عندهم، وكان لها قدر كبير في دينهم فذكر قوم منهم ان اولئك النفر من الرهبان اخرجوا تلك المرأة الشهيدة من ذلك القبر بغير علم من اهل الدير، وقال آخرون انهم اخذوها بعلم منهم واتفاق على حملها، وكانوا قد اعدوا لذلك مركباً حربياً فوضعوها في تابوت وحملوها مع انفسهم، وذلك في سنة اربع عشرة واربعمائة من الهجرة. وذكر نصارى ذلك الدير انه كان على القبر قبة وكان في اعلى القبة كوة، وكان لذلك القبر يوم فيه مشهد عظيم يجتمع فيه النصارى، قالوا فكان ذلك اليوم لا يطير على القبة طائر اصلاً، فان ذهب بازاء الكوة اجتذبته الكوة الى نفسها مكرهاً، فلما اخرجت منه المرأة الشهيدة انقطع ذلك بزعمهم.

واخبرت ان اولئك النصارى الرهبان وصلوا بذلك التابوت الذي جعلوا فيه جثة المرأة الشهيدة الى جزيرة صقلية، فقام عليهم نصارى الجزيرة وبذلوا لهم مالاً كثيراً، وكذلك صاحب الجزيرة صقلية ليأخذ المرأة الشهيدة منهم ولتدفن في كنائسهم هناك. فلم يقدروا عليهم وحملوها الى بلادهم.

ومن اغرب الغرائب الزيتونة

زيتونة في كنيسة في حومة بجبل على مقربة من مدينة «لورقة» وبقرب حصن هناك يعرف بحصن «ميربيطر». اذا كان اوان صلاة العصر من اليوم الذي يستقبل اول ليلة من شهر «مايو» ايار، نورت الزيتونة فلا يأتي الليل إلا وقد عقدت فتصبح من تلك الليلة والزيتونة كلها قد اسود ثمرها من الزيتون وطاب. قد عرف الناس ذلك ووقفوا عليها وارسل الأمراء قديماً اليها وقد قطعها اهل تلك الناحية لكثرة الورود عليها بسببها، فبقيت مقطوعة زمانا، ثم لقح الأصل بعد ذلك وهي باقية الى اليوم على حالها الموصوف.

وقد رأيت من قدم خبرها ان ابراهيم بن يعقوب الاسرائيلي الطرطوشي اخبر ان ملك الروم بروميّة سنة خمسين وثلاثمائة من الهجرة قال له اني اريد ان ارسل الى امير المؤمنين بالأندلس قومساً حاذقاً بهدية وان من اعظم حوائجي عنده واجل مطالبي قبله وذلك انه صح عندي ان في القاعة الكريمة كنيسة وفي الدار منها زيتونة اذا كان ليلة الميلاد نورت وعقدت واطعمت من نهارها فاعلم ان لشهيدها محلاً عظيماً عند الله عز وجل فاضرع الى معاليه في تسليل اهل تلك الكنيسة ومداراتهم حتى يسمحوا بعظام ذلك الشهيد، فان حصل لي هذا فهو كان اجل عندي من كل نعمة في الأرض.

ومن الغرائب ايضاً:

وذكر ان في قرية مما يقرب من هذه الناحية موضعاً معروفاً فمن اراد ان يتخذ في ذلك الموضع شجر التفاح والكمثري والتين والزيتون والرمان وسائر الثمار حاشى شجرة التوت، وذلك كله من غير غرس اصلا،

ومن الغرائب ايضاً بكورة تدمير: ان في ساحل «الش» من كورة تدمير بمرسى يسمى «بشنت بول» حجر يعرف بحجر الذيب، اذا اتي اليه بذئب او سبع لم يقو اصلاً على احد، ولم يكن له قيمة ما دام على ذلك الحجر.

وبلاد تدمير قاعدتها مدينة «لورقة» وتفسيرها باللطيني: «الدرج الحصين». وكانت مدينة لورقة قبل بناء مرسية قرار العمال والقواد. وبلاد تدمير متناهية في كرم البقعة وطيب الثمرة، ونزلها جند مصر وارضها يسقى بنهر كالنيل ونهرها يجري الى الشرق، وعلى نهر تدمير النواعر التي تسقي جناتها وابتداء الساقية المستخرجة منه من قنطرة «اشكابة» وتبلغ هذه الساقية في املاك اهل مدينة مرسية الى حد قرية طوس وهي من قرى «اريولة». ثم يبتدىء اهل اريولة باخراج ساقية من هـذا الوادي من جهتهم حتى تنتهي إلى الموضع المسمى «قطرلات» وطول هذه الساقية ومسافتها ثمانية وعشرون ميلاً وينتهي السقي في القبلة الى ناحية يعرف بالمولدين والى قرية تعرف بالجزيرة وهناك يصب الوادي في البحر ويسمى ذلك الموضع «المدور».

وبساحل تدمير معادن الفضة. ويذكر انه كان يدخل منها في كل يوم ثلاثون رطلاً من «منبت». وفيه معادن الرصاص وكان يخرج منها الف الف فرس من كل لون من الوان الخيل، وكان صاحبها يأخذ نفسه بذلك. وفيها عين من أطيبها

حلاوة وخفة وطعامها يبقى تحت الأرض خمسين عاماً واكثر ولا يتغير.

وكثيراً ما يطرق هذا الفحص الجراد ويؤثر فيه. ويذكر اهل لورقة انه كان في كنيسة «المركز» منها جرادة من ذهب طلسماً للجراد، ولم يعلموا بالجراد في بلدهم طول كون تلك الجرادة هناك حتى سرقت فظهرت الجراد من ذلك العام ولم تفقد الجراد بعد ذلك الى الآن.

الفصل الرابع

اسهام الأندلسيين في فتح صقلية

فتح صقلية يشبه الى حد بعيد فتح الأندلس. كان ذلك سنة ٢١٢هـ ٨٢٧ مسيحية اي مائة سنة وبضع عشر سنوات على فتح الأندلس، لما توجه اسطول اسلامي من مدينة «سوسة» مشكل من سبعين مركباً، قاصداً صقلية فوصل اليها بعد ثلاثة ايام ورسا في مرفأ «مازار» بمعاونة اسطول «فيمي» له. و«فيمي» هذا قائد اسطول الأمبراطور البيزنطي ميشال الثاني. غير ان الأمبراطور نقم على «فيمي» بسبب اكراهه راهبة على الزواج منه فاستنجد بالمسلمين، كما استنجد قبله يليان بموسى بن نصير ورغبه في فتح الأندلس.

لم يشتبك جيش «اسد بن الفرات» القائد العربي اثناء نزوله في «مازار MAZARA» مع الروم فلم يخرج للقائه إلا سرية واحدة تمكن من اسرها فاذا هي من انصار «فيمي Euphemius» وعندئذ امر «اسد» بفصل جيش فيمي عن المسلمين وقرر الاستقلال بعملياته وقال لفيمي: «اعتزلنا فلا حاجة لنا بان تعينونا» وقال: «اجعلوا على رؤسكم سيماء تعرفون بها لئلا يتوهم واحد منا انكم من هؤلاء المواقفين لنا فيصيبكم بمكروه». فجعلوا على رؤوسهم الحشيش، فكانت تلك سيماؤهم. ويبدو انهم وضعوا غصنا نباتياً حول رؤوسهم تمييزاً لهم عن بقية الروم.

ثم سار جيش المسلمين نحو سهل «بلاطة» ماراً بقلعة بلوط ثم قرى «الرفش» وقلعة الدب «وقلعة الطواويس» ثم الى ارض المعركة التي سميت باسم «بلاطة» نسبة الى صاحب صقلية فاقبل في جيش قوامه مائة وخمسون الف مقاتل.

خطب «اسد» في الناس وهو يحمل اللواء وقال: «هؤلاء عجم الساحل، هؤلاء عبيدكم لا تهابوهم». ثم كبر المسلمون وحملوا مع قائدهم وتمادت عزائم المسلمين حتى هزموا بلاطة واصحابه وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا ما معهم.

ثم توجه الجيش نحو «سرقوسة» وحاصرها من البر والبحر وجاءته الأساطيل من افريقية تحمل اليه الامدادات. فزحف والي «بلرم» في جيش كثيف نحو المسلمين، فخندق المسلمون حول انفسهم وحفروا خارج الخندق حفراً كثيرة.

فلما حل الروم على المسلمين كبت الخيل وسقط كثير منهم في الحفر وقتل المسلمون اعداداً كبيرة من الروم. وضيق اسد الحصار على سرقوسة واحرق اسطول البيزنطيين فسالوه الأمان. ولكن المسلمين رفضوا ان يجيبوهم عليه بسبب غدرهم سابقاً بالمسلمين. وفي هذه الآونة حل بالمسلمين وباء شديد هلك بسببه عدد كبير منهم، من جملتهم القاضي «اسد بن الفرات» الذي توفي في شعبان سنة ٢١٣ فدفنه المسلمون في الموضع الذي كان يحاصر منه سرقوسة.

اختاروا قائداً اسمه «محمد بن ابي الجواري» وضعوا فيه كل املهم للعودة بهم الى بلادهم. وكانت انباء الحشود الرومية وصلت الى مسامع المسلمين فعزموا على ركوب مراكبهم والعودة الى افريقية. فرفعوا الحصار عن «سرقوسة» واصلحوا سفنهم وركبوها وشرعوا في الاقلاع. ولكن مراكب البيزنطيين والبنادقة تصدت لهم على باب المرسى الكبير ومنعتهم من الخروج، فتراجعوا بسفنهم الى المرسي واحرقوا هذه السفن حتى لا يظفر بها البيزنطيون، واستقر عزمهم على القتال. ثم رحل فريق من المسلمين الى حصن «جرجنت» GIRGENT الواقع على ساحل البحر جنوب غربي صقلية ونجحوا في الاستيلاء عليه.

ثم خرج «فيمي» مع فرقة من المسلمين الى مدينة «قصريانة» الواقعة الى الشمال الغربي من صقلية لافتتاحها. فخرج اهلها اليه وقبلوا الأرض بين يديه وبذلوا له الطاعة وهم يضمرون له الكيد. وقالوا له: «نكون نحن وانت والمسلمون على كلمة واحدة ونخلع طاعة الملك».

وسألوه ان يرجع عنهم في ذلك اليوم لينظروا فيما يصالحون عليه. فاستجاب لرغبتهم. ثم قدم اليهم في اليوم التالي في نفر يسير من اصحابه فخرجوا يقبلون الأرض بين يديه وكانوا قد دفنوا سلاحاً في تلك البقعة فلما اقترب منهم اخرجوا السلاح ووثبوا عليه وقتلوه..

وارسلت حكومة بيزنطية في تلك الآونة مدداً جديداً الى الجزيرة بقيادة البطريق «تودط». فزحف في جموع كثيفة من الأرمن وغيرهم نحو «قصريانة» واصطدم مع المسلمين تحت اسوار قصريانة في قتال عنيف انتهى بانهزامه على

ايدي المسلمين وقتل من عسكره اعداد كبيرة واسر من قواده سبعون بطريقاً وفر «تودط» الى داخل المدينة واستمر حصار المسلمين لها وقد شد النصر عزيمتهم الى ان توفي قائدهم محمد بن ابي الجواري في اواخر سنة ٢١٣هـ، فولـوا على انفسهم قائداً من قوادهم هو «زهير بن غوث» ونشبت بين هذا الوالي الجديد وبين «تودط» معارك عنيفة انهزم فيها المسلمون وقتل منهم نحو الف رجل. فعاد المسلمون الى معسكرهم وخندقوا على انفسهم. فحاصرهم البيزنطيون من داخل المدينة وخارجها. وادرك المسلمون حراجة موقفهم فعـزموا عـلى التسلل من معسكرهم وكان البيزنطيـون يتوقعـون منهم ذلك فـاخلوا خيامهم وتـرصدوا للمسلمـين بالقـرب منها. فلما خـرج المسلمون لم يـروا احداً فـاقبل عليهم البيزنطيون من كل ناحية فانحطوا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وفر الناجون الى «ميناو» فدخلوها. ولكن البيزنطيين حاصروهم.

وحاول مسلمو «جرجنت» مساعدة اخوانهم في «ميناو» فخربوا «جرجنت» قبل ان يتخلوا عنها وساروا الى «مازار» وحـاولوا من هنـاك نصرة اخـوانهم المحصورين فتعذر عليهم الأمر واشرف المسلمون في «ميناو» على الهلاك.

وصول البحريين الأندلسيين الى صقلية:

في تلك اللحظات الحرجة التي يتوقف عليها مصير هؤلاء المسلمين حدث امر لم يكن في الحسبان إذ وصل الى مياه صقلية في سنة ٢١٤هـ اسطول اندلسي يتألف من قطع كثيرة العدد تحمل اعداداً كبيرة من غزاة البحر الأندلسيين قدموا بقصد الغزو البحري والجهاد وفي نفس الوقت اقبلت مراكب عديدة من افريقية لامداد المسلمين فبلغ عدد السفن الأندلسية والافريقية ثلاثمائة سفينة. ولكن ابن عداري يؤكد ان السفن التي قدمت الى صقلية كانت اندلسية فيقول:

«وفي سنة ٢١٤ وصل من الأندلس الى صقلية نحو ثلاثمائة مركب فيها اصبغ بن وكيل الهواري المعروف «بفرغلوش»، وفريق آخر كان يقوده سليمان بن عافية الطرطوشي. وكانوا فصلوا من طرطوشة يريدون بلاد الروم فاخرجتهم الريح الى صقلية فنزلوا جزيرة «طرابنش» من صقلية.

وما كادت تصل الأنباء بوصول الأندلسيين الى مسـامع المحصورين في «ميناو» حتى اسرع هؤلاء فارسلوا اليهم رسلاً يسألونهم النصرة والنجدة. فلم يتردد الأندلسيون الذين كرسوا حياتهم للجهاد البحري في انجادهم تضامناً مع

اخوان لهم في الدين واللغة. ففي ذلك تحقيق لأهدافهم ومبادئهم ولكنهم اشترطوا عليهم ان تكون القيادة «لفرغلوش». ويبدو ان المسلمين المحصورين في «ميناو» وافقوا الأندلسيين على شرطهم. فاقبل الأندلسيون لفك الحصار عنهم واستولوا في طريقهم الى «ميناو» على ما قابلهم من قلاع وحصون حتى انتهوا الى «ميناو» واشتبكوا مع «تودط» في جمادي الآخر سنة ٢١٥، فانهزم هزيمة نكراء وتراجع الى «قصريانة». وبذلك ارتفع حصار البيزنطيين عن المسلمين. وتنفس هؤلاء الصعداء ثم احرقوا المدينة وخربوها وزحفوا الى «بلرم» وضربوا حولها الحصار فاستسلم صاحبها البيزنطي على الأمان ودخلها المسلمون.

ثم واصل المسلمون الزحف الى «غليانه» Gagliano وشدوا عليها الحصار وتغلبوا على ربضها وغنموا ما فيه. وهناك تفشى في جيش المسلمين وباء مات بسببه عدد كبير من المسلمين من بينهم «فرغلوش» وجماعة من القواد.

وانتهز البيزنطيون تلك الفرصة فتقووا على المسلمين وارغموهم على الخروج عنها، ولم يتركوهم يرحلون بامان ولكنهم تعقبوهم منتهزين فيهم الفرصة لكثرة المرض والضعف في صفوف المسلمين فقتلوا منهم اعداداً كبيرة ووجد المسلمون انفسهم مرغمين على مقاتلتهم واشتبكوا معهم في موقعة عنيفة دارت فيها الدائرة على البيزنطيين قتل فيها «تودط» القائد البيزنطي وغنم المسلمون غنائم هائلة..

ويبدو ان نزاعاً حدث بعد ذلك بين القائد الأندلسي والقائد الأغلبي بسبب القيادة العامة للجيوش الاسلامية، وانقسم المسلمون الى طائفتين، وهدد الأندلسيون بترك صقلية واخذوا يتأهبون للرحيل عنها وبدأوا باصلاح مراكبهم.

ثم تداعى الفريقان الى الصلح واتفقا على تولية القيادة الى «عثمان بن قرهب». ثم اتجهوا الى «بلرم» العاصمة. وكانت ميناء بحرية على الساحل الشمالي لصقلية، والسفن تصل اليها بسهولة من موانىء افريقية وشدد المسلمون الحصار عليها فاستسلم صاحبها على الأمان للمرة الثانية ودخلها المسلمون في رجب ٢١٦هـ.

اما الأندلسيون فقد قفل بعضهم عائداً الى بلاده والقسم الآخر رضي بولاية ابي فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب التميمي الذي ولي صقلية سنة ٢١٧هـ.

الفصل الخامس

عبد الرحمن الأوسط وقيصر الروم:

وكان من جراء غزو اقريطش واستيلاء اهل الربض عليها وغزو صقلية واسهام الأندلسيين في نجاح الغزو كما رأينا، والعداوة القائمة بين قياصرة الروم والعباسيين الحاكمين في بغداد ان ادت بقيصر الروم الى التقرب من سادة قرطبة لا سيما وان العدو مشترك.

ويقول عبدالله عنان[1]: «وفي عهد عبد الرحمن الأوسط سما شأن حكومة قرطبة الاسلامية واخذت تتبوأ مكانتها في الهيبة والنفوذ بين مختلف القصور والحكومات النصرانية وتغدو مركز التوجيه للدبلوماسية الاسلامية في الغرب. والظاهر ان الدولة البيزنطية خصيمة الدولة العباسية في المشرق، كانت تعتقد انها تستطيع ان تصل بتفاهمها مع حكومة قرطبة الى بعض النتائج العملية في مقاومة خصيمتهما المشتركة. ففي سنة ٨٤٠ (٢٢٥هـ) وفد على قرطبة سفير من قبل قيصر قسطنطينية، الأمبراطور «توفلس» «تيوفيلوس»، يدعى السفير «قرطيوس» ومعه كتاب وهدية فخمة.

استقبله عبد الرحمن بحفاوة. وكان القيصر يتوجه في كتابه الى امير الأندلس باسم الصداقة القديمة التي كانت قائمة بين الأوائل من خلفاء بني امية وقياصرة بيزنطية، ويشكو مر الشكوى من فعال الخليفة المأمون واخيه المعتصم وعبثهما في اراضيه، ويشير اليهما في كتابه بابن «مراجل» وابن «ماردة» تحقيراً وازدراء. كما يشكو اليه من استيلاء ابي حفص البلوطي وعصبته الأندلسية على جزيرة «اقريطش» وهي من املاكه، ويطلب اليه عقد اواصر المودة والصداقة بينهما ويرغبه في ملك اجداده بالمشرق، ويستنهض همته لاسترداده ويتنبأ له بقرب انهيار الدولة العباسية وزوال سلطانها ويعده بنصرته في ذلك المشروع».

---

١ ـ عبد الله عنان: دولة الاسلام في الأندلس: العصر الأول ـ القسم الأول ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

رد عبد الرحمن الأوسط على سفارة تيوفيلوس بمثلها واوفد كاتبه وصديقه الشاعر يحيى الغزال الى قسطنطينية ومعه يحيى بن حبيب المعروف «بالمنيقلة» بكتاب وهدية الى الأمبراطور.

وهذا ما جاء في رد عبد الرحمن الأوسط:

.... واما ما ذكرت من امر الخبيث ابن «ماردة» وحضضت عليه من الخروج الى ما قبله وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة اهله وزوال سلطانهم وما حضر من وقت رجوع دولتنا وازف من حين ارتجاع سلطاننا فاننا نرجو في ذلك عادة الله عندنا ونستنجز موعوده ايانا ونمتري حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من قبلنا من اهل شامنا واندلسنا واجنادنا وكورنا وثغورنا وما لم نزل نسمع ونعترف ان النقمة تنزل بهم والدائرة تحل عليهم من اهل المغرب بنا وعلى ايدينا فيقطع الله دابرهم ويستأصل شافتهم ان شاء الله تعالى.

والغزال حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها ولذا اختاره عبد الرحمن دون سواه عملاً بالمثل القائل: «اذا ارسلت في حاجة رسولاً فارسل حكيماً فان لم تجده فاذهب انت بنفسك». عمّر الغزال اربع وتسعين سنة ولحق خمسة من الخلفاء المروانية بالاندلس: اولهم عبد الرحمن الداخل وآخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط.

وقد كان للغزال من المواهب الخلقية والخلقية ما جعله مؤهلاً لمهمات خطيرة في عصر عبد الرحمن الأوسط. ولكن طبعه المتحرر كان يصل احياناً الى درجة الاستهتار فيجر عليه الويلات ويقف دون بلوغه اسمى المناصب الجديرة به.

حدث ان ولاه الأمير عبد الرحمن قبض الاعشار واختزانها، فتصادف ان قلّ الطعام في تلك السنة وارتفع سعر الحاصلات فباع الغزال ما اختزنه من حاصلات كان قد جناها كاعشار للدولة واستبدل بها نقودا. فلما علم بذلك الأمير غضب وقال: «اننا نعد ذلك لنفقات الجند والحاجة عند الجهد».

وامر ان يؤخذ من الغزال الثمن الذي باع به الحاصلات. وكانت الحاصلات قد كثرت حينئذ ورخص اسعارها فابى الغزال ان يدفع ثمن الحاصلات التي باعها وقال: «انما اشتري لكم من الطعام عدد ما بعت من الامداد».

فلما علم الأمير بذلك امر بسجنه فكتب الشاعر من حبسه في قرطبة قَصيدة جميلة ضمنها تبرير تصرفه وقد جاء فيها:

بعض تصابيك على زينب	لا خير في الصبوة للاشيب
ابعد خمسين تقضيتها	وافية تصبو الى الربرب
كل رداح الردف خمصانة	كالمهرة الضامر لم تركب
او درة ساعة ما استخرجت	لم تمتهن بعد ولم تثقب
مشربة اللون متوع الضحى	صفراء بالآصال كالمذهب
من مبلغ عني امام الهدى	الوارث المجد ابا عن اب
اني اذا اطنب مدّاحه	قصدت في القول فلم اطنب
لا فك عني الله ان لم تكن	اذكرتنا من عمر الطيب
واصبح المشرق من شوقه	اليك قد حن الى المغرب
منبره يهتف من وجده	اليك بالسهل وبالمرحب
اطربه الوقت الذي قد دنا	وكان من قبلك لم يطرب
هفا به الوجد فلو منبر	طار لوافى خطفة الكوكب
الى جميل الوجه ذي هيبة	ليست لحامي الغابة المغضب
لا يمكن الناظر من رؤيته	الا التماح الخائف المذنب
ان ترد المال فاني امرؤ	لم اجمع المال ولم اكسب
اذا اخذت الحق مني فلا	تلتمس الربح ولا ترغب
قد احسن الله الينا معا	ان كان رأس المال لم يذهب[1]

وعفا عنه الأمير بعد سماعه هذه القصيدة.

وقد قام الغزال بسفارة قرطبة لدى امبراطور البيزنطيين خير قيام. وكان يصحبه كما قلنا في تلك المهمة السياسية اندلسي عالم، يحيى بن حبيب. ولكن شخصية الغزال القوية جعلته كل شيء في تلك السفارة التي خلفت شعراً من خير ما جادت به قريحة الشاعر.

فقد هاج البحر والغزال وصاحبه يركبان السفينة في اتجاه القسطنطينية واحدق بهما الخطر فاشتدت العاصفة وعلا الموج فقال الغزال في ذلك:

«من ظن ان الدهر ليس يصيبه   بالحادثات فانه مغرور

---

١ ـ هذه القصيدة مأخوذة من «المطرب من اشعار المغرب» لابن دحية القاهرة ١٩٥٤ ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

فـالق الزمـان مهونـا لخـطوبـه   وانجـر حيث يجـرك المقـدور
واذا تقلبت الأمـور ولم تـدم   فسـواء المحـزون والمسـرور.

ونجا الغزال وصاحبه ووصلا الى حيث ارسلا.

وتهيأ الأمبراطور البيزنطي لاستقبال سفير عبد الرحمن الأوسط. وأخبر الغزالُ بتقاليد بلاط بيزنطية التي تقضي بان يدخل الزائر على الأمبراطور ساجدا. فرفض الغزال ذلك. لكن المسؤولين في بلاط القسطنطينية تحايلوا فجعلوا المدخل المؤدي الى الأمبراطور منخفضاً حتى لا يدخله داخل الا راكعا.

فلما جاء الغزال للدخول على الأمبراطور ورأى الباب كذلك جلس على اليته ومدّ قدميه وزحف حتى دخل من الباب ثم استوى قائماً ثم حيا الأمبراطور بكلمة ترجمت له فاعجب بها وقال: «هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم، اردنا ان نذله فقابل وجوهنا بنعليه».

وطلب منه ان ينادمه فامتنع عن ذلك واعتذر بتحريم الخمر.

وكان يوماً جالساً عنده واذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهي كالشمس الطالعة حسناً فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها. وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه. فانكر ذلك عليه وامر الترجمان بسؤاله فقال له: «عرفه اني قد بهرني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه فاني لم ار قط مثلها واخذ في وصفها والتعجب من جمالها وانها شوقته الى الحور العين.

فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده وسرت الملكة بقوله وامرت الترجمان ان يسأله عن السبب الذي دعا المسلمين الى الختان وتجشم المكروه فيه وتغيير خلق الله مع خلوه من الفائدة.

فقال للترجمان: «عرفها ان فيه فائدة كبيرة وذلك ان الغصن اذا زُبِرَ قوى واشتد وغلظ، وما دام لا يفعل به ذلك لا يزال رقيقاً ضعيفاً».

فضحكت وفطنت لتعريضه.

وقد امرت له بهدية فامتنع عن قبولها. ولما طلبت من ترجمانها سؤاله عن سبب الرفض اجاب الغزال: «ان صلتها لجزيلة وان الأخذ منها لتشريف. ولكن كفاني من الصلة نظري اليها واقبالها علي».

فقالت لترجمانها: «متى احب ان يأتيني زائراً فلا يحجب».

وذكروا ان الأمبراطورة اتت مرة لزيارة الشاعر في القصر الذي اعد

لضيافته واصطحبت ابنها الأمير ميشيل وكان شاباً يحب الشراب فأحضر معه نبيذاً فنظم الشاعر في ذلك قصيدة يقول فيها:

«واغـيـد لـينّ الاعـطاف رخص | كحيـل الطـرف ذي عنق طـويـل
تـرى مـاء الشـبـاب بـوجـنـتـيـه | يـلوح كـرونق السيف الصـقيـل
من ابناء الغطارف قيصريّ العمومة | حـين يـنـسـب والخـؤول[1]
كـان اديمـه نـصـفـا بـنـصـف | من الـذهب الدلاص او الـوذيـل[2]
عـلى قـد سـواء لا قـصـير | فـتحـقـره ولا هـو بـالـطويـل
ولـكـن بـين ذلـك في اعـتـدال | كغصـن البـان في قـرب المسيـل
يحـن الي مـطّرفـا لـشـكـلي | ويـكـثر لي الـزيـارة بـالأصيـل
اتى يـومـا الي بـزق خمـر | شمـول الـريـح كـالمسـك الفتيـل
ليـشـربـهـا معي ويـبيـت عـنـدي | فـيـثـبـت بـيـنـنـا ود الخـليـل
وجـاءت امـه مـعـه فـكـانـا | كـام الخشف والـرشـاء الكحيـل[3]
تـوصـيـني بـه وتـقـول اخشـى | عليـه البرد في الليـل الـطويـل
فـقـلـت حمـاقـة مـني نـوكـاً | فـديتك لست من اهـل الشمـول[4]
فـايـة غـرة سـبـحـان ربي | لـو اني كنت من اهـل العقـول

ثم عاد الغزال من رحلته ورأى زرياباً يتمتع بنفوذ هائل عند الأمير عبد الرحمن الأوسط في قرطبة والأندلس جميعاً فهجاه

ووصل ذلك الهجاء الى مسامع الأمير وكان يؤثر زرياباً ويخصه بالعطف فقرر نفي الغزال. وقد شفع له بعض اهل الخير فعفا عنه الأمير.

غير ان الغزال ضاق بالحياة في الأندلس بعد هذا ورحل الى المشرق. وهناك التقى بتلاميذ ابي نواس، وكان ذلك بعد موت الشاعر المشرقي بقليل فوجدهم يلهجون بذكره ولا يساوون شعر احد بشعره. فجلس يوماً مع جماعة منهم فازروا باهل الأندلس واستهجنوا اشعارهم فتركهم حتى وقعوا في ذكر ابي نؤاس فقال لهم من يحفظ منكم قوله:

«ولما رأيت الشرب اكدت سماؤهم | تابطت زقي واحتبست غنائي

---

١ ـ الغطارف: جمع غطريف وهو السيد الشريف والسخي السري.
٢ ـ الدلاص البراق: الوذيل: جمع وذيلة وهي القطعة من الفضة المجلوة.
٣ ـ الخشف ولد الظبي عند ولادته. والرشاء الظبي اذا قوي ومشى مع امه.
٤ ـ النوك: الحمق.

فلما اتيت الحان ناديت ربه | فثاب خفيف الروح نحو ندائي
قليل هجوع العين الا تعلة | على وجل مني ومن نظرائي
فقلت اذقنيها، فلما اذاقها | طرحت عليه ربطتي وردائي
وقلت اعرني بذلة استتر بها | بذلت له فيها طلاق نسائي
فوالله ما برت يميني ولا وفت | له غير اني ضامن بوفائي
فابت الى صحبي ولم اك آبياً | فكل يفديني وحق فدائي

فاعجبوا بالشعر وذهبوا في مدحهم له. فلما افرطوا قال لهم: خفضوا عليكم فانه لي فانكروا ذلك فانشدهم قصيدته التي اولها:

«تداركت في شرب النبيذ خطائي | وفارقت فيه شيمتي وحيائي

فلما اتم القصيدة بالانشاد خجلوا وافترقوا عنه.

ويروي لنا الدكتور محمد رضوان الداية رواية اخرى نقلها عن جذوة المقتبس قال: «واخبرني بعض المشايخ في الأندلس ان سعيد بن احمد كان يحكى انه لما رحل الى المشرق لقيه بعض الأدباء بمصر واستنشده لأهل الأندلس، فانشده ففضل بعض التفضيل الا انه قال: «لا تخفى اشعاركم الى جانب اشعارنا كما لا يخفى البدر في سواد الليل».

فقال له سعيد: صدقت واين لأهل الأندلس بمثل قول الحسن بن هاني.....

وانشده ابيات يحيى بن حكم الغزال وهي قوله من قصيدة طويلة يعارض بها الحسن:

«وكنت اذا ما الشرب اكدت سماؤهم | تابطت زقي واحتضنت عنائي

الخ الأبيات

فلما سمعها المصري طرب واهتز وقال: لله در الحسن. فلما اكثر قال له: الشعر والله ليحيى بن حكم الأندلسي، وانما اردت تجربة نقدك والنقض عليك، فرد ذلك وانكره حتى صح ذلك عنده فخجل واظهر التعجب... الخ الخبر.[1]

وكانت شهرة الغزال قد سبقته الى المشرق كما تدل على ذلك هذه القصيدة:

---

١ ـ الدكتور محمد رضوان الدايه: ديوان يحيى بن حكم الغزال، دار قتيبة. ص ٤٢.

خرجت اليك وثوبها مقلوب ولقلبها طربا اليك وجيب
وكانها في الدار حين تعرضت ظبي تعلل بالفلا مرعوب
وتبسمت فاتتك حين تبسمت بجمان در لم يشبه ثقوب
ودعتك داعية الصبا فتطرّبت نفس الى داعي الضلال طروب
حسبتك في حال الغرام كعهدها في الدار اذ غصن الشباب رطيب
وعرفت ما في نفسها فضممتها فتساقطت بهنانة رعبوب
وقبضت ذاك الشيء قبضة شاهن ر فنزا الي لعضه حلبوب[1]
بيدي الشمال ولا شمال لطافة ليست لأخرى والأريب اريب[2]
فاصاب كفي منه حين لمسته بلل كماء الورد حين يسيب
وتحللت نفسي للذة رشحه حتى خشيت على الفواد يذوب
فتقاعس الملعون عنه وربما ناديته خيرا فليس يجيب
وابى فحقق في الاباء كأنه جان يقاد الى الردى مكروب
وتغضنت جنباته فكأنه كير تقادم عهده مثقوب
حتى اذا ما الصبح لاح عموده قبسا وحان من الظلام ذهوب
ساءلتها خجلا اما لك حاجة عندي؟ فقالت ساخر وحروب
قالت: حرامك اذ اردت وداعها قرن وفيه عوارض وشعوب

قال عتبة التاجر: وجهني الأمير الحكم وابنه عبد الرحمن الى المشرق. وكان عبد الله بن طاهر امير مصر من قبل المأمون، فلقيته بالعراق فسألني عن هذه القصيدة هل احفظها للغزال؟ قلت نعم. فاستنشدنيها، فانشدته اياها فسر بها وكتبها.

قال عتبة: ونلت بها حظاً عنده.

وله من قصيدة اخرى في هذا المعنى والوزن والقافية، في جارية اشتراها اسمها «لعوب»:

«لم انس اذ برزت الي لعوب طربا وحيث قميصها مقلوب
وكأنها في الدار حين تعرضت ظبي تدله بالفلا مرعوب
تفتر عن در تناسق نظمه فيه لثاة عذبة وغروب
حاولت منها رشفة فكأنها عسل بماء سحابة مقطوب

---

١ ـ حلبوب: اسود.
٢ ـ الأريب: الماهر المتبصر.

ودعتــك داعيــة الصبــا فتــطربت نفس الى داعي الـضــلال طــروب
وظننت عهدك عهدها في الدهـر اذ فينــان غصنـك بــالشبــاب رطيب
فجـريت في سنن الصبا شـاوا وقـد وزعـتــك عـنــه كـبــرة ومـشـيـب
وحسبت صاحبك الذي هو ذاك اذ تــدعــوه مـهــما شئتــه فـيـجـيـب
قــد كــان لا ينبــو اذا جــربتــه فــالآن احــداث الــزمــان تنــوب
لمــا رأت ذاك الــذي تـنحــو لــه سمحت فمـال على الكثيب قضيب
وتــاودت خـمــصــانــة بهـنــانــة كــالفجــر يعلوه دجـى غــربيـب[٣]

ومما يحكى ان عباس بن ناصح الثقفي قاضي الجزيرة الخضراء، كان يفد على قرطبة ويأخذ عنه ادباؤها ومرت عليهم قصيدته التي اولها:

«لعمرك ما البلوى بعار ولا العدم اذا المرء لم يعدم تقى الله والكرم

حتى انتهى القارىء الى قوله:

«تخـاف عن الدنيـا فما لمعجـز ولا عاجز الا الذي خط بالقلم

فقال له الغزال وكان في الحلقة وهو اذ ذاك حدث نظام متأدب ذكي القريحة: «ايها الشيخ، وما الذي يصنع مفعل مع فاعل؟ فقال لـه: وكيف تقول؟ فقال: كنت اقول:

«تخاف عن الدنيا فليس لعاجز ولا حازم الا الذي خط بالقلم».

فقال له عباس: والله يا بني، لقد طلبها عمك فما وجدها.

٣ ـ البهنانة: المرأة الطيبة النفس والأرج. خمصانة: ضامرة البطن. غـربيب: اسود. . رعبـوب: الطويلة البيضاء، الناعمة.

الفصل السادس
الاردمانيون

او النورمان او المجوس كما كان يسميهم العرب. النورمان اي رجال الشمال. والمجوس لانهم كانوا يوقدون النار فظنوهم مجوساً. والنورمان امة بحرية عريقة تمرست منذ غابر العصور في ركوب البحر ومقارعة اهواله. وطنهم الاصلي اسكندناوة ودانيماركة وشواطىء المانية الشمالية وبلاد الانقليش، كما يسميهم نصارى قشتالة، واهل المشرق بالفرنج والانكليز. ومستقر ملكهم بجزيرتين عظيمتين ذراع احداهما سبعمائة ميل. وهم اهل قوة وبأس وشدة[1] ويقول عبدالله عنان: «وكان جدب الوطن وشظف العيش وروح المخاطرة تدفع بهم دائماً الى عرض البحار وتجعلهم خطراً دائماً على الشواطىء والثغور المجاورة. وفي اوائل القرن التاسع وصلت حملاتهم الناهبة الى شواطىء بلاد الفرنج ثم نفذت جموع منهم الى شمال فرنسة وغزوا مصب «اللوار» ومصب «الغارون» وانشأوا لهم عدة مراكز وقواعد في تلك الانحاء. (دولة الاسلام في الاندلس: عبدالله عنان).

وهنا بدأ تطلع الاردمانيين الى الاندلس بنوع خاص. وكانت نعماء الاندلس وما اشتهرت به من الخصب والغنى تثير جشع اولئك الغزاة المغامرين. ولم تكن الاندلس تحسب حساباً لذلك الخطر الداهم لانها لم تعرف النورمان من قبل ولم تعرف لهم بقربها ارضاً او مستقراً.

وكان ظهور النورمانيين في المياه الاسبانية لاول مرة عام ٨٤٣. ففي تلك السنة خرج اسطول اردماني من نهر الغارون وعاث في شواطىء مملكة جليقية.

---

١ ـ لسان الدين بن الخطيب: كتاب اعمال الاعلام، تحقيق ليفي بروفنسال بيروت ـ دار المكشوف ١٩٥٦ ص ٢٠.

فبعث ملكها «ردمير» اليهم جيشاً ردهم واحرق كثيراً من سفنهم. فانقلب الاردمانيون حينئذ الى مياه الاندلس الغربية والجنوبية.

والنورمان جنس اري قديم سكن شبه جزيرة اسكندناوة وجوتلند وما يجاورها من الجزر منذ اقدم العصور.

وفي مطلع القرن التاسع الميلادي شرعوا في النزوح عن اوطانهم بعد ان تزايدت اعدادهم وتضاءلت مواردهم فخرجوا في موجتين: شرقية وغربية. فعبر الاسوجيون «البلطيق» ونزلوا عند مصب «الدنيبر» وتوغلوا في روسية منحدرين مع نهر «الفولغا» وانشأوا مدينتي «نوفغرود وكييف» وسط جماعات الصقالبة وسيطروا على التجارة في بحر قزوين الى البحر الاسود. وقد اصبحت كلمة «روتسي» لهذا السبب، وهو الاسم الذي اطلقه الفنلنديون قديماً على جيرانهم الاسوجيين، تطلق على الصقالبة الذين خضعوا لهم. ومن لفظة «روتسي» اشتقت لفظة «روسي» التي اصبح يعرف بها صقالبة حوض الفولغا والدنيبر[٢]

وقد اصطدم هؤلاء الروس مع البيزنطيين في البحر الاسود وحاصروا القسطنطينية عدة مرار بغية ضمها الى املاكهم لما كانت تتمتع به من ثروة اقتصادية، وذلك سنة ٨٦٠ اذ هاجموها باسطول يتكون من مائتي سفينة في وقت غير مناسب فقدت اثناءه بيزنطية اسطولها الرئيسي قرب صقلية على ايدي الاغالبة وتعرضت مدنها وجزرها في بحر «ايجه» لنشاط الاندلسيين في اقريطش.

واغار الروس ايضاً على القسطنطينية في سنة ٩٠٧ بعد ان فقد البيزنطيون «طبرمين» في صقلية سنة ٩٠٢ وبعد ان نهب «ليو» الطرابلسي «سالونيك» في سنة ٩٠٤. ولعل ذلك كان السبب الذي حمل اليعقوبي على ان يطلق اسم «الروس» على النورمان الذين اغاروا على الاندلس في قوله: «ودخلها، اي اشبيلية، المجوس الذين يقال لهم الروس سنة ٨٤٣/٢٢٩ كما دعا المسعودي بعد ذلك الى ان يُشير الى ان المجوس قدموا من خليج يعترض من بحر اوقيانوس وليس بالخليج الذي عليه المنارة النحاس، وارى، والله اعلم ان هذا الخليج متصل ببحر «مايطش وبنطش» (البحر الاسود) وان هذه الامة هم الروس اذ كان لا يقطع هذه البحار المتصلة ببحر اوقيانوس غيرهم».

---

٢ ـ حسين مؤنس: غارات النورمانيين على الاندلس بين سنتي ٢٢٩ و ٢٤٥هـ. المجلة التاريخية المصرية مايو ١٩٤٩ عدد ١ ص ٢٤ وما يليها.

اما الموجة النورمانية الصادرة عن «نروج» فقد اتجهت غرباً الى سواحل انكلترا وايرلندا منذ اوائل القرن السابع الميلادي وشددوا هجماتهم على انكلترا في النصف الاول من القرن التاسع حتى اضطر ملوك «وسكس» الى التخلي لهم عن قسم كبير من جنوب غربي انكلترة وظلوا يستوطنونه حتى سنة ٩٠٠ عندما طردهم «الفرد الكبير» ملك وسكس. اما ايرلندة فقد غزاها النروجيون منذ سنة ٨٤١ واستقروا بها. وقد ظن ابن الخطيب لذلك ان الاردمانيين الذين غزوا سواحل الاندلس قدموا من انكلترا وايرلندة اذ سمع ان نصارى قشتالة في زمانه يسمونهم «الانقليش» الذين يستوطنون جزيرتين عظيمتين كما ذكرنا آنفاً.

اما الاردمانيون الدنمركيون فقد انحدروا من بلادهم واقاموا في بلاد «افرنجة» بعد ان توفي «شارلمان» سنة ٨١٤ وعجز الفرنجة عن ردهم. وقد اشتدت غارات النورمان على بلاد افرنجة عنفاً في عهد ملكهم «هارولد» واخذ مجال هذه الغارات يمتد جنوباً على سواحل دولة الفرنجة شيئاً فشيئاً. ففي سنة ٨٤٣ ظهروا عند مصب نهر «اللوار» واستولوا على نانت في ٢٣ يونيو حزيران من تلك السنة، ومن مصب نهر اللوار امتدت غاراتهم الى مصب نهر «غرونة» وبلغت سفنهم مدينة «برديل» (بوردو) وتوغلت في غرونة حتى طولوسة واوغل احد اساطيلهم جنوبا فنزل النورمان على سواحل «اشتورش» الشمالي بالقرب من «خيخون». ثم واصلوا السير بحذاء الساحل حتى جليقية ولكن حاربهم ملك اشتوريش واحرق عدداً من سفنهم وردهم على اعقابهم. ومن هنالك اتجهوا جنوباً حتى ظهرت سفنهم عند مصب نهر تاجه امام ميناء اشبونة (ليشبونة) في يوم الاربعاء مستهل ذي الحجة سنة ٢٢٩.

لم تكد سفن الاردمانيين تظهر عند ساحل اشبونة حتى ارسل «وهب الله بن حزم» عاملها الى الامير عبد الرحمن الأوسط كتاباً ذكر فيه: «انه حل بالساحل قبله اربعة وخمسون مركباً للمجوس ومعها اربعة وخمسون قارباً».

فلما اطلع الامير على ذلك الخبر اصدر امره الى عمال السواحل بالتحفظ والاحتراس والاستعداد لمواجهة الغزو الاردماني..

ويؤكد العُذْرِي ان النورمانيين عند ظهورهم باشبونة اقاموا بها ثلاثة عشر يوماً وانه وقعت بينهم وبين المسلمين وقيعة عظيمة ركبوا على اثرها سفنهم متجهين جنوباً بحثاً عن مصب واد اخر ينزلون فيه الى ان رست سفنهم عند مصب «وادي الكبير» وهناك تفرقت سفنهم فواصل بعضها السير بحذاء الساحل

الاندلسي جنوباً حتى نزلوا عند سحل اقليم «شذونة» واستولى البعض الآخر على ميناء قادش، بينما اوغلت وحدات الاسطول النورماني في نهر وادي الكبير في اتجاه اشبيلية واحتلوا جزيرة «قبطيل» Captel الواقعة الى الشرق من جزيرة اخرى يقال لها الجزيرة الكبرى Isla Mayor في يوم الجمعة ٨ محرم ٢٣٠ فاقاموا بها ثلاثة ايام. ثم دخلوا قرية «قورة» Coria del Rio الواقعة على بعد اثني عشر ميلاً من اشبيلية في يوم الاثنين ١٢ محرم بعد ان اشتبكوا مع اهلها بالحصن في معركة دارت الدائرة على المسلمين وقتل منهم عدد كبير. واقام النورمان في قورية» بقية يومهم.

ثم دخلوا في يوم الثلاثاء قرية «طلياطة» Tablada التي تبعد عن اشبيلية عشرين ميلاً فنزلوها ليلاً وظهروا بالغداة تحت المدينة بموضع يقال له «الفخارين» فتداعى الناس اليهم ونشبوهم القتال. وذعر اهل اشبيلية فاخلوها الى «قرمونة» وجبال «الشرف». Jarafe

اما النورمان فقد مضوا بمراكبهم وقد رفعت الاشرعة السوداء حتى نزلوا جوفاً من مدينة اشبيلية واعتركوا مع المسلمين بمعركة شديدة فكان في المسلمين من القتل والسبي ما لا يوصف، وانهزم فيها المسلمون غداة الاربعاء لاربع عشرة ليلة خلت من المحرم وفي اول يوم من اكتوبر، واستباح النورمان المدينة سبعة ايام لم يرفعوا السيف عن كل ذي روح ظفروا به من الرجال والنساء والصبيان والدواب والانعام والطيور وكل ما تناولته سيوفهم وسهامهم. فدخلوا حاضرة اشبيلية قسراً واستأصلوا اهلها قتلاً واسراً واقاموا بها بقية يومهم وليلتهم ثم عادوا الى مراكبهم غداة الخميس.

وكانت اشبيلية عند دخولهم عورة مدنية بلا سور.

وفي اليوم التالي قدم جيش من قرطبة بقيادة عبدالله بن المنذر وعيسى بن شهيد والاسكندراني وعبد الرحمن بن كليب بن ثعلبة. ونزل الجيش القرطبي بموضع شرقي اشبيلية. فلما احس بهم المجوس تبادروا اليهم حتى كادوا ان يخالطوهم. فثبت المسلمون وقتلوا منهم سبعين علجاً، فهزموهم حتى ادخلوهم في مراكبهم ثم نكل عنهم المسلمون واحجموا وتوقفوا.

فلما اتصل بالامير عبد الرحمن فعل القواد قفلهم واستنفر المسلمين بقرطبة فتوافت الاجناد بقيادة محمد بن سعيد بن رستم وانضم اليهم موسى بن قسي صاحب الثغر والمتطوعة حتى نزلوا اشبيلية، فخرج المجوس اليهم وقاتلوهم في

المدينة فدافعهم فيه يومهم ذلك. فلما كان الليل ولى ومن معه وخاف البيات فتنحى الى «كورتيش» Cuartos بقبلي المدينة وعلى اربعة اميال منها. بينما نزل موسى بن قسي في قرية «كنتس» Quintos الواقعة قبل اشبيلية على بعد خمسة اميال منها. .

ثم غاداهم بالقتال فلم يقدم المجوس على الخروج اليه وانقبضوا عنه حتى نزلوا طلياطة فاتبعهم ابن رستم وحاصرهم في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الاول ونصب عليهم المجانيق. وقدم عليهم في ذلك اليوم من قرطبة «نصر الفتى» بالمدد وانهض الناس لمحاربة المجوس من كل جهة فناشبوهم القتـال وكادت هزيمة المسلمين تستحق فترجل محمد بن رستم وترجل الناس معه وادخل الرجال بين العدو والنهر الاعظم فحالوا بينهم وبين المراكب فانهزم المجوس وقتل منهم نحو خمسمائة من بينهم اميرهم وقائد اسطولهم واصيبت لهم اربع سفن بما فيها امر ابن رستم باحراقها وبيع ما فيها من الفيء، اقام في معسكره ذلك واحجم المجوس عنه وبقوا اياماً بين طلياطة وقبطيل لا يتمكن المسلمون منهم حتى خرج المجوس من جهة النهر الذي يلي «لبلة» وامعنوا في «الشرف» واصابوا سبياً وامتعة ثم اقبلوا وعرض لهم المسلمون وعلى الخيل عبدوس وامير الجيش الذي كان في صاحبه تلك الناحية عبدالله بن كليب بن ثعلبة واحجم كل فريق منهم عن صاحبه وانصرف كل عن حاميته.

ثم هبط المجوس الى «قنب قوريش» فنزلوها واخرجوا ما كان معهم من السبي والغنيمة فوزعوا ذلك بينهم فحمى المسلمون وتقحموا عليهم حتى قتلوا علجين من المجوس وادخلوهم في سفنهم.

ثم دخل المجوس الى قبطيل فصاروا بين اودية فنزل عليهم المسلمون من جنبي النهر ومنعوهم النزول فرفع المجوس مراكبهم وطرقوا شذونـة واطعموا طعمة وسبياً واقاموا يومين.

ثم هبطت للامير عبد الرحمن خمسة عشر مركباً بالمقاتلة والعدة فنـزلوا اشبيلية. فلما احس المجوس بها لحقوا بلبلة واغاروا واسبوا. ونزلوا في جزيرة شلطيش ثم لحقوا باكشنوبة فنزلوا على وادي آنه. ثم مضوا الى باجه فنزلوا بموضع يقال له «سعس» ثم نزلوا المعدن وتنقلوا الى مدينة الاشبونة وتحركوا منها وانقطع خبرهم.

وفي ذلك يقول عثمان بن المثنى مادحاً الفتى نصرا:

«يقولون ان الاردمانيين اقبلوا فقلت اذا جاؤوا بعثنا لهم نصرا

وعثمان ابن المثنى هذا وصفه ابن حيان بمعرفة اللغة والتجويد في الشعر. وذكر انه رحل ولقي ابا تمام الطائي واخذ عنه شعره. وكان شجاعاً مكثراً للغزو في الثغور. وادب اولاد عبد الرحمن الأوسط. وولد في صدر دولة هشام الرضا، فادرك اربعة سلاطين من المروانية، آخرهم محمد.

وزاره بعض اخوانه في مكتبه بقصر الخلافة وهو يعلم ولداً للامير محمد جميل الصورة فقال له: كيف حالك مع هذا الرشاء؟ فقال: لا ازال اشرب خمر عينيه فلا اروى وهو يسقينيها دائماً وانشا يقول:

«صناعة عيني السهاد وانما صناعة عينيه الخلابة والسحر
ولو بفناء الدهر ارجو نواله اذا لوددنا انه فني الدهر

وتوفي عن اربع وتسعين سنة.

ويقول ابن القوطية: ان الاردمانيين بعد انصرافهم عن اشبيلية توجهوا الى نكور وانهم اسروا بها حد ابن صالح فافتداه الامير عبد الرحمن بن الحكم، وانهم هتكوا الساحلين جميعاً حتى بلغوا بلاد الروم اي ايطالية وانهم بلغوا في تلك الغزوة الاسكندرية. ولكن ابن القوطية تجاوز الصواب، كما يقول السيد عبد العزيز سالم، اذ ان غزوة النورمان لنكور تمت وفقاً للبكري في سنة ٢٤٤. ففي هذه السنة تغلبوا عليها مدة سبعة ايام وسبوا من فيها الا من افلت بالفرار. وكان فيمن سبوه «امة الرحمن» وخنعولة، ابنتا واقف ابن المعتصم بن صاع بن منصور الحميري. فافتداهما الامام محمد بن عبد الرحمن.

اما قول ابن القوطية بغزوهم الاسكندرية فمستبعد اصلاً. ويبدو ان ملك النورمان بالدنمرك كان يسمى «اريك» لم يكن يتوقع ان ينهزم رجاله في اشبيلية على النحو الذي رأيناه، فسعى الى عقد صلح مع المسلمين في الاندلس. وارسل وفداً الى الامير عبد الرحمن يلتمس منه ان يقبل الصلح وذلك عقب خروج النورمان من اشبيلية. فرد الامير على سفارته بسفارة مماثلة ضمت الشاعر يحيى الغزال ويحيى بن حبيب اللذين ركبا مركباً انشىء لهما لذلك الغرض.

ابحر هذا المركب من مدينة اشبونة مع مركب السفير الاردماني، وتعرض المركبان لعاصفة عاتية عند الطرف الاعظم الداخل في البحر الذي هو حد الاندلس في آخر المغرب وهو الجبل المعروف بالوية الطرف الشمالي الغربي من

شبه الجزيرة الابرية. وكادت السفينة تتحطم. فلنسمع الغزال يصف ذلك الحال:

قال لي يحيى وصرنا	بين موج كالجبال
وتولتنا	رياح من دبور وشمال
شقت القلعين وانبتت	عرا تلك الحبال
وتمطى ملك الموت	الينا عن حيال
فرأينا الموت رأي العين	حالاً بعد حال
لم يكن للقوم فينا	يا رفيقي رأس مال
وسليمى ذات زهد	في زهيد في وصال
كلما قلت صليني	حاسبتني بالخيال
والكرى قد منعته	مقلتي اخرى الليالي
وهي ادرى فلماذا	دافعتني بمحال
اترى انا اقتضينا	بعد شيئاً من نوال

غير ان المركب لم يتحطم ونجا ووصل الى جزيرة من جزر النورمان فاقاما فيها اياماً اصلحا فيها مركبهما ثم تابعا الرحلة الى مستقر ملك النورمان وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط.

ويعترض ليفي بروفنسال على رواية ابن دحية المتأخرة ويعتقد انها مجرد اسطورة ابتكرت لها وان رحلة الغزال كانت موجهة الى بيزنطية نفسها استناداً الى ما رواه ابن حيان وان المسألة لا تعدو خلطاً في اذهان الاندلسيين بين حادثتين: احدهما وصول سفارة بيزنطية الى قرطبة، والثاني غارة النورمان على سواحل الاندلس الجنوبية الغربية. وانتهى المزج بين الحادثتين الى ابتكار اسطورة مشتركة اخذت تشوه الحقيقة التاريخية شيئاً فشيئاً مع مضي الزمن.. ولكن حسين مؤنس يناقش رأي ليفي بروفنسال ويفنده تفنيداً علمياً ويخرج من هذه المناقشة بترجيح صحة سفارة الغزال الى بلاط النورمان وهو ما نميل الى الاخذ به ونعتقد ان الغزال قام بسفارتين مختلفتين: احداهما الى القسطنطينية كما رأينا رداً على سفارة الامبراطور البيزنطي تيوفيل التي وصلت الى قرطبة في سنة ٢٢٥، ونعتقد ان رحلة الغزال الى القسطنطينية تمت في العام التالي. والثانية تمت بعد غزوة المجوس لسواحل الاندلس في سنة ٢٣٠ وفقاً لما رواه ابن دحية[1].

---

١ ـ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الاسلامية جزء ٢، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية.

لا اعتقد ان القضية معقدة الى هذا الحد فالغزال نفسه يتحدث عن السفارة الى الدنمرك في شعره عندما يتحدث عن «مجوسية» وهذه المجوسية لا يمكن ان تكون امبراطورة البيزنطيين النصرانية واليكم شعر الغزال:

«كلفت يا قلبي هوى متعباً | غالبت فيه الضيغم الاغلبا
اني تعلقت مجوسية | تأبى لشمس الحسن ان تقربا
اقصى بلاد الله في حيث لا | يلفي اليه ذاهب مذهبا
يا «تود» يا ورد الشباب الذي | تطلع من ازرارها الكوكبا
يا بابي الشخص الذي لا ارى | احلى على قلبي ولا اعذبا
ان قلت يوماً ان عيني رأت | مشبهه لم اعد ان اكذبا
قالت ارى فوديه قد نورا | دعابة توجب ان ادعبا
قلت لها ما باله انه | قد ينتج المهر كذا اشهبا
فاستضحكت عجباً لقولي لها | وانما قلت لكي تعجبا

وفسره الترجمان لها فضحكت منه وامرته بالخضاب، ففعل ذلك الغزال، وغدا عليها يوماً ثانياً وقد اختضب فمدحت خضابه وحسنته عنده فقال الغزال في ذلك:

بكرت تحسن لي سواد خضابي | فكأن ذاك اعادني لشبابي
ما الشيب عندي والخضاب لواصف | الا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا | فيصير ما سترت به لذهاب
لا تنكري وضح المشيب فانما | هو زهرة الافهام والالباب
فلدى ما تهوين من شأن الصبا | وطلاوة الاخلاق والآداب

واشتاق الشاعر الى العودة الى قرطبة حيث خلف احباء قلبه فقال:

كتبت وشوق لا يفارق مهجتي | ووجدي بكم مستحكم وتذكري
بقرطبة قلبي وجسمي ببلدة | نأيت بها عن اهل ودي ومعشري
سقى الله من مزن السحائب ثرة[1] | دياركم اللاتي حوت كل جؤذر
بحق الهوى اقر السلام على التي | اهيم بها عشقاً الى يوم محشري
لئن غبت عنها فالهوى غير غائب | مقيماً بقلب الهائم المتفطر
كأن لم ابت في ثوبها طول ليلة | الى ان بدا وجه الصباح المنور

---

١ ـ ثرّت السحابة ماءها: صبّته.

وعانقت غصناً فيه رمان فضة … وقبلت ثغراً ريقه ريق سكر
أأنسى؟ ولا انسى عناقك خالياً … وضمي ونقلي نظم در وجوهر
فواحزني ان فرق الدهر بيننا … وكدّر وصلاً منك غير مكدر
لقد غررت نفسي بحبك ضلة … ولو علمت عقبى الهوى لم تغرر
بكيت فما اغنى البكا عند صحبتي … وشوقي الى ريم من الانس احور
سلام سلام الف الف مكرر … ويا حاملاً عني الرسالة كرر
الا يا نسيم الريح بلغ سلامنا … وصف كل ما يلقى الغريب وخبر
وقل لشعاع الشمس بلغ تحيتي … سميك واقرأها على آل جعفر

لم تقض هزيمة النورمان في طلياطة عليهم نهائياً فقد اضطر جماعة منهم الى التحصن في جزيرة قبطيل ولكن القائد ابن رستم ارغمهم على الاستسلام، فاعتنقوا الاسلام واقاموا بادنى الوادي الكبير واشتغلوا هناك بتربية قطعان الماشية وصناعة الالبان.

وكان لغارة الاردمانيين اثر هام على الاندلس فقد نبهت الامير عبد الرحمن الأوسط ومن تولى بعده الى ضرورة الاهتمام بتحصين السواحل التي يمكن ان يطرقها الغزاة الشماليون من الغرب والجنوب الغربي. فامر عبد الرحمن الأوسط باقامة اسوار اشبيلية ببنائها بالحجارة في سنة ٢٣٠هـ وتولى اعمال البناء عبدالله بن سنان احد موالي الشاميين باشارة وزيره عبد الملك بن حبيب[1] وانشاء مراقب ومحارس على طول الساحل الغربي المطل على المحيط وشحنها بالمرابطة.

كذلك حفزت هذه الغارة النورماندية الحكومة الاموية في الاندلس على زيادة الاهتمام بالبحرية عن طريق انشاء دور الصناعة وتزويد الموانىء البحرية بالاساطيل لمواجهة الغارات البحرية المقبلة. فامر الامير عبد الرحمن الأوسط باقامة دار صناعة باشبيلية وبنى المراكب واستعد برجال البحر من سواحل الاندلس فالحقهم ووسع عليهم، فاستعد بالآلات والنفط. ولم يسجل

---

١ ـ ابو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان الالبيري من موالي عباس بن مرداس السلمي رحل سنة ٨٣١/٢١٦ الى المشرق فسمع بالمدينة من ابن الماجشون وبمصر من اصبغ ابن الفرج واسد بن موسى وكان من موحدي المذهب المالكي في الاندلس وان كان من متزعمي الاتجاه الأخذ بآراء الشيوخ المدنيين من المالكية ومن المصريين، ولكن لم يقدر النجاح لاتجاهه. وقد اصبح لابن حبيب مكانة عالية في الاندلس. وكان من المشاورين لدى القضاة وهذا ما اوجد تنافساً شديداً بينه وبين يحيى بن يحيى الليثي على انه كان يتميز على يحيى واصحابه والفقهاء بالتمكن من علوم كثيرة الى جانب الفقه وله مؤلفات فيه وفي التاريخ واللغة والطب.

هذا العمل ميلاد البحرية الاندلسية لان البحرية الاسلامية في الاندلس قد ولدت بالفعل قبل ذلك منذ ايام الامير الحكم الربضي. ولكنه يسجل تنظيماً للبحرية الاسلامية في شبه جزيرة الاندلس وحشداً لطاقات هذه الجزيرة لخدمة الاغراض البحرية. واغلب الظن ان الامير عبد الرحمن دعا الى تضافر جهود البحريين والغزاة لخدمة الدولة مقابل ارزاق معلومة اي انه استعان بهؤلاء البحريين في ادارة اسطول قوي زوده بالآلات والمعدات التي اختصت بصناعتها جزيرة «شلطيش». ومن المعروف ان «شلطيش» كانت تنتج المراسي اللازمة للسفن والمراكب الحمالة الجافية.

اما انشاء دار صناعة اشبيلية في عهده فامر يتعارض ما ذكره ابن القوطية نفسه في موضوع سابق اذ ذكر ان سارة القوطية ابنة «المند» وحفيدة غيطشة ملك القوط انشأت مركباً باشبيلية وتوجهت باخويها الى الشام فنزلت بعسقلان وقصدت دمشق وتظلمت لهشام بن عبد الملك من عمها ارطباس..

ونستنتج من ذلك ان دار الصناعة باشبيلية كانت قائمة بالفعل منذ الفتح العربي للاندلس او قبل الفتح العربي. ولعل دار الصناعة التي اتفق مؤرخو العرب على نسبتها الى عبد الرحمن الأوسط هي نفس الصناعة القوطية القديمة. وقد تكون تلك الصناعة قد توقفت فترة الامارة الاموية عن الانتاج فجددها الامير عبد الرحمن بالبناء عقب غزوة المجوس الاولى في سنة ٢٣٠هـ ولعله اضاف اليها منشآت معمارية جديدة كي تنشط في انتاج العديد من السفن. كذلك انشأ الامير نفسه داراً لصناعة الاسلحة اللازمة للسفن في مدينة «قرمونة». وكان من اثر ذلك ان اصبح لحكومة قرطبة اسطول ضخم يضم عدداً كبيراً من السفن الحربية «الغزوانية» يقدر عددها بما يزيد على ثلاثمائة سفينة، اذا صدقنا رواية ابن حيان عند تعرضه لذكر اشتراك الاسطول العربي في فتح جزيرة ميورقة ومنورقة سنة ٢٣٤هـ بقوله:

«وفيها اغزى الامير عبد الرحمن اسطولاً من ثلاثمائة مركب الى اهل جزيرتي ميورقة منورقة لنقضهم العهد واضرارهم بمن يمر اليهم من مراكب المسلمين. ففتح الله للمسلمين عليهم واظفرهم بهم فاصابوا سباياهم وفتحوا اكثر جزائرهم. وانفذ الامير فتاه «شنطير» الخصي الى ابن ميمون عامل بلنسية ليحضر تحصيل الغنائم ويقبض الخمس. وكان قد صالح بعض اهل تلك الحصون على ثلث اموالهم وانفسهم واحصيت رَبعُهم واموالهم وقبض ما عليه صولحوا.

وبما اننا نتحدث عن الغزو النورماندي يجدر بنا مواصلة الكلام عنهم وان يكن قد تخطى الحقبة التي نحن بصددها اي عهد عبد الرحمن الأوسط، فقد وقع الغزو ايضاً على عهد ابنه محمد سنة ٢٤٥. فانه لم تكد تمر خمس عشرة سنة على الغزوة الاولى حتى تعرضت سواحل الاندلس الغربية الجنوبية الى غزوة جديدة. ويبدو ان الاردمانيين بعد وفاة ملكهم هوريك سنة ٨٥٤/٢٣٩ وهو الملك ذاته الذي كان الامير عبد الرحمن الأوسط قد تبادل معه السفارة بعد خروج الاردمانيين من مياه الاندلس في سنة ٢٣٠هـ، انتقضوا سياسة الموادعة التي جرى عليها ملكهم هوريك تجاه امراء الاندلس فعادوا من جديد الى حياة الغزو البحري واعمال القرصنة التماساً للمغانم. فهاجموا سواحل الاندلس في سنة ٢٤٥ انطلاقاً من قواعدهم التي كانوا قد اقاموها على سواحل فرنسة الغربية.

وكان الدفاع عن سواحل الاندلس في هذه المرة يختلف اختلافاً جوهرياً عنه في غارات المجوس الاولى، وذلك لان الامير محمداً بن عبد الرحمن كان يتوقع طروقهم لبلاده بعد وفاة ابيه سنة ٢٣٨هـ، فاعد للامر عدته واتخذ اهبته لصد غاراتهم بسياج ضخم من الوحدات البحرية المقاتلة وهي مراكب تسمى ايضاً «غزوانية» كما تسمى غرباناً لرقتها وطولها وسوادها بالأطلية المانعة للماء كالزفت وغيره فتصبح لسوادها شبيهة بالغربان تحمل الغزاة. وسيرها بالقلوع والمجاديف منها ما له ١٨٠ مجدافاً ومنها ما له اقل من ذلك. ومن مزايا الغربان انها تحمل جسراً من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر الجند عليه فيقاتلون بالاساليب البرية.

وتتحرك هذه الغزوانيات بدون انقطاع من سواحل افرنجة المطلة على المحيط الى سواحل جليقية بقصد ترقب وصول السفن النورمانية الى مياه الاندلس. ويذكر ابن الكردبوس ان الامير محمداً انشأ في البحر سبعمائة غراب وان جيش المسلمين انتهى في ايامه الى مائة الف فارس منهم عشرون الفاً بدروع الفضة[1].

بدأ المجوس هجومهم على الساحل الجليقي ولكنهم انهزموا سريعاً وارتدوا من هنالك متجهين الى الجنوب. ويجمع مؤرخو العرب على ان النورمان خرجوا

---

١ ـ تاريخ الاندلس لابن الكردبوس، تحقيق احمد مختار العبادي ـ معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٧١ ص ٥٧.

الى ساحل البحر بغرب الاندلس في سنة ٢٤٥، ويذكر ابن عذارى ان اسطولهم كان مشكلاً في هذه المرة من ٦٢ مركباً بينما يذكر العذري انه تكون من ٨٠ مركباً.

ويروي ابن عذري ايضاً ان النورمان وجدوا البحر محروساً ومراكب المسلمين معدة تجري من حائط افرنجة الى حائط جليقية في الغرب الاقصى فتقدم مركبان من مراكب المجوس فتلاقت بهم المراكب المعدة فوافوا هـذين المركبين في بعض كور باجه فاخذهما بما فيهما من الـذهب والفضة والسبي والعدة.

اما بقية مراكب النورمان فقد اتجهت مع الساحل الغربي للاندلس جنوباً حتى وصلت الى مصب نهر الوادي الكبير. وكانت وجهتها مدينة اشبيلية. ولكن الامير محمد كان قد تأهب لمقابلتهم واستعد لصد غاراتهم اذ كان قد حشد لهم الجيوش وجمع لهم المطوعة من اهل الاندلس وقود على عسكـره عيسى ابن الحسن الحاجب. وتلقاهم المسلمون عند مدخل نهر اشبيلية فهزموهم وتمكنوا من الاستيلاء على عدة مراكب من مراكبهم. ولكن النورمان تجنبوا الاشتباك بعد ذلك مع المسلمين وواصلوا السير بحذاء الساحل بغية البحث عن منفذ يتسللون منه الى مدن الاندلس ووجدوا بغيتهم في الجزيرة الخضراء فتغلبوا عليها ودخلوها واحرقوا مسجدها الجامع وركزوا فيه راياتهم، فنسب الجامع الى تلك الرايات. والظاهر انهم قوبلوا بمقاومة شديدة ارغمتهم على الانسحاب سريعاً. ويبدو ان المجوس عمدوا الى الحيلة فتظاهروا بالعدول عن مهاجمة سواحل الاندلس حتى يكف المسلمون عن مطاردتهم والاستعـداد لمواجهتهم ثم يبـاغتون السـواحل الاندلسية بالهجوم فيخلو لهم الجو لنهب هذه السواحل. فجازوا الى العدوة واستباحوا اريافها ونزلوا في السنة ذاتها بنكور فتغلبوا عليها وانتهبوها وسبوا من فيها الا من خلصه الفرار.

وكان فيمن سبوا امة الرحمن وجنعولة ابنتا واقف بن المعتصم بن صالح. ففداهما الامام محمد بن عبد الرحمن كما رأينا. واقامت المجوس بمدينة نكور ثمانية ايام.

ثم جازت سفن المجوس الى ساحل تدمير «قرطاجنة الخلفاء» وهزموا اهلها اذ لم يكن اهل تدمير يتوقعون طروقهم لبلدهم. وتوغل النورمان في داخل اقليم تدمير حتى انتهوا الى حصن اوريولة ولكنهم لم يتمكنوا من الظفر بشيء فعادوا

الى سفنهم واتجهوا شمالاً الى حائط افرنجة اي الى ساحل فرنسة الجنوبي فقضوا هناك فصل الشتاء واصابوا بها الذراري والاموال حتى انصرفوا الى ريف الاندلس وقد ذهب من مراكبهم اكثر من اربعين مركباً.

وتؤكد المصادر الفرنسية واللاتينية القديمة الرواية العربية فتشير الى ان النورمان اشتوا في جزيرة «كاماريا» الواقعة جنوبي نهر «الرون»، كما تشير الى انهم اغاروا على سواحل ايطاليا وغنموا غنائم كثيرة ثم تعرضت سفنهم لعاصفة عاتية فغرق منها نحو اربعين سفينة.

ويبدو ان النورمان انحدروا بعد انتهاء فصل الشتاء جنوباً نحو الساحل الشرقي من الاندلس واغاروا على جزر البليار «الشرقيات».

وفي هذه الاثناء كانت سفن المسلمين قد استدارت مع الساحل الاندلسي قادمة من السواحل الغربية الى الساحل الشرقي. وكان يتولى قيادة السفن الاندلسية قائدان هما: «سبش بن كشوح» وخشخاش البحري فلاقتهم سفن المسلمين بريف شذونة فاصاب المسلمون من مراكب النورمان مركبين فيهما الاموال العظيمة نقلها الله للمسلمين.

ثم صدمهم خشخاش وابن كشوح فاحرقا مركبين للمجوس بجميع ما كان فيهما، فحمي المجوس عند ذلك حتى استشهد خشخاش وقوم من المسلمين معه.

ثم مضت بقية مراكب النورمان شمالاً وصعدت في وادي ابره او وادي «بيدسوا» وتقدم بعضها الى بنبلونة ولم يستطع ملك «غرسية انيغث» المعروف في المصادر العربية باسم «غرسية بن ونقة» او غرسية الفرنجي ان يدافع النورمان فانهزم ووقع اسيراً وافتدى منهم بسبعين الف دينار دراهم وارتهن في بعضها اولاده. وكذلك وقع في اسر النورمان من المسلمين بباجة عبدالله وعبد الملك ابنا محمد بن مسلمة فاطلق النورمان منهما عبدالله واستبقوا اخاه عبد الملك. كما وقع في اسرهم سعودون بن فتح السرنباقي الثائر في ايام الامير عبدالله، عند مهاجمتهم الساحل الغربي، ففداه منهم بعض تجار اليهود.

ولم تنته غارة المجوس عند هذا الحد، فقد ظهرت مراكبهم في البحر عند الجزيرة الخضراء في سنة ٢٤٧هـ فكتب الامير الى عمال الساحل بالاحتراس والتحفظ، فعطب بعض هذه السفن في ناحية البحيرة من الجزيرة الخضراء

ونجت بقية سفنهم فمضت الى ناحية افرنجية.

وواصل الامير محمد عنايته بالبحرية الاندلسية بعد غارة الاردمانيين، فبنى داراً للانشاء في قرطبة كما يقول ابن عذارى في حوادث سنة ٢٦٦هـ اذ يقول:

«وفيها امر الامير محمد بانشاء المراكب بقرطبة ليتوجه بها الى البحر المحيط الرعيطي المعروف بابن مغيث. وكان قد رفع اليه رافع ان جليقية من ناحية البحر المحيط لا سور لها، وان اهلها لا يمتنعون من جيش اذا غشيهم من تلك الناحية. ولكن هذه السفن ما كادت تدخل البحر المحيط حتى تعرضت لعاصفة عاتية فرقتها ولم يتجمع بعضها الى بعض واختفت ولم يعد منها الا اليسير[1]»

هنا نتوقف عن الكلام بشأن المجوس لان بقية تاريخهم وعلاقاتها بالعرب الاندلسيين موجودة في كتابي «صبح البشكنسية» صفحة ٤٤ وما يليها..»

١ ـ اكثر هذه المعلومات مأخوذة عن «تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس» ـ الجزء الثاني الدكتور عبد العزيز سالم.

الفصل السابع

القضاء على عهد عبد الرحمن الأوسط

لفظ القضاء يأتي في اللغة على انحاء، ومرجعها الى انقطاع الشيء وتمامه. يقال قضى الحاكم اذا فصل في الحكم وقضى دينه اي قطع ما لغريمه قبله بالاداء.

وخطة القضاء في نفسها من اسنى الخطط فان الله تعالى قد رفع درجة الحكام وجعل اليهم تصريف امور الانام، يحكمون في الدماء والابضاع والاموال والحلال والحرام. وتلك خطة الانبياء ومن بعدهم من الخلفاء، فلا شرف في الدنيا بعد الخلافة اشرف من القضاء. ولاجل منيف قدره في الاقدار ولسمو خطره في الاخطار اشترط العلماء في متوليه من شروط الصحة والكمال ما تقرر في كتبهم. فقد نقل عن مالك بن انس انه كان يقول في الخصال التي لا يصلح القضاء الا بها لا اراها تجتمع اليوم في احد فاذا اجتمع منها في الرجل خصلتان: العلم والورع قُدّم.

وقال غيره: وان لم يكن علم فعقل وورع، فبالعقل تحصل خصال الخير كلها وبالورع يعف، وان طلب العلم وجده وان طلب العقل اذا لم يكن عنده لم يجده وقد قيل: «كثير العقل مع قليل العلم انفع من كثير العلم مع قليل العقل». وليس العلم بكثرة الرواية والحفظ انما العلم نور يضعه الله في القلوب.

ومن قلد الحكم بين الخلق والنظر في شيء من امورهم فهو احوج الناس الى هذا النور والى اتصافه بالتذكير والتيقظ والتفطن.

وذكر ان عمر بن عبد العزيز قال: لا يصلح للقضاء الا القوي على امر الناس المستخف بسخطهم وملامتهم في حق الله العالم بانه مهما اقترب من سخط الناس وملامتهم في الحق والعدل والقصد استفاد بذلك ثمناً ربيحاً في رضوان الله.

من التنبيهات وشروط القضاء التي لا يتم للقاضي قضاؤه الا بها عشرة: الاسلام والعقل والذكورية والحرية والبلوغ والعدالـة والعلم وسلامـة حاسـة السمع والبصر من العمى والصم وسلامة حاسة اللسان من البكم وكونه واحداً لا اكثر، فلا يصح تقديم اثنين على ان يقضيا معاً في قضية واحدة لاختلاف الاغراض وتعذر الاتفاق وبطلان الاحكام بذلك. ثم من هذه الشروط ما اذا عدم فيمن قلد القضاء بجهل او غرض فاسد ثم نفذ منه حكم فانه لا يصح ويرد وهي الخمسة الاولى: الاسلام والعقل والبلوغ والذكورية والحرية. اما الخمسة الاخرى فينفذ من احكام من عدمت منه ما يوافق الحق الا الجاهل الذي يحكم برأيه. واما الفاسق ففيه خلاف: هل يرد ما حكم به وان وافق الحق وهو الصحيح ام يمضي اذا وافق الحق ووجه الحكم.

وشروط الكمال عشرة: خمسة اوصاف ينتفي عنها وخمسة لا ينتفي منها ان يكون غير محدود وغير مطعون عليه في نسبه بولادة اللعان والزنا وغير فقير وغير امي وغير مستضعف، وان يكون فطناً نزيهاً مهيباً حليماً مستشيراً لاهل العلم والرأي.

وخطة القضاء في الاندلس هي اعظم الخطط عند العامة والخاصة لتعلقها بامور الدين وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي. هذا وصفها في زمان بني امية ومن سلك مسلكهم، ولا سبيل ان يتسم بهذه السمة الا من هو وال للحكم الشرعي في مدينة جليلة. وان كانت صغيرة فلا يطلق على حاكمها الا «مسدد خاصة». وقاضي القضاة يقال له قاضي الجماعة[1].

القاضي يحيى بن معمر:

من العرب الشاميين، وكان من اهل اشبيلية ومنزله بها يسمى «مفرانة» حارة من طرق الحاضرة عليها ممر السابلة. وكان في وقته فقيه اشبيلية. وكانت له رحلة لقي فيها اشهب بن عبد العزيز وسمع منه ومن غيره من اهل العلم وكان في مذهبه ورعاً زاهداً فاضلاً مقبلاً على اقامة ضيعته واصلاح شأنه.

لهج الناس باشبيلية ان يحيى بن معمر يستقضي بقرطبة. وحكى رجل من اهل اشبيلية يعرف بمرة بن دسيم قال:

---

١ ـ المقري: نفح الطيب جزء ١ ص ١٠١، المطبعة الازهرية المصرية ١٣٠٤هـ

«كنت مع يحيى جالساً في قريته في بعض الابنية حتى نظرت الى فارس يركض وهو مجدّ في السير. فاتبعته بصري فلما بلغ الى الطريق الذي يعطف فيه الى منزل يحيى بن معمر وقف وقوف الجاهل بالمكان المستدل. قال: وظننت انه رسول الامير عبد الرحمن من قرطبة في يحيى بن معمر ليوليه القضاء. قال: فعطفت على يحيى فقلت: ابا زكريا لهج الناس من امرك بشيء واحب ان اعرف الحقيقة مما تعتقده فقد ازف الامر: تقبل القضاء او لا تقبل؟ قال: اقبل. قال: فقلت له: اذا كنت قاضي الجماعة بقرطبة ما يكون حظ صديقك ومحبك من ذلك؟ قال: حظ وافر ان شاء الله.

قال: فقلت له هذا رسول مقبل فيك من قرطبة. قال: فما انقضى الكلام حتى وقف بنا الراكض المرسل في يحيى بن معمر.

فلما صار يحيى الى قضاء الجماعة بقرطبة قصدت اليه من اشبيلية فنزلت عليه فحيى واكرم وانزل. فلما صرنا الى العشاء قدّم من الادام شيئاً مختصراً فقلت له: وما هذا؟ واين نعيم قرطبة وما فيها من ضروب الخيرات وانت قاضي الجماعة؟

ثم قلت اخشى والله ان اندم على رحلتي اليك.

قال: لا ان شاء الله.

فلما اصبح يحيى بن معمر وضع يده وانا لا اشعر فكتب الى الامير عبد الرحمن بن الحَكم يحكي له القصة على وجهها وكيف كانت العقدة من يحيى وان «مرة بن دسيم» قدم عليه مستنجزاً. ثم سأله ان يعقد له على قومه سنة كاملة وان يحمله ويكسوه.

قال مرة بن دسيم: فما شعرت وانا قد استشعرت اليأس من خير القاضي لما رأيت من زهده ومآخذه في نفسه حتى اتت العقدة الى يحيى من عند الامير مع صلة مائتي دينار وبغلٍ حملان وثياب كسوة وكتاب معها من الامير يقول فيه: «قد انجزنا عنك عدتك لمرة بن دسيم».

ومما يروى عن احمد بن وضاح انه قال: «صليت صلاة الكسوف مع ابن معمر في الجامع بقرطبة سنة ثمان عشرة ومائتين فصلى واحسن الصلاة ولم يقم الصلاة وطوّل في صلاته، بدأ بالصلاة ضحى وقوّم في القابلة وقد تجلّت الشمس وكذا في زمن الصيف.

وقدم ليلة عيد وكانت توضع للامام عنزة[1] في المصلى فباكر اهل الدهاء والحركة واصطفوا الى العَنَزَة ليختبروا خطبته وينتقدوا عليه. فلما نظر اليهم عرف بهيئتهم انهم بالصفة التي كانوا بها. ووقع في روعه السبب الذي ذهبوا اليه فكادهم بان قال للقومة: «اني ارى الناس قد ازدحموا حول العَنَزَة فقدموها الى الفضاء ليستوسعوا. فبادر القومة الى تقديم العنزة حتى وسعت فتكنفوها واصطنعوا حولها. وتثاقل ذوو الهيئات الذين نقلت من سببهم كما خف اولئك له ومكثوا بمكانهم فحصل الشيخ بحيلته على قرب من لم تكن عليه مؤونة من نقده فكان ذوو التحصيل يعجبون مما فعله ويحكونه كثيراً عنه.

ولما ازمع الرحيل ركب بغلته التي جاء بها ووضع خريجه الذي ساقه تحته وقال لمن شيعه: «يا اهل قرطبة، اقلوا علينا اللوم فكما جئناكم كذلك ننصرف عنكم».

وكان يحيى بن معمر اذا اشكل عليه الامر واختلف عليه الفقهاء كتب الى مصر الى اصبغ بن الفرج وكشفه عن وجه ما يريد علمه.

وكان بين يحيى بن يحيى ويحيى بن معمر عداوة فسعى يحيى بن يحيى في عزل ابن معمر القاضي عند عبد الرحمن واقام عليه البينات من اهل العلم والعدل فشهدوا على يحيى بن معمر عند الوزراء باحوال قبيحة نسبت اليه. فرفع يحيى بن معمر الى الامير عبد الرحمن عداوة يحيى وانه هو الذي ضم الفقهاء والعدول الى الشهادة فطاعوا له بها.

فاخرج الامير عبد الرحمن عهداً الى الوزراء يأمرهم بان يرسلوا في وجوه التجارة فيسألوهم عن يحيى بن معمر. فارسل الوزراء في غير واحد فكان قول التجار من شاكلة الشهادات المتقدمة، فعزله الامير عبد الرحمن الأوسط.

وكان يحيى بن معمر فيما شهدت به اخباره وحكته آثار فعله قليل المداراة للفقهاء في قرطبة لا يلين لهم فيما يريدون ولا يصغي اليهم فيما يحبون فنفروا باجمعهم عنه وصاروا كلهم البأ عليه وبلغ من تحامل يحيى بن معمر عليهم ان سجل بالسخطة على سبعة عشر رجلاً منهم فرموه كلهم عن قوس واحدة وقالوا فيه باجمعهم قول سوء.

---

١ ـ العَنَزَة هي العصا القصيرة. ووضع هذه العصا للامام في المصلى يراد به تحديد المكان الذي يقوم فيه كي يؤم المصلون ويدل هذا على ان المصليات كانت تخلو من المحاريب الثابتة.

ولما عزل يحيى بن معمر عن القضاء بعث اليه احد الوزراء وكان من اخص اخوانه ابناً له بزوامل واعوان وقال لابنه: «تذهب الى القاضي وتسأله ان يحمل على هذه الزوامل ثقلته وما احتاج اليه».

فلما اتاه ابن الوزير برسالة ابيه واحضر الزوامل قال له القاضي: «ادخل حتى ترى ما عندنا من الثقلة».

فدخل فاذا بيت القاضي ليس فيه الا حصير وخابية بدقيق وصحفة وقلة ماء وقدح وسرير كان يرقد عليه.

فقال له ابن الوزير: واين الثقلة؟ فقال: هذه ثقلتي اجمع.

ثم قال للغلام: فرّقْ الدقيق على من بالباب من الضعفاء وامض في بعض القومة يقصوا هذا الحصير والاواني.

ثم خرج وقال: «جزى الله الوزير اباك خيراً. تقرئه سلامي».

ثم توجه الى اشبيلية.

ولكن ما طال الامر ان تقلد القضاء مرة ثانية والسبب في ذلك انه خرج الامير عبد الرحمن بن الحَكَم في زمان الخريف على ما كانت الامراء تلزمه من التروح الى اشبيلية وساحل البحر. فنظر بعض خواص الامير الى يحيى بن معمر وهو في جنان له يستقي الماء بخطارة ويسقي بقل الجنان.

فلما رأى ذلك دخل ذلك الرجل الناظر الى يحيى بن معمر في تلك الحال، على الامير واعلمه بما رأى من يحيى بن مُعَمّر.

فقال الامير عند ذلك: والله ما اشك في فضل الرجل وروعه واني لاظن المتحاملين عليه متمالئين بالباطل.

وامر من ساعته تلك بتوجيهه الى قرطبة قاضياً.

فلما قدم يحيى بن معمر الى قرطبة قاضياً اقسم الا يستفتي يحيى بن يحيى ولا سعيد بن حسان ولا زونان. فبقيت الاحكام معلقة الى مقدم الامير عبد الرحمن من وجهته. وبلغ الخبر اليه فاوصى اليه بانكار ذلك فقال يحيى: قد اقسمت على ذلك. وبالبيرة «رجل من اهل العلم والتقدم يستغنى به عنهم». يعني عبد الملك بن حبيب.

فامر باستقدامه فكان المنفرد بفتياه.

ولما احتضر ابن معمر وهو ببلد اشبيلية وايقن بالموت قال لمولى له: «اقسمت عليك اذا انا مت الا ما ذهبت الى قرطبة فقف بيحيى بن يحيى وقل له: «وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون».

ففعل ذلك مولاه لما مات سيده. وبلغ يحيى ما تقرعه به فبكى وقال: «انا لله وانا اليه راجعون، ما اظن الرجل الا خدعْنا فيه».

ثم ترحم عليه واستغفر له.

ولما توفي يحيى بن معمر القاضي بقي الناس بلا قاض نحو ستة اشهر فجعل الناس يتصدون للوزراء اذا ركبوا يسألونهم ان ينهوا الى الامير عبد الرحمن ذلك ففعلوا فقال:

«والله ما يمنعني من التعجيل الا النظر لهم فاني لا اجد رجلاً ارضاه غير واحد وهو لا يجيبني». فقال له احد جلسائه: «فاذا ارضيته للقضاء واباه فالزمه ان يدلك على سواه».

فاحضر يحيى بن يحيى والزمه ان يشير عليه ان لم يجبه. فامتنع من الوجهين معاً: الولاية والدلالة. وقال: قد صدقت عن نفسي لمعرفتي بها ولن اتقلد الدلالة على غيري فانه ان جار شاركته في جوره.

فاغضب ذلك الامير عبد الرحمن ولح في ان لا يعفيه.

والزمه صاحب رسائل عذابه الى المسجد الجامع فاجلس مجلس الحكم وقال للخصوم: هذا قاضيكم. فلبث يحيى بن يحيى على تلك الحال ثلاثاً وهو لا يمد يده الى كتاب ولا يتكلم مع احد الى ان ضاق صدره فكتب الى الامير يشير بابراهيم بن العباس فقلده وكف عن يحيى.

ابراهيم بن العباس

كان ابراهيم بن العباس محموداً في قضائه متواضعاً في اموره غير متصنع ولا متهيب. كان يقضي في بيته بين الناس وخادمه تنسج في ناحية البيت، الا انه صار طوعاً ليحيى، فرفع رافع لعبد الرحمن: ان يحيى قد ملك الاندلس وقد مكنه الامير، والناس له طوع وهو عامل على اخذ البيعة لهذا القرشي القاضي وان يخلع الامير، ابقاه الله، فلينظر لنفسه

وشهد عنده يوماً يحيى بن يحيى في الماء الذي كان بفرن بوريل الذي قام

فيه بنو العباس وابن عيسى. فلما خرج تناوله الخصوم. فانصرف يحيى الى القاضي فقال: ان هذا تناولني فادبه فقال: «وما ادبه؟» قال: ابعث به الى السجن.

فبعث به القاضي الى السجن.

ثم خرج يحيى بن يحيى الى باب الصومعة فركب دابته ومضى نحو السويقة وانصرف فدخل على القاضي فقال له: «تأمر باطلاق الذي حبست ففي الذي كان منك ادبه.

وكانت ولايته الاولى هذه سنة خمس عشرة ومائتين. ثم عزل وولي غيره. وولي القضاء مرة اخرى سنة ثلاث وعشرين ومائتين.

وفي هذه الولاية الثانية رفع الى الامير عبد الرحمن ان القاضي ابراهيم بن العباس ليس يقبل من اهل قرطبة الا من اشار يحيى بن يحيى بقبوله. فبعث الامير عبد الرحمن في عبد الملك بن حبيب فقال له: «قد تعلم يدي عندك واني اريد ان اسألك عن شيء فاصدقني فيه.

فقال: «نعم، لا تسألني عن شيء الا صدقتك».

فقال: «انه رفع الي عن يحيى بن يحيى وعن القاضي انهما يعملان علينا في هذا الامر».

فقال عبد الملك: «قد علم الامير ما بيني وبين يحيى ولكني لا اقول الا الحق. ليس يجيء من عند يحيى بن يحيى الا ما يجيء مني وكل ما رفع اليه عليك باطل. واما القاضي فلا ينبغي للامير ان يشركه في عدله من يشركه في نسبه».

ففطن الامير وعزله حينئذ عن القضاء.

وقدم موسى بن حدير من الحج فعرض عليه الامير عبد الرحمن الأوسط ولاية الخزانة فابى من قبولها وذهب الى الانقباض عن الخدمة فعفاه الامير. فلم يلبث موسى بن حدير الا يسيراً حتى استعدت عليه امرأة من جيرانه عند القاضي ابراهيم بن العباس وذكرت انه طلبها في دارها تلاصقه. فارسل فيه ابراهيم بن العباس فاحضره فقال له: «ان هذه المرأة تقول كذا وكذا وتدعي عليك كذا وكذا فما تقول؟ فقال له موسى: اوكل من يخاصمها.

فقال له: «تقر او تنكر، ثم توكل بعد ذلك من شئت على الخصومة.

فقال له: «اوكل من يقر عني او ينكر»

فابى ابراهيم ان يقبل ذلك منه واضطره الى ان يجيب المرأة في دعواها مقراً او منكراً. فلما لم يجد من ذلك بداً قال له: «جميع ما تدعيه حق وهي المصدقة».

ثم انصرف عنه وقد اعتقد له ضغناً عظيماً واضمر له حقداً شديداً.

ثم كتب الى الامير يسأله ولاية الخزانة ويذكر انه تعقب امرها فاستسهله من اجل انها امانة، يعطي الاموال كما يأخذها.

فاسعفه الامير عبد الرحمن الاوسط بذلك وولاه الخزانة. فكان خازناً نحو الشهر. ثم كتب الى الامير يستأذنه للدخول عليه. فادخله على نفسه ثم قال له:

«امر لا قرار عليه، صح عندي ان القاضي ابراهيم بن العباس في مجلس قضائه يخاطب بان يقال له: يا ابن الخلائف.

فعزله عبد الرحمن خوفاً منه فان نسبه يرجع الى الوليد بن عبد الملك فهو ابراهيم بن العباس ابن عيسى بن عمر بن الوليد بن عبد الملك.

يُخامِر بن عثمان الشعباني

ولي القضاء سنة عشرين ومائتين وهو اخو معاذ بن عثمان. وكان من اهل جيان من قلعة الاشعث. كان انتسابهما الى جذام في العرب. وكانوا من جند قنسرين.

وولي يُخَامِر القضاء فعامل الناس بخلق صعب ومذهب دعر وصلابة جاوزت المقدار، فلم تحتمل العامة له ذلك فسلطت عليه الالسن وكثرت فيه المقالة وانبرى له الشاعر المعروف بالغزال فكان يهجوه ويصفه بالبله والجهل ومن بعض ما ذكره فيه قوله في شعر له:

«فقلت له كلفتني فوق صنعتي	كما قلدوا فصل القضاء يُخَامِرا
فاصبح قد حارت به طرق الهوى	يكابد لجيا من البحر زاخرا
فقلت: لو استعفيت منها فقال لي:	سافضح ما قد كان منك مغايرا
فقلت له: رأس الفضوح اقامة	علينا كذا من غير علم مكابرا
وخبطك في دين الاله على عمى	خباطة سكران تكلم سادرا

فلن تحمل الصخرَ الذُبابُ ولن ترى السـ لاحف يـزجـين السفـين المـواخــر

وله فيه ايضاً:

«لـقــد سـمـعـت عـجـيـبـاً مــن آبــدات «يُخَــامــرْ»[1]
قــرأ عــلـيـه غــلام «طــه» وســورة «غــافــر»
فـقــال: مــن قــال هــذا؟ هــذا لــعــمــري شــاعــر
اردت صــفــع قــفــاه فـخـفـت صـولـة جـائـر
أتـيـت يـومـا بـتـيس مـسـتـعـبـراً مـتـحـاسـر
فـقـلت: قـومـوا اذبـحـوه فـقـال: «اني يُخَـامِـر»

والقصة التي نوردها الآن جاءت عن لسان ولي العهد الحَكَم بن الناصر لدين الله، وقد جرى ذكر «يُخامِر» وما وصف من بلهه وغفلته قال:

القى عبدالله بن الشِّمر الشاعر يوماً بين سحاءات يخامر بن عثمان التي كان ينادي بها الخصوم للتقدم اليه، سحاءة مكتوباً عليها: «يونس بن متى»، «المسيح بن مريم». وخرجت السحاءة الى يده فامر ان يدعى له بها. فهتف الهاتف «يونس بن متى» «والمسيح بن مريم». واتصل الهاتف بخارج المجلس ولا مجيب الى ان صاح ابن الشمر: «ان نزولهما من اشراط الساعة.

ثم تناول سحاءة فكتب فيها:

«يخـامـر مـا تنفـك تـأتي بفضحـة دعـوت ابن متى والمسيح بن مـريمـا
فثـوب فينـا ثم نـاداك صـائـح فـانهما لمـا عـلى الارض يـعـلما
قفـاك قفـا جحشٍ ووجهـك مـظلم وعقلك مـا يسوى من البعـر درهما
فـلا عشت مودوداً ولا رحت سـالماً ولا مـت مفـقـوداً ولا مت مـسلما

وتألب الناس ورفعوا الى الامير عبد الرحمن يشكون «يُخَامِر» القاضي. فلما كثر ذلك على الامير عبد الرحمن امر الوزراء بسماع الشهادة والنظر في امر «يخامر». فذكرت عنه اشياء مدارها على قلة المداراة وترك حسن المعاملة.

فعزله عن القضاء.

فلما اتى الفتى الى «يخامر» بعزله من عند الامير قال له يخامر على رؤوس

---

١ ـ ابدات: جمع آبدة وهي الامر العجيب.

الناس: «قل للامير، اصلحه الله، اذ وليتني امرتني ان اتحفظ من «سلسلة السوء»، واليوم تعزلني ببغيها علي.

فلما بلغ الفتى قوله الى الامير عبد الرحمن قال: قبّحه الله، ذكر اسرارنا على رؤوس الناس.

وكان الامير عبد الرحمن قد ضاق بيحيى بن يحيى والفقهاء الضالعين معه في كل ما يشير به ولا يخالفون عن امره. فكان الامير عبد الرحمن يكره تألبهم ويقلق منهم ويسميهم «سلسلة السوء».

فلما ولى يخامر بن عثمان القضاء حفظه منهم وسماهم له هذا الاسم فتجنبهم «يخامر» واخذ حذْرَه منهم فلم يلبث ان تمالأوا عليه فافشوا ذمه وابدوا عيبه وكرهوه الى الناس واعملوا اقلامهم فيه الى الامير حتى امر بعزله.

فلما ان جاءه الرسول فضح سره بالقول الذي تقدم ذكره، فزاد في كُرْهه له.

وقال ابن عبد البر:

«القاضي يخامر بن عثمان، ولاه الامير عبد الرحمن الأوسط سنة عشرين ومائتين وكان فاضلاً عفًا غير انه كان فيه عنجهية وجفاء فانه نظر الى قدر الشيخ ابن يحيى عند اهل قرطبة وطواعيتهم له ضاق صدراً به، فكتب الى الامير عبد الرحمن: «اني قدمت الى قرطبة فوجدت لها اميرين: امير الاخيار وامير الاشرار، فاما امير الاخيار فيحيى بن يحيى، واما امير الاشرار فانت»».

فاستجفاه عبد الرحمن واعاد الى القضاء سعيد بن سليمان فلم يزل سعيد قاضياً من آخر سنة عشرين ومائتين الى آخر سنة سبع وعشرين فانه توفي فيها واستقضى الامير عبد الرحمن بن الحكم مكانه علي بن ابي بكر الكلابي.

علي بن ابي بكر الكلابي

هو من اهل «قبره» CABRA استقضاه الامير عبد الرحمن سنة سبع وعشرين ومائتين اشار به الشيخ يحيى بن يحيى، وقلما كان عبد الرحمن الأوسط يولي قاضياً الا عن مشورة يحيى بن يحيى ورضاه، اذ كان يشير بالقاضي منهم بعد القاضي، فاذا انكر على القاضي منهم شيئاً قال له: استعف من الامير والا رفعت في عزلك. وكان علي شريف النفس حسن السمت على اعتدال واستقامة، وكان لقبه «يوانش».

القاضي محمد بن زياد اللخمي

ولاه الامير عبد الرحمن الأوسط وكان من اهل الفضل والخير. لما احتضر يحيى بن يحيى اسند وصيته في اداء دين وبيع مال الى محمد بن زياد، وكان القاضي يومئذ فكان وصيه في ذلك الوقت.

كان محمد بن زياد يوماً يمشي مع محمد بن عيسى الاعشى حتى لقيا رجلاً يتمايد سكراً فامر القاضي محمد بن زياد باخذه ليقيم عليه الحد. فاخذه اعوانه. ثم مشى قليلاً فاتى الى موضع ضيق فتقدم القاضي وتأخر الاعشى، ففي تأخره عن القاضي التفت الى الذي كان يمسك السكران فقال يقول لك القاضي اطلقه. فاطلقه. ثم افترقا جميعاً ونزل القاضي ودعا بالسكران فقيل له: «امرنا عنك ابو عبدالله الفقيه ان نطلقه. فقال: وفعل؟ قال له: نعم. قال: احسن.

قال محمد بن زياد: وما اتى عن القضاة في هذا المعنى خاصة من الاغضاء عن السكارى والتغافل لهم والرقة عليهم فلا اعرف ذلك وجهاً من الوجوه يتسع لهم فيه القول ويقوم لهم به العذر الا وجهاً واحداً وهو ان حد السكر من بين الحدود كلها لم ينصه الكتاب المنزل ولا اتى فيه حديث ثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وانما ثبت ان النبي صلعم اتى برجل قد شرب فامر اصحابه ان يضربوه على معصيته فضرب بالنعال وباطراف الاردية. ومات النبي صلعم ولم يحد في ضرب السكران حدا يلحق سائر الحدود.

فلما نظر ابو بكر، رضي الله عنه، في ذلك بعد النبي صلعم واستشار اصحابه قال له علي بن ابي طالب رضي الله عنه: «من شرب سكر ومن سكر هذى ومن هذى افترى ومن افترى وجب عليه الحد، ارى ان يضرب الشارب ثمانين».

فقبل ذلك منه الصحابة.

فذكر اهل الحديث ان ابا بكر عند موته قال: «ما شيء في نفسي منه شيء غير حد الخمر فانه شيء لم يفعله رسول الله» صلعم وانما هو شيء رأيناه من بعده.

وكان السبب في عزلة محمد بن زياد عن القضاء ما كان من امر ابن اخي «عجب»، حظية الامير الحَكَم. وذلك انه شهد عليه بلفظ نطق به عابثاً في يوم غيث. فامر الامير عبد الرحمن بحبسه، وطلب الشهادات عليه.

وابرمته «عجب» عمته في اطلاقه. وكانت مدلة عليه لمكانها من ابيه فقال لها: «مهلاً يا اماه، فلا بد والله، من ان نكشف اهل العلم عما يجب عليه في لفظه ذلك الذي شهد به عليه، ثم يكون الفصل بعد في امره، فإنا، معشر بني مروان لا تأخذنا في الله لومة لائم، وما نرى ان الله رفع ملكنا وجمع بهذه الجزيرة فلنا واعلى فيها ذكرنا حتى صرنا شجى في حلق عدونا الا باقامة حدوده واعزاز دينه وجهاد عدوه مع مجانبة الاهواء المضلة والبدع المردية».

ثم تقدم الامير عبد الرحمن الى محمد بن السليم الحاجب ان يحضر القاضي محمد بن زياد والفقهاء بالبلد. فجمعهم، وفيهم عبد الملك بن حبيب، واصبغ بن خليل، وعبد الاعلى بن وهب، وابو زيد بن ابراهيم، وابان بن عيسى بن دينار. فشاورهم في امر ابن اخي «عجب» واخبرهم بما كان من لفظه.

توقف القاضي محمد بن زياد على القول بسفك دمه. وتبعه في ذلك من الفقهاء ابو زيد وعبد الاعلى وابان. وفتى بقتله عبد الملك بن حبيب واصبغ بن خليل معا..

فامرهم محمد بن السليم ان ينصوا فتواهم على وجوهها في صك ليرفعها الى الامير ليرى فيها رأيه. وفعلوا.

فلما تصفح الامير اقوالهم استحسن قول ابن حبيب واصبغ ورأى ما رأيا منْ قتله. وامر الفتى حساناً، فخرج اليهم، فقال لابن السليم: «قد فهم الامير ما افتى به القوم من امر هذا الفاسق. وهو يقول لك: «ايها القاضي، اذهب، فقد عزلناك.. واما انت يا عبد الاعلى، فقد كان يحيى بن يحيى يشهد عليك بالزندقة، ومن كانت هذه حاله فحريّ الا تسمع فتواه. واما انت يا ابن ابي عيسى فانا اردنا ان نوليك قضاء جيان فزعمت انك لا تحسن القضاء. فان كنت صادقاً فعليك ان تتعلم، وان كنت كاذباً فالكاذب لا يكون اميناً مفتياً.

ثم قال حسان لصاحب المدينة: «يأمرك الامير ان تخرج الآن مع هذين الشخصين: عبد الملك واصبغ، فتأمر لهما باربعين من الغلمان ينفذون لهما في هذا الفاسق ما رأياه.

ثم اخرج المحبوس ووقفا معاً حتى رفع فوق خشبة وهو يقول لعبد الملك: «يا ابا مروان، اتقوا الله، عز وجل في دمي فاني اشهد ان لا اله الا الله وان

محمداً رسول الله»، وعبد الملك يقول: «الآن وقد عصيت». حتى طعن. وانصرفا.

ولم ينقم على محمد بن زياد في ولايته شيء من الاشياء فيها ذكر اهل العلم غير دالة كانت تظهر من امرأته عليه على ما يفعله الازواج ببعولتهن والناس الى تقفي المعايب سراع. وكانت تلك المرأة تسمى «كفات» وقال بعض رواة الاخبار انه عند وفاة يحيى بن يحيى طلب ابنه الاكبر عبيدالله وهو يومئذ ابن سبع عشرة من القاضي محمد بن زياد ان يتقدم للصلاة على ابيه وتقدم اسحق بن يحيى ايضاً للصلاة عن ابيه. فكبَر محمد بن زياد وكبر اسحق حتى بلغوا الى السلام فسلم محمد بن زياد وسلم اسحق بن يحيى. هكذا كانت الصلاة على يحيى بن يحيى. فلما انقضت الصلاة نظر محمد بن زياد الى اسحق بن يحيى ثم قال له: «ومن اقدمك علي بهذا؟ فقال له اسحق: ومن قدمك انت على ابي؟ فقال له: حكم الصلاة عليه الى دونك.

ومع هذا فان اخاك قدمني وهو ارشد منك، اما والله لولا حفظ هذا الميت لفعلت بك وفعلت.

وقيل كان عبيدالله من اشد الناس اعظاماً لاخيه اسحق وكان يأخذ بركابه اذا اراد ان يركب.

الاسوار بن عُقْبة

كان من اهل جيان استقدمه عبد الرحمن الى قرطبة وولاه قضاء الجماعة بها. اشار به عليه يحيى بن يحيى عند عزل بن معمر. وكان من اهل التحري والتواضع وحسن السيرة واقتفاء السلف حتى انه كان يتصرف في مهنة اهله ويحمل خبزه الى الفرن بنفسه. وهو الذي ابتنى المسجد الذي يعرف بمسجد الاسوار في الزقاق الكبير بقرطبة.

وكان الفقيه محمد بن عيسى الاعشى كثير الدعابة لا يصبر عنها فكان يقول له: «قبل ان يلي القضاء: «كيف حالك يا عقبة ـ مفتوحة العين والقاف».

فلما ولي القضاء اتاه محمد بن عيسى فشهد عنده مع آخر من اهل القبول، وقال للمشهود له: «زدني بينة». وذلك بمحضر الاعشى فقال له:

اظنك، اكرمك الله، لم تقبل شهادتي. فقال له: «انت، اكرمك الله، جاد في شهادتك هذه او هازل؟ فاني اعرفك كثير الهزل فعرفني ان كنت صدعت بها عن حق فمثلك لا ترد شهادته وان كانت من اهزالك فقد وقفتها».

فقام عنه الاعشى منقطع الحجة. فكان يقول بعد ذلك: قاتل الله الاسوار فلقد قطع بي عن كثير مما كنت استريح به اليه من الدعابة بعد مجلسي معه.

وانشد:

وتحسب من حبه انه ... تراه عن الناس في غربة
وما ذاك منه فلا تامنو ... ه الا لتمكنه الوثبة
رأيت له ناظري هرة ... تراءى لها الفأر في ثقبه

معاذ بن عثمان الشعباني

ولاه الامير عبد الرحمن بن الحَكَم قضاء الجماعة بقرطبة وكان من اهل جيان قاضياً سبعة عشر شهراً ثم عزله من بعد.

وانما عزله لانه حفظت عليه في تلك المدة سبعون قضية قضى بها فاستكثرت منه ويحكى عنه انه كانت معه صحة وسلامة قلب فكان لا يظن باحد شراً. وكان قد ولي احباسه بقرطبة رجلاً ظن به خيراً فخالف ظنه فيه. فقال في ذلك الغزال:

يقول لي القاضي معاذ مشاوراً ... وولى امراء فيما يرى من ذوي الفضل
فديتك ماذا تحسب المرء صانعاً ... فقلت وماذا يصنع الدب بالنحل؟
يدق خلاياها ويأكل شهدها ... ويترك للذبان ما كان من فضل.

وكان معاذ قاضياً بقرطبة سنة اثنتين وثلاثين ومئتين. وفي هذا التاريخ كان على سوق قرطبة ابراهيم بن حسين بن خالد، وفيه فسخ معاذ بن عثمان حكم ابراهيم على بني قتيبة في الحوانيت التي هدمها عليهم ابراهيم. وكان ابراهيم بن حسين بن خالد صاحب نظر فخالف فقهاء زمانه وابانوا خطأه وجاز قولهم عليه.

سعيد بن سليمان الغافقي

كان اصله من مدينة غافق، ولي قضاء ماردة وغيرها قبل ولاية قضاء قرطبة ثم ولاه الامير عبد الرحمن الأوسط قضاء الجماعة بقرطبة فكان قاضيه حتى مات عبد الرحمن وكانت ولايته بعد سنة اربع وثلاثين ومائتين.

ولما اراد عبد الرحمن ان يوليه القضاء بقرطبة ارسل فيه رسولاً فرافقه وهو يقف على ازواج له تحرث بفحص البلوط في ضيعته فقال له الرسول: «تركب الى قرطبة فان الامير ذهب الى توليك القضاء».

قال له: دعني حتى ابلغ الى منزلي اتجهز بما احتاج اليه.

فابى الرسول ان يتركه وقال: «كن ها هنا معي وارسل الى منزلك في دابتك وما تحتاج اليه من الزاد». ففعل.

فلما قدم قرطبة ولاه الامير القضاء فجلس للحكم في المسجد وعليه جبة صوف وفي رأسه «اقروف» ابيض وغفارة بيضاء من ذلك الجنس.

فلما نظر الخصوم اليه احتقروه فجاؤوا في مغيبه عن المسجد بقفة مملوءة من قشر البلوط فوضعوها تحت الحصير الذي كان يصلي عليه.

فلما اتى القاضي بعد ذلك وقام على الحصير احس تحته شيئاً يتكسر. فلما فرغ من الصلاة اخذ يرفع الحصير فنظر الى قشر البلوط فقيل له «ان بعض الخصوم فعلوا ذلك».

وصح عنده ما قيل له فيهم.

فلما اتوه من بعد ذلك قال لهم: «يا معشر الخصوم عيرتموني باني بلوطي، اشهد على نفسي اني بلوطي»

ثم حلف لهم ان لا يخاصموا عنده سنة فكاد ان يورثهم الفقر.

ودخل عليه يوماً وكيله فالفى بين يديه رجلاً وزوجته. فقال لمن حوله: «هذا مقيتي ومقيت عيالي بحول الله».

ثم سأل الوكيل عن رفعه[1] في ذلك العام. فقال له: «رفع القاضي بسبعة امداد من شعير وثلاثة امداد من قمح. فحمد الله واثنى عليه.

---

١ ـ رفع الزرع: حمله بعد الحصاد الى البيدر.

ثم عاد الى التكلم بين الرجل وزوجته. فقال الرجل: «يا قاضي تأمرها بالنهوض معي الى منزلي». فلصقت بالارض المرأة وتأبت ان تمشي معه في الارض شبراً، ثم قالت للقاضي: «بالله الذي لا اله الا هو لئن صرفتني اليه لاقتلن نفسي وتكون المسؤول عن دمي».

فلما سمع القاضي كلام المرأة عطف على رجل الى جنبه كان فقيهاً فقال له: «ما ترى»؟

فقال: «ان كان القاضي، وفقه الله، لم يظهر له ان هذا الرجل يضر بزوجته فليجبرها على السير معه احبت او كرهت، الا ان يشاء الرجل ان يفارقها بفدية او غيرها. فان ابى الا الفدية فذلك حلال له ويخلعها ولو من قرطها ان لم يكن له منها ضر اليها.

فقال الزوج: والله ما لها مال:

قال له: «فلو ذهبت الى الافتداء منك اكنت تفارقها؟

فقال له الرجل: «كنت اسمح».

والتفت القاضي الى وكيله فقال له: «هل جلبت من الطعام في جيئتك هذه شيئاً؟

فقال له: بلى. جلبت مداً من القمح ومدين من الشعير.

فصار القاضي يقلب اصابعه ثم قال: «قوت تسعة اشهر كثير».

ثم قال لزوج المرأة: خذ ما بقي من رفعي في ضيعتي وارحها من نفسك وارح نفسك منها».

فقال الزوج: «كنت افعل لو كان الطعام بقرطبة».

فقال له القاضي: «احسبك مغتماً».

ثم وضع يده في الارض وقام ودخل الدار واخرج شقة بيضاء من صوف فدفعها اليه وقال للزوج: «هذه شقة عملتها في بيتي لشتوتي وانا ان شاء الله غني عنها فخذها واستعن بثمنها في جلب الطعام الى نفسك».

فاخذها وبرّأ زوجته.

ومما يروى عنه انه ذات يوم قضى في المسجد الى ان مضى صدر النهار ثم قام منصرفاً الى داره فلما هم بدخول الدار فاذا بوالد «نصر» الفتى مقبلاً واعوانه بين يديه. فصاح على البعد بالعجمية لانه كان اعجمي اللسان: «كلموا

القاضي، يثبت علي، اكلمه».

فقال القاضي: «قولوا له بالعجمية: ان القاضي قد ادركته الملالة والسأم من طول الجلوس للقضاء. فاذا جلس العشي في المسجد للنظر بين الناس تعود اليه لينظر في حاجتك ان شاء الله.

ثم دخل القاضي داره ولم يقف عليه.

وقال ابن احمد العتبي: «صلى بنا سعيد بن سليمان القاضي صلاة الجمعة في المسجد الجامع بقرطبة ثم خرجنا معه نمشي ولم يركب ومشينا معه حتى بلغ الى الفرن الذي كان يطبخ فيه خبزه. فقال للفران: «خبزتي مطبوخة»؟ فقال له: نعم. فقال له: هاتها. فناولها له فاخذها فجعلها تحت عضده واقبلنا نمشي حتى بلغنا الدار فدخل وانصرفنا.

وذكر بعض اهل العلم قال: كان سعيد بن سليمان القاضي يحكم في المسجد الجامع ويأتي اليه ماشياً وانه كان يوماً من الايام مقبلاً ضحى.

فلما اتى باب اليهود التقى بسعيد بن حسان الفقيه، وكان سعيد بن حسان منقبضاً عنه فقال له القاضي: ابا عثمان، ما لك تنقبض عني فلا تأتين، فوالله ما اريد الا الحق ولا اقصد غيره. فقال له سعيد بن حسان: «والله لو اعلم هذا ما قعدت عنك ولتحملت هذه الخريطة بين يديك».

ثم عاد سعيد الى اتيانه.

ولبث سعيد بن سليمان قاضياً الى ان مات الامير عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين. ولما دخل القاضي سعيد بن سليمان على الامير محمد الذي خلف والده عبد الرحمن دنا منه وقال له محمد الامير: «ايها القاضي امض على نظرك».

فتمادى قاضياً في اول ايام الامير محمد نحو عامين ثم مات غير معزول.

وكان سعيد بن سليمان يخطب بخطبة واحدة لصلاة الجمعة طول مدته لم يبدلها. ولقد برز الناس للاستسقاء في بعض ايامه فلما ابتدأ خنقته العبرة واشكلت عليه الخطبة فاختصرها وكثر من الاستغفار والضراعة ثم صلى وانصرف فسقي الناس ليومهم.

الفصل الثامن

اصحاب شرطة الامير عبد الرحمن الأوسط

يفيدنا ابن حيان عن ثلاثة اشخاص من اصحاب الشرطة. كان احدهم يتولى هذه الخطة قبل ذلك في اواخر ايام الامير الحَكَم بن هشام الذي ولي الامارة في اواخر القرن الثاني الهجري كما رأينا. والسنوات الاولى من القرن الثالث. ويقول الدكتور محمود مكي في تعليقه على «المقتبس» لابن حيان:

«انه على الرغم من تعدد الاشارات الى المراجع التاريخية الاندلسية التي بين ايدينا وفي معاجم التراجم الى من ولوا الشرطة في ظل امراء بني امية وخلفائهم فاننا لا نعرف الا القليل عن حدود هذه الخطة واختصاصاتها. صحيح ان بعض المؤرخين المتأخرين واهمهم ابن سعيد وابن خلدون قد افردوا خطة الشرطة بالكلام مع اشارات محدودة واضحة الى عملها وحدوده وواجباته في الاندلس تحت حكم بني امية. ولكن هذه المصادر ينبغي ان تستخدم بحذر واحتراس، فابن سعيد وابن خلدون وان كانا من اهل المعرفة الواسعة والتحقيق فيما يتصل بتاريخ الاندلس، لا يخرجان عن كونهما متأخرين بَعُد بهما العهد عن دولة بني امية ولا يؤمن من ذلك ان يعتسفا الحكم او يشوب حديثهما نظر الى واقع احوال تلك النظم في عصريهما بعد ان اصابها تطور كبير على طول قرون عديدة من تعاقب العصور وتقلب الدول.

ويبدو ان خطة الشرطة كانت معروفة في الاندلس قبل عبد الرحمن الأوسط. ولكن الى هذا الامير يرجع الفضل في ادخال تعديلات جديدة مهمة على هذا النظام، فهو الذي على قول ابن سعيد ميز ولاية السوق من احكام الشرطة المسماة بولاية المدينة فافردها وصير لوليها ثلاثين ديناراً في الشهر ولوالي المدينة مائة دينار غير انه، اي ابن سعيد لا يبين لنا مدى العلاقة بين صاحب المدينة ووالي المدينة مع صاحب الشرطة، اذ انهما كانتا خطتين متميزتين وان

كانت اعمالهما متداخلة فهي متصلة بالمحافظة على الامن غير ان المراجع لم تفدنا في التعرف على تحديد اختصاص كل منهما وواجباته. وكل ما يبدو لنا ان صاحب المدينة اعلى مكانة من صاحب الشرطة واوسع اختصاصاً.

ويقول المقري نقلاً عن ابن سعيد: «واما خطة الشرطة بالاندلس فانها مضبوطة الى الآن معروفة بهذه السمة ويعرف صاحبها في السن العامة «بصاحب المدينة» وصاحب الليل. واذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه القتل دون استئذان السلطان، وذلك قليل، ولا يكون الا في حضرة السلطان الاعظم. وهو الذي يحد على الزنا وشرب الخمر وكثير من الامور الشرعية راجع اليها، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضي.

وكانت خطة القاضي اوقر وانقى عندهم من ذلك.

ومرة اخرى نجد هنا الخلط وعدم التحديد بين خطتي الشرطة والمدينة، كما اننا لا نعرف بدقة مدى صلة خطة الشرطة بالقضاء.

على ان المشكلة في التعرف على حقيقة خطة الشرطة لا تنتهي عند هذا الحد بل ان لدينا ذلك التجديد الذي ادخله عليها عبد الرحمن الأوسط نفسه اذ هو الذي فرع السلطة الى نوعين: الشرطة العليا والشرطة الصغرى.

اما الفرق بين الشرطتين فان لابن خلدون نصاً صريحاً حول هذه الناحية يقول فيه: «... ثم عظمت نباهة خطة الشرطة في دولة بني امية بالاندلس ونوعت الى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة وجعل له الحكم على اهل المراتب السلطانية والضرب على ايديهم في الظلامات وعلى ايدي اقاربهم ومن اليهم من اهل الجاه. وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة. ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان والرجال يتبوءون المقاعد بين يديه فلا يبرحون منها الا في تصريفه. وكانت ولايتها للاكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحاً للحجابة والوزارة.

غير ان هناك خطة اخرى ظهرت على وجه التحديد سنة ٣١٧/٩٢٩، تلك هي خطة الشرطة الوسطى وهي خطة افادتنا المراجع الاندلسية باسماء بعض من تولوها ومن بينهم الحاجب المشهور محمد بن ابي عامر في مبدأ ظهور امره وبزوغ نجمه على ايام الخليفة الحَكَم الثاني المستنصر وقبل ان يترقى في المناصب حتى يصل الى الحجر على الخليفة والاستئثار بالسلطة كلها. وقد حاول «ليفي بروفنسال» استكناه حقيقتها فقال: ان ما يظهر له هو ان ضخامة الدولة

واتساع العمران في قرطبة وازدياد عدد السكان في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، كل ذلك ادى الى تطور طبقة جديدة اشبه ما يسمى اليوم بالطبقة الوسطى او البورجوازية وتقف بين الخاصة او الارستقراطية والعامة او الدهماء. وكانت هذه الطبقة تتألف من الأعيان والتجار وصغار الموظفين والمتقلدين لبعض الخطط الادارية والقضائية الصغرى.

ويقول الدكتور مكي ايضاً: «والذي يبدو لنا بعد استقراء ما ورد عن الشرطة بفروعها الثلاثة وسير من تولاها خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري هو ان الخطط قد تحولت الى حد ما الى القاب تشريفية فاصبحت تدل على التنويه اكثر مما تدل على واجبات وظيفة بعينها. اي انها اصبحت تسند الى شخصية من كبار الرجالات في الدولة تنويهاً به وتعبيراً عن ترقيته ورفع مكانته. ويكون لهذه الشخصية الاشراف الاعلى عليها ولكنه لا يباشر واجباتها بنفسه بل ينتدب لها من يرضاه. مثلاً نأخذه عن ابن حيان عندما يتكلم عن صاحب الشرطة العليا: هشام بن محمد بن عثمان المصحفي على عهد الخليفة الحَكَم الثاني، فهو في الوقت ذاته قائد طرطوشة وكورة بلنسية، وفي موضع آخر نرى صاحباً للشرطة العليا يخاطب بتقديمه من قيادة مدينة لاردة الى مدينة سرقسطة وتطيلة واعمالها ووظيفته الحقيقية هي قيادة الجيوش بحيان او قيادة الاساطيل.

اما الشرطة الوسطى فنعرف عن اشهر من تولاها وهو المنصور بن ابي عامر انه قدم الى هذه الخطة مضافة الى ما كان بيده من خطة المواريث والقضاء باشبيلية ووكالة ولي العهد الامير هشام الثاني والسكة. فكيف كان ابن ابي عامر يجمع بين كل تلك الوظائف في وقت واحد؟

ليس هذا غريباً فانه في ايامنا نجد شخصاً واحداً يشغل عدة وزارات في الوقت ذاته.

وينتهي الدكتور مكي الى القول: «كل هذا يدل على ان كثيراً من تلك الخطط سواء فيها القضاء او الشرطة بانواعها قد تحولت الى مجرد القاب ووظائف فخرية كما نقول الآن. حتى بعض الخطط الصغرى مثل خطة «العرض» لحقها مثل ذلك. فابن حيان يذكر ان الخليفة اراد الانعام على الاديب الشاعر محمد بن حسين الطبني الذي قفل من المغرب مع القائد غالب، فولاه خطة العرض، ولا نظن ان الطبني كان يباشر هذه الوظيفة فعلاً. ولكن هذه التولية كما ينص المؤلف نفسه كانت من قبيل التكريم.

وقد كانت الشرطة العليا اعلى مكاناً بطبيعة الحال من الشرطة الوسطى في نسق هذه الالقاب. كل ذلك يدعونا الى ان نعيد النظر في الاحكام التي قالها الباحثون المحدثون عن خطة الشرطة في تلك الفترة (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) على ضوء ما ذكرناه من انها كانت وظائف تنويه وتشريف اشبه بالالقاب منها بالاعمال.

الفى الامير عبد الرحمن الأوسط على الشرطة لابيه الحَكَم الاول محمد بن كليب بن ثعلبة فامضاه عليها ثم رقاه الى الوزارة.

يقول ابن حزم في جمهرة الانساب ان عبدالله بن كليب بن ثعلبة بن عبيد الجذامي هو من اسرة ذات رياسة ونباهة منذ فجر الاسلام في الاندلس. وجده ثعلبة بن عبيد كان من وجوه اهل فلسطين اي ساكني شذونة والجزيرة الخضراء وان لم يكن من كبار قوادهم. وكان له دور بارز في تأييد عبد الرحمن الداخل، وارتفعت مكانته لديه، اذ عهد اليه بمهام عسكرية كبرى مثل محاصرة سرقسطة عند ثورة سليمان بن يقظان الاعرابي والحسين بن يحيى الانصاري بها سنة ١٦٤/٧٨١، وتوفي على ما يظهر في ايام هشام بن عبد الرحمن..

واشتهر بعد ذلك من افراد هذه الاسرة عبدالله بن كليب بن ثعلبة المذكور واخوه عامر ومحمد وعبد الملك وعبد الرحمن. وتولى الاولون القيادة لعبد الرحمن الاوسط فاستعمل عبدالله بن كليب على سرقسطة وعامر على تطيلة في سنة ٢٢٦/٨٤١. وكانت عداوتها لبيت موسى بن موسى القسوي سبباً في انقباض هذا عن الطاعة وعزل الامير اياه.

وفي سنة ٢٢٧/٨٤٢ عزل عبدالله بن كليب من سرقسطة ويبدو انه انتقل الى تطيلة بعد ذلك. وفي سنة ٢٣٠/٨٤٥ كان عبدالله بين القواد الذين عهد اليهم بقتال المجوس حينما حلوا باشبيلية.

اما الاخ الثالث محمد بن كليب فان ابن حيان يذكره في عداد وزراء عبد الرحمن بن الحكم قائلاً انه كان على الشرطة قبل تولية الوزارة بل انه ولي الخطة من قبل عهد الامير الحكم الاول وقد توفي في سرقسطة سنة ٢٢٠ او ٢٢٦، ولم يشر الى الاخ الرابع عبد الملك بن كليب الا ابن عبد المنعم الحميري الذي ذكر في الروض المعطار انه هو الذي اضطلع ببناء قصر ماردة. وكان من افراد هذا البيت المشهور عامر بن عامر بن كليب بن ثعلبة الشاعر صاحب الوزير هشام بن عبد العزيز المتوفي سنة ٢٧٥.

سعيد بن عياض القيسي:

لعله ابو عثمان سعيد بن عياض الطُلَيْطُلي الذي ترجم له ابن الفرضي وقال عنه انه رحل الى المشرق فسمع بافريقية من قاضي القيروان ابن سعيد المعروف بسحنون وكان من اهل المسائل والفتيا.

حارث بن ابي سعد:

كان على الشرطة والرد كما يقول ابن حيان. وخطة الرد من الخطط القضائية التي تميز بها الاندلس. والرد كان من بين الخطط الست التي تخول لتقليدها سلطة انفاذ الاقضية وهي: القضاء والشرطة والمظالم والرد والمدينة والسوق. ويعلل ابن سهل تسمية هذه الخطة فيقول: «وانما كان صاحب الرد يحكم فيما استرابه القضاة وردوه عن انفسهم. ولكن الذي لا نعرفه على وجه التحقيق هو ما اذا كان لصاحب الرد سلطة الفصل في تلك القضايا التي يستريبها القاضي ويردها على نفسه ام ان هناك سلطة اخرى هي التي لها سلطة الحكم النهائي. والمؤكد، على كل حال هو ان «صاحب الرد» كان ادنى منزلة من قاضي الجماعة يدل على ذلك مجلسه في الاحتفالات والمناسبات الرسمية، اذ كان يأتي في الترتيب بعض قاضي الجماعة مع «الحكام» واهم اصحاب الشرطة وصاحب السوق. وكان يسند الى صاحب الرد ايضاً في بعض الاحيان الخروج الى الكور لمطالعة رعايا السلطان والكشف عن سير اعمالها والتحقيق في شكاياتهم من العمال.

تولى حارث بن ابي سعد للشرطة الصغرى، ولعله اول من تولى هذا المنصب، ويدلنا ذلك على ان الشرطة قد تفرعت في ايام عبد الرحمن الأوسط الى كبرى وصغرى، كما بدا لنا من نص لابن حيان مر في هذه القطعة من المقتبس[1].

وقد تولى حارث بن ابي سعد خط الرد مجموعة له مع الشرطة الصغرى. وهذه خطة جديدة ظهرت في ايام الامير عبد الرحمن الأوسط.

---

١ ـ «المقتبس من انباء اهل الاندلس» لابن حيان القرطبي. حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمود علي مكي، القاهرة ١٩٧١ ص ٢٣١.

حجاب الأمير عبد الرحمن

يقول ابن خلدون في مقدمته ص ٢٠٨ طبعة بيروت ١٨٧٩ : . . . . واما دولة بني امية بالأندلس فانفوا اسم الوزير في مدلوله اول الدولة ثم قسموا خطته اصنافاً وافردوا لكل صنف وزيراً فجعلوا لحسبان المال وزيراً وللترسيل وزيراً وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر في احوال اهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون امر السلطان هناك كل فيما جعل له، وافرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب.

الحجابة اذن في الدولة الأموية بالاندلس كانت لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت في دولتهم رفيعة غاية.

عبد الكريم بن عبد الواحد:

الفى الأمير عبد الرحمن على حجابة والده الحَكَم، عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث اكمل من حمل هذا الاسم فاقره عليها الى ان توفي عبدالكريم حميداً فقيرا.

وعبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الرومي. جده هذا الداخل الى الأندلس مع طارق بن زياد، وهو مغيث بن الحارث بن حويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني الذي يدعى «مغيث الرومي» وهو الذي اطلع بفتح قرطبة كما جاء في كتابي «بلاي الرومي».

أما عبد الواحد بن مغيث فقد كان حاجباً لعبد الرحمن بن معاوية الداخل ثم لهشام ابيه. وكانت وفاته في ايام الحكم الربضي في سنة ٨١٤/٢٩٩. وقد اعقب ثلاثة ابناء كان لهم مكانة عظيمة في ايام هشام بن عبد الرحمن وابنه الحَكَم وهم عبد الملك وعبد الكريم وعبد الحميد. اما الأولان فقد توليا القيادة في ايام هذين الأميرين، وولى الأمير هشام عبد الكريم على كورة جيان ثم اغزاه في سنة ٧٩٤/١٧٨ الى «البة والقلاع». كما وجه اخاه عبد الملك الى افرنجة فانتهيا الى ارض العدو واثخنا واصابا غنائم كثيرة.

وفي سنة ٧٩٤ قاد عبد الكريم حملة على اشتورش فوصل الى «استورقة» وافتتحها. ولما ولي الحَكَم بن هشام الامارة وجه عبد الكريم الى سرقسطة عند زيارة بهلول بن مرزوق بها فاوقع به.

وفي سنة ٩١٢/١٩٦ استطاع ان يستنزل عمروس بن يوسف الثائر بالثغر الأعلى ويقدم به على قرطبة. وعهد اليه الحكم حينئذ بولاية سرقسطة وتطيلة ووشقة.

وفي سنة ٨١٦/٢٠٠ غزا الى بلاد «البة» ALAVA والبشكنس فاوقع هزيمة ساحقة بجيوش ادفونش (الفونسه الثاني) ملك اشتورش. وكان له بعد ذلك مقام محمود في اخماد ثورة الربض سنة ٨١٨/٢٠٢، وهو الذي توسط في الاستسلام وعقد الأمان لهم.

وفي سنة ٨٣٢/٢٠٨ عاد الى قيادة الحملة التي توجهت الى البة والقلاع ووصلت الى «جرنيق» GUERNICA.

واخيراً توفي سنة ٨٢٤/٢٠٩ بعد ان تقلب في اعلى مناصب الدولة اذ ولي القيادة والكتابة والوزارة فضلاً عن الحجابة وهي بمثابة رئاسة للوزراء، معظم ايام الحكم الربضي وثلاث سنوات من امارة عبد الرحمن الأوسط. ويسميه «ليفي بروفنسال» بحق اعظم رجال دولة الحكم على الاطلاق. والواقع انه جمع خصالاً قل ان تتوافر كلها في رجل واحد من رجال الدولة، فهو عسكري ممتاز وسياسي محنك وكاتب واديب وعالم. وكان على حد قول الرازي: «اكمل من ولي الحجابة لبني مروان».

سفيان بن عبد ربه

سفيان بن عبد ربه المصمودي من مصمودة احدى قبائل البربر. ذكر ابن القوطية الظروف التي احاطت بولايته الحجابة فقال: «انه لما توفي عبد الكريم بن مغيث في صدر امارة عبد الرحمن الأوسط سنة ٨٢٤/٢٠٩ تنافس الوزراء كلهم على خطة الحجابة. فاخذت الأمير ضجرة اقسم معها الا يولي واحداً منهم. ثم امر بالاقراع بين الخزان[1] فخرجت القرعة الى سفيان فولاه الحجابة.

١ ـ الخزان: جمع خازن وهو المتولي الشؤون المالية في الدولة.

ويزيدنا ابن القوطية بعد ذلك تعريفاً به فيقول: انه كان من البربر ولم يكن من اسرة عريقة في مناصب الخدمة. وكان له بالأمير عبد الرحمن اتصال وهو ولد اي قبل تولي الامارة. وظل سفيان على الحجابة حتى وفاته سنة ٨٢٦/٢١١ على ما يذكر ابن حيان في الوفيات. ويقول ابن حزم ان نسل سفيان بن عبد ربه قد باد وانقرض فلم يعد منهم بقية.

وكان من اكابر رجال اهل الخدمة الكفاة المستقلين باعبائها ممن جمع الى الغناء والكفاية والعفة والأمانة. وقد تولى خدمة الخزانة الكبرى ومتقلدها يدعى الخازن وهي خطة من اهم خطط الدولة. وقد ظهرت هذه الخطة في ايام الحَكَم بن هشام في اواخر القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي. ثم اخذت قواعدها تستقر ومعالمها تتحدد في ايام عبد الرحمن الأوسط. وكانت وظيفة الخازن اشبه ما تكون بالعمل الذي يتولاه الآن وزير المالية او الخزانة. ولم يكن يعهد بهذا المنصب الى فرد واحد بل في كثير من الأحيان الى مجموعة من الرجال يرأسهم الخازن الأكبر.

وسفيان بن عبد ربه اول من استخزن بالأندلس وشركه في ذلك «مرتيل» المعروف بابن عفان، جد هؤلاء الباقين اليوم الى جانب باب القصر الأكبر المدعو «باب السدة». وباب السدة هذا هو الباب الرئيسي لقصر الخلافة بقرطبة المطل على ضفة وادي الكبير وعلى القنطرة. وقد كان القصر مواجهاً للمسجد الجامع بقرطبة وكان له خمسة ابواب اعظمها واهمها باب السدة المذكور الذي كان يواجه الرصيف، اي الطريق المرصوف الذي يحاذي ضفة النهر. ومنه كان يدخل ضيوف السلطان وزواره. ومن هنا كانت دعوته باسم باب السدة. وكان امام هذا الباب سارية عارية جرت العادة بان تعرض فوقها اهم الغنائم التي كان امراء قرطبة وخلفاؤها يحوزونها في حملاتهم العسكرية. كما اصبح من المعتاد ان تعلق فوقها رؤوس من يظفرون بهم من الأعداء سواء كانوا من زعماء الممالك المسيحية في دار الحرب او الثائرين المسلمين الخطرين على سلامة الدولة اما الأبواب الأربعة الباقية فهي باب الجامع المفضي الى المسجد الجامع الذي تفصله عن القصر المحجة العظمى وهي التي تمتد بعد ذلك الى القنطرة. ثم باب «الجنان» «باب الوادي» الواقع في نفس الجانب الذي جعل فيه باب السدة. واخيراً الباب الشمالي وهو المعروف باسم «باب قورية».

وقد شاع في الأندلس بعد ذلك استخدام اصطلاح «باب السدة» واطلاقه

على الأبواب الرئيسية الكبرى للقصور قياساً على باب السدة في قصر الخلافة بقرطبة.

فسفيان بن عبد ربه كما قلنا، تنقل في مراتب الخدمة حتى نال الحجابة. ومن ولده الأديب ابو الأسود، وكان ذا وجاهة عند الناس يجيد الحديث في المجالس ويؤنس الجليس.

عيسى بن شُهَيْد:

اسرة بني شُهَيْد من اكبر الأسر الأندلسية واثراها واشهرها في عصر الخلافة والامارة، وقد تصرف افرادها لخلفاء بني امية في الخطط الكبرى من القيادة والكتابة والوزارة والحجابة الى انقراض الدولة المروانية. وتنتهي هذه الأسرة الى شهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح وقد نسبهم ابن الابار في «الحلة» الى قبيلة اشجع بن ريث بن غطفان، اي انه جعل لهم نسباً عربياً خالصا. ولكن غيره من المؤرخين مثل الرازي وابن حيان يذكرون ان جدهم كان مولى لمعاوية بن مروان بن الحكم. ولعل هذا هو الصواب. فابن حزم لم يشر اليهم بشيء في حديثه عمن استقر بالأندلس من قبيلة اشجع.

ويقول المقري: «ان شهيد بن عيسى كان من بني البربر وقيل انه رومي. وكان الوضاح مع الضحاك بن قيس في وقعة مرج راهط. اما شهيد بن عيسى فقد دخل الأندلس في ايام عبد الرحمن بن معاوية الداخل وكان وثيق الصلة بالأمير الأموي الى حد نرى معه عبد الرحمن يستخلفه على قصره حينما يعزم على الخروج لاخماد ثورة عبد الغفار اليحصبي في سنة ٧٧١/١٥٤ ثم اسند عبد الرحمن الداخل الى شهيد بعض المهام العسكرية الكبرى فابلى فيها البلاء الحسن كان منها خروجه لقتال وجيه الغساني الذي ظاهر شَقْيا بن عبد الواحد الداعي الفاطمي على ثورته بين سنتي ١٥٠ - ١٦٠ (٧٦٧ - ٧٧٧) (كتابي عبد الرحمن الداخل) =. وولي القيادة كذلك في ايام الأمير هشام بن عبد الرحمن فقد اسند اليه هذا الأمير اخضاع «تدمير» التي كان سليمان بن عبد الرحمن الداخل اخو الأمير قد اشعل فيها نار الثورة، فانجز المهمة بنجاح.

وأما الحاجب عيسى المذكور هنا فان ترجمة ابن حيّان له والأخبار التي يوردها تعتبر اول ما كتب عنه ونحن نعرف فضلاً عن ذلك انه وكل اليه بعض مناصب القيادة اثناء غزو المجوس لاشبيلية سنة ٨٤٥/٢٣٠، كذلك نعرف انه ولي الكتابة والحجابة لعبد الرحمن الأوسط وسنوات من امارة خليفته محمد.

ويقول ابن حيان: «كان عيسى منقطعاً الى الأمير عبد الرحمن بعهد والده الأمير الحَكَم مومِلاً له. فلما افضى الأمر اليه ازلفه به وقدمه في علية خاصته وصرفه في علي مراتبها فولاه خطة الخيل[1] ثم استوزره وولاه النظر في المظالم[2] وتنفيذ الأحكام على طبقات اهل المملكة. ثم استحجبه مكان سفيان بن عبد ربه واستخصه دون اصحابه. وكان اهلاً لايثاره اذ كان من اعيان رجال الموالي في الدولة وهم متوافرون ومن اشهرهم بالحلم والوقار والحصافة والعلم والمعرفة والحزم والجزالة. وقد قاد بالصوائف فاحمدت سياسته. وكانت له في التدبير آراء صائبة وفي الحروب مقاوم كريمة وتهيأت له على العدو وقائع مثخنة.

وكان نصر الخصي صنيعة الأمير عبد الرحمن، الغالب عليه من بين سائر اكابر خدمه، المظاهر لحظيته «طروب»، الغالية عليه ما بين نسائه، قد اشتمل على قصر الأمير عبد الرحمن ومن فيه وشرك في تدبير سلطانه وهو شاحن لحاجبه عيسى عامل في اقصائه. فتسنى له ذلك عندما اعتل الأمير علته الطويلة التي حجبه فيها نصر وانفذ عليه اموراً منكرة، منها صرفه لعيسى هذا عن الحجابة،

---

١ ـ خطة الخيل ومتوليها يدعى «صاحب الخيل». تعني وظيفته الاشراف على شؤون الخيل وكل ما يتصل بلوازمها وادواتها في التنظيم العسكري للجيش في ظل الدولة الأموية وقد كانت من ارفع الخطط في الدولة، وكثيراً ما كان يتولاها قواد كبار يعهد اليهم بقيادة الصوائف. وقد افادنا ابن حيان في غير موضع من كتاب «المقتبس» بتفاصيل شائقة عن هذه الخطة، نفهم مما اورده في بعض هذه المواضع ان «صاحب الخيل» كان ممن يعهد اليهم بترتيب الكتائب وتنظيم العساكر وانه كثيراً ما كان يضطلع بقيادة الحملات العسكرية في دار الحرب، وان مكانته في الدولة كانت تلي مكانة «صاحب المدينة»، وهو بمثابة الحاكم العام للعاصمة، وتحته كان اصحاب الشرطة العليا والوسطى واصحاب المخزون. وكان مقر عمل صاحب هذه الخطة يعرف باسم «دار الخيل» وفيها متصرفون يعملون تحت رئاسة المضطلع بها، يعرفون باسم «الوكلاء».

٢ ـ خطة النظر في المظالم او احكام المظالم من الخطط القضائية التي كان لها في الأندلس وضع خاص ليس مماثلاً تماماً لما جرى به العمل في المشرق. واذا كانت هذه الخطة قد ظهرت في عصر مبكر في دولة بني امية بالأندلس فان معالمها لا تتضح وواجباتها لا تتحدد الا في القرن الرابع الهجري في ظل الخلافة المروانية. ويبدو من استقراء النصوص حولها ان صاحبها كان في مرتبة ادنى من مرتبة «قاضي الجماعة»، الذي يقال «قاضي القضاة» في المشرق. وانه رغم ذلك كان ينظر في القضايا العاجلة لا تحتمل بطء الاجراءات القضائية العادية وتعقيدها.

وتصور لنا حدود هذه الوظيفة قصة يرويها ابن عذارى، يذكر فيها ان رجلاً من العامة وقف عليه بمجلسه فاستصرخه على احد الفتيان الصقالبة الذين كانوا يقفون على رأسه فقال: «انه ظلمه في معاملة كانت بينهما وانه دعاه الى القاضي فلم يأت «وكان القاضي هو عبد الرحمن بن فطيس) فغضب المنصور بن ابي عامر ولام القاضي على تهاونه. ثم امر فتاه بان ينزل ويساوي خصمه الشاكي في المقام. وامر صاحب شرطته بان يحمل الرجلين الى «صاحب المظالم» حتى ينظر في القضية وينفذ فيها حكمه.

وكثيراً ما كان النظر في المظالم يضم الى اختصاص قاضي الجماعة كما نستخلص من بعض تراجم القضاة. (راجع القصة المذكورة اعلاه في كتابي صبح البشكنسية» صفحة ٢١٣)

وذلك بان اخرج الأمر عن مولاه بصرف عيسى عن الحجابة واقره على خطة الوزارة وتقليد عبد الرحمن بن رستم الحجابة مكانه.

فجرى الأمر بذلك الى ان استقل الأمير عبد الرحمن من علته وقعد لأهل خططه فدخلوا عليه يَقْدُمُهُم الوزراء وعيسى بينهم، فتقدم عبد الرحمن بن رستم جماعتهم في التسليم على الأمير. ثم قعد فوق ابن شهيد فاستنكر الأمير ذلك.

فلما استقر بهم المجلس قال لعيسى بن شهيد فيما يخاطبه به: «ما شأن هذا؟ لأمر سأله عنه.

فقال له: «يا مولاي، لست بحاجب، وهذا هو الحاجب».

واشار الى ابنِ رستم.

فَعَلَتِ الأميرَ عبد الرحمن كَبْرَةٌ، وعرف من حيث اتى فكظم غيظه واصطبر فلما خرج الوزراء دعا بنصر فسأله عن عزل ابن شهيد وولاية ابن رستم، فلم يمكنه انكاره، وادعى ان وصية خرجت اليه من لدنه صدر علته، فكذبه الأمير وعلم انها من تحامله وجسارته فسبه واغلظ له وهم به. ثم عفا عنه واعاد عيسى بن شهيد حاجباً للأمير عبد الرحمن بن الحكم الى ان توفي الأمير عبد الرحمن الأوسط، فامضاه عليها الأمير محمد ولده الراقي بعده على الحجابة خمسة اعوام الى ان هلك عيسى صدر دولة الأمير محمد سنة ثلاث واربعين ومائتين. وقد استكمل في ولايته في الدولتين عشرين سنة.

وهكذا فيكون حجاب الأمير عبد الرحمن: عبد الكريم بن عبد الواحد ثم صيرت الى سفيان بن عبد ربه اصله من برابر بيانة[1]، كما يقول ابن القوطية. وبعد وفاته ولى عبد الرحمن بن غانم[2] ثم مات ابن غانم فصارت الحجابة الى عيسى بن شهيد، ثم الى عبد الرحمن بن رستم يداول الأمر بينهما الى ان مات

---

١ ـ «بيانة» BAENA بلدة تقع على بعد ٦٤ كيلومتراً من جنوب شرقي قرطبة، وكانت قديماً من اعمال مدينة «قبرة CABRA» الحالية.

٢ ـ عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم وابوه عبد الحميد بن غانم كان رأس اسرة اشتهر كثير من افرادها وتولوا ارقى المناصب في الدولة الأموية. وكان عبد الحميد بن غانم من موالي عبد الرحمن بن معاوية الداخل ومن كبار رجالات دولته واهدى اليه هذا الأمير جارية كانت له ثم وقعت في اسر ابي زيد عبد الرحمن بن يوسف الفهري عند هجومه على قرطبة اثناء الحرب الدائرة بينه وبين عبد الرحمن الداخل في سنة ٧٥٦/١٣٨. فلما استنقذها الأمير الأموي كرهها فاهداها الى عبد الحميد بن غانم فهي ام ولده عبد الرحمن وعهد اليه الأمير الداخل بقيادة فرق الرجالة. كما اسند اليه بعض المهام العسكرية الكبرى مثل تكليفه اياه بالقبض على يحيى بن يزيد بن هشام اليزيدي الثائر على الأمير عبد الرحمن.
اما عبد الرحمن بن عبد الحميد فقد ولي الوزارة والحجابة للحكم بن هشام ثم لابنه عبد الرحمن خلال فترة قصيرة.

ابن رستم، فاتصلت الحجابة بعيسى بن شهيد بقية ايام عبد الرحمن الأوسط. فلما ولي ابنه الأمير محمد اقر ابن شهيد الى ان توفي سنة ثلاث واربعين ومائتين.

وزراء الأمير عبد الرحمن الأوسط

العباس بن بعد الله القرشي:

هو العباس بن بعد الله بن عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم المرواني القرشي وجده عبد الملك بن مروان دخل الى الأندلس قادماً من مصر على عبد الرحمن بن معاوية الداخل سنة ١٤٠/٧٥٧. وكان قد اتى في عشرة من بنيه هارباً من اضطهاد العباسيين وتنكيلهم ببقايا الدولة الأموية في المشرق. فولاه عبد الرحمن على اشبيلية وولى ابنه عبد الله والد المذكور هنا على «مرور» MORON واشترك كلاهما في حرب يوسف بن عبد الرحمن الفهري المنازع لعبد الرحمن بن معاوية في السلطنة.

ولما زحف اهل اشبيلية على الأمير الأموي مطالبين بثار ابي الصباح اليحصبي ابلى عبد الملك بلاء حسناً في قتالهم وكذلك ابنه عبد الله فاحظاه عبد الرحمن وزوج ابنته كنزة من ابنه هشام ولي عهده وقدمه واستوزر ابنيه عبد الله وابراهيم.

أما العباس بن عبد الله القرشي او المرواني فقد تقلب كذلك في مناصب الدولة اذ ولاه الأمير هشام بن عبد الرحمن على باجه. ثم ولى الوزارة وقيادة الجيوش كذلك للحَكَم بن هشام الربضي. وقد روى الخشني عنه اخباراً تدل على مكانته العظيمة لدى الحَكَم بن هشام وقد ظل على القيادة والوزارة في عهد عبد الرحمن الأوسط حتى وفاته سنة ٢١٩/٨٣٤

الوليد بن عبد الله القرشي:

اخو السابق

عبيد الله بن يحيى بن خالد.

عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث:

الحاجب القائد والكاتب

عبد الرؤوف بن عبد السلام:

بن ابراهيم بن يزيد بن عبد الله بن جابر بن جابر بن عمر بن ايوب مولى مروان بن الحكم كان من كبار رجالات الموالي الأمويين بالأندلس. وكان جده الأكبر عبد الله بن جابر قاضياً لعمر بن عبد العزيز بالشام واول من دخل الأندلس من هذه الأسرة هو ابوه عبد السلام ابراهيم واخواه ابو المفوز «وعقبة». فتناسلوا بها وخدموا امراء بني امية وتصرفوا في الولايات. وكان ابو الدلهاث عبد السلام اميناً للأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل بكورة البيرة.

أما عبد الرؤوف المذكور فقد ولي طليطلة ونواحيها للأمير عبد الرحمن الأوسط سبعة اعوام وتصرف في غير ذلك من الكور. ثم استوزره عبد الرحمن في آخر ايامه واستوزره الأمير محمد بن عبد الرحمن ايضاً وتوفي في ايامه وهو وال للوزارة. وفي ولاية محمد كان يتولى حراسة «باب الجنان» من ابواب قصر قرطبة القبلية في اواخر ايام عبد الرحمن الأوسط. وقد رأى الأمير محمد من امانته وضبطه ما جعله يقره على عمله حينها ولي مقاليد الحكم في سنة ٨٥٢/٢٣٨

وكان لذرية عبد الرؤوف هذا مكانة عالية في الدولة الأموية فقد ولى ابنه عبد الوهاب الكور المجندة وغيرها في ايام الأمير محمد وابنيه المنذر وعبد الله، وتوفي باشبيلية وهو عامل عليها. ويقول ابن حيان: «ان عمر بن حفصون الثائر بكورة ريه كان قد اظهر الانقياد والطاعة في اول ولاية عبد الله بن محمد فقبل منه الأمير سنة ٨٨٨/٢٧٥ وسجل له على عمل كورة «ريه» ولكنه اشرك معه في حكمها عبد الوهاب بن عبد الرؤوف المذكور. وتظاهر عمر بن حفصون بالقبول ولكنه لم يلبث ان عاد الى النكث وخلع الطاعة، وطرد عبد الوهاب وتفرد بكورة «ريه».

ونعرف كذلك من اخبار هذه الأسرة ان اول غزوة غزاها عبد الرحمن الناصر سنة ٩١٢/٣٠٠ كانت الى حصن «المنتلون» MONTELEON الذي كان الثائر سعيد بن هذيل معتصماً به. فضرب عليه عبد الرحمن الناصر الحصار وما زال به حتى استأمن ابن هذيل واسلم الحصن بعد ان ارهقه الحصار. فقبل منه عبد الرحمن الناصر وولى على الحصن عاملاً من قبله هو محمد بن عبد الوهاب المذكور.

ومحمد بن عبد الوهاب ولي كورة جيان ومات بها.

واخيراً نعرف من افراد هذه الأسرة الوزير ابا وهب عبد الوهاب محمد بن

عبد الوهاب بن عبد الرؤوف استوزره عبد الرحمن الناصر وصرفه في الولايات وكان بصيراً بالعربية والنحو شديد التكبر.

عيسى بن شهيد الحاجب:

جئنا على ذكره

عبد الرحمن بن رستم الحاجب:

جئنا على ذكره

محمد بن السليم:

بن ابي بكر جعفر بن يزيد بن عبد الله، مولى سليمان بن عبد الملك. وكان اول من عرف من هذا البيت هو جده ابو عكرمة جعفر بن يزيد الذي عقد بقناته لواء عبد الرحمن بن معاوية الداخل قبل موقعة «المصارة» التي دارت بينه وبين يوسف بن عبد الرحمن الفهري.

أما محمد بن السليم هذا هو واخوه ايوب بن السليم فقد كانا من كبار قواد عبد الرحمن الأوسط. ويذكر ابن حيان محمد بن السليم في عداد وزراء هذا الأمير ويقول انه كانت له مع الوزارة خطط يرتزق بها عليها في كل شهر ثلاثمائة دينار.

وولي محمد بن السليم المدينة في ايام عبد الرحمن الأوسط كما يقول الخشني في كتاب القضاة ص ٩٠. وقد استقر بنو السليم في كورة شذونة وتنسب مدينة ابن السليم الى محمد هذا. ويقول ابن عبد المنعم الحميري انها هي نفسها مدينة شذونة.

واشتهر من بني السليم نفر من الرجال بينهم سعيد بن محمد بن السليم الذي ولي الحجابة للأمير عبد الله بن محمد بعد ان كان والياً على السوق ثم وزيراً وتوفي سنة ٣٠٢هـ

وسعيد بن المنذر بن السليم الذي كان من قواد عبد الرحمن الناصر.

ومنذر بن ابراهيم بن محمد بن السليم الثائر في المدينة المنسوبة اليهم من كورة شذونة في ايام الأمير عبد الله.

واخيراً محمد بن اسحق بن منذر بن ابراهيم بن السليم الذي ولي القضاء للجماعة في قرطبة وتوفي سنة ٣٦٧.

محمد بن عبد السلام بن بسيل:

بيت بني بسيل من اكبر بيوتات الموالي الأمويين من اهل الشام. وكان اول من دخل الأندلس منهم عبد السلام بن بسيل الرومي المعروف بالشيخ. كان ابو بسيل مولى هشام بن عبد الملك على ما يذكر ابن الأبار او عبد الله بن معاوية على ما يذكر المقري. وواضح من التسمية «بسيل» الرومي انه كان من اصل بيزنطي وكان دخول عبد السلام بن بسيل الى الأندلس في ايام عبد الرحمن بن معاوية مع ابنيه عبد الواحد ويحيى فاستعمله عبد الرحمن على اشبيلية وشذونة ومرور والجزيرة الخضراء «وماردة» وغيرها، وولاه الوزارة وتصرف ابنه يحيى في العمالات ايضاً اذ ولي على جيان في ايام عبد الرحمن الأوسط.

أما محمد بن عبد السلام فقد تصرف في ايام الحكم بن هشام في العمالات ايضاً ثم ولي الوزارة والمدينة والكتابة والخيل وغيرها من الخطط.

وأما يوسف بن بسيل المذكور هذا فنحن نعرف عنه فضلاً عما يذكره ابن حيان هنا عن ولايته على طليطلة سنة ٢٣٤ انه كان من كبار رجالات الدولة في ايام الأمير محمد.

عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني:

يقول عنه ابن حيان انه قدم الى الأندلس حدثاً متظرفاً وكان يشدو شيئاً من الغناء فاتصل بالحاجب عيسى بن شهيد. فلما رأى هذا منه نجابة وكفاية نصحه بان يمسك عن الغناء ويكتفي بادبه وفضله. ففعل. واوصله الحاجب الى الأمير عبد الرحمن الأوسط فاعجب به وقربه. ثم ولاه المدينة ورقاه بعد ذلك الى الوزارة والقيادة.

وفي سنة ٢٢١ ارسله عبد الرحمن الى طليطلة حينما خالفت عليه ففتحها في تلك السنة.

وفي سنة ٨٤١/٢٢٦ وجه عبد الرحمن صائفة الى جليقية وجعل على رأسها ابنه المطرف واسند القيادة الى عبد الواحد الاسكندراني. ويذكر العذري انه ابلى بعد ذلك في قتال المجوس عند نزولهم على سواحل اشبيلية ٨٤٤/٢٣٠. ونعلم ان عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني توفي سنة ٢٣٨ عن نيف وثمانين سنة وقد كان من نسله حفيد له تولى الوزارة والكتابة كان اسمه عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد وتوفي ايام عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٩.

عبد العزيز بن هشام بن خالد:

يقول الدكتور مكي: لا شك في ان عبد العزيز بن هاشم هو والد الوزير المشهور هاشم بن عبد العزيز الذي كان اكثر وزراء الأمير محمد حظوة لديه وقربا منه واخيه اسلم بن عبد العزيز الذي ولي قضاء الجماعة لعبد الرحمن الناصر. وقد اختلف المؤرخون في نسب هذه الأسرة المشهورة ويبدو لنا انها من رهط عبد الله بن خالد الذي كان من اعظم اعوان عبد الرحمن بن معاوية الداخل عند قدومه الى الأندلس. وعبد العزيز هذا كانت ارزاقه عظيمة ايضاً تصل الى اكثر من ثلاثمائة دينار في الشهر.

عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم:

محمد بن كليب بن ثعلبة:

وكان على الشرطة قبل استلامه الوزارة.

جهور بن يوسف بن بُخْت:

هو ابو الحجاج يوسف بن بُخْت الفارسي، مولى عبد الملك بن مروان بن الحكم. دخل الأندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري سنة ٧٤١/٢١٣. وكان من رؤساء الموالي الأمويين بكورة الفيرة (غرناطة)، هو وعبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد. وكانوا قد حضروا واقعة شقندة SECUNDA مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري والصميل بن حاتم وكان لهم فيها بلاء عظيم، فكانوا من يوسف باشرف المنازل.

ولما ترددت الأنباء بعزيمة عبد الرحمن بن معاوية على الجواز الى الأندلس ووفد سفراؤه الى هذه البلاد انضم يوسف بن بخت الى هذه الدعوة. وكان من القائمين بامر عبد الرحمن المروجين لدعوته وهو الذي اخذ له بيعة جند الأردن في ريه وشذونة.

ولما جاز عبد الرحمن البحر اقبل اليه عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد فنقلاه الى قرية «طرّش TORROX» منزل ابي الحجاج يوسف بن بخت واتاه هذا فانثالت عليه الموالي الأموية كلها. وعرف له عبد الرحمن الداخل فضل سابقته بعد ان تمهد له الأمر، فولاه حجابته، وكان يستخلفه على قصر قرطبة عند غيابه.

ولما مات عبد الرحمن الداخل وخلفه ابنه هشام ظل قريب المكانة منه، فعهد اليه الأمير ببعض مناصب القيادة، فقاد الحملة التي توجهت الى جليقية سنة ٧٩٢/١٧٦ فالتقى ببرمود BERMUDO الملقب بالكبير ملك جليقية واشتوريش والحق به هزيمة ساحقة وبلغ الفيء في هذه الغزوة على ما يذكر بعض المؤرخين ٣٩٠٠٠ وتوفي بعد ذلك في طليطلة.

وكان ليوسف بن بخت ذرية نابهة اولها ابنه جهور بن يوسف الذي كان وزيراً للحكم الربضي وابنه عبد الرحمن الأوسط. ويسميه صاحب «اخبار مجموعة» «شيخ الوزراء». وتوفي سنة ٨٣٤/٢١٩.

ـ عبد الله بن امية بن يزيد.

ـ حسن بن عبد الغافر بن ابي عبدة:

وكان عبد الله بن جابر مملوكاً لمروان بن الحكم ابلى يوم «مرج راهط» بلاء حسناً في صفوف الجيش المرواني فمن مروان عليه باعتاقه. وكان اول من دخل الأندلس من هذه الأسرة هو ابوه عبدة حسان بن مالك جد المذكور هذا. دخل سنة ٧٣١/١١٣ وكان له اولاد قتلوا في المشرق لم يبق منهم الا عبد الغافر لصغر سنه فنشأ في المشرق مع عبد الرحمن بن معاوية وتأدب معه. فلما قدم بدر مولى عبد الرحمن الى مواليه الشاميين بالأندلس لتمهيد امره في هذه البلاد استراح بخبره الى ابي عبدة فاستجاب له على الفور ووجه ابنه عبد الغافر الى عبد الرحمن وايده على امره.

فلما توطد الملك للداخل استوزر ابا عبدة وقدمه على جيوشه، ثم استعمله على اشبيلية قائداً بها وعهد اليه بالتطبيق على اهل «باجه» الثائرين على سلطته. وابدى ابو عبدة كفاة وحزماً وانقاد له غرب الأندلس كله فظل يحكم هذه الرقعة خمسة اعوام حتى توفي باشبيلية.

أما عبد الغافر بن ابي عبدة والد الوزير المذكور هنا فانه تصرف في الوزارة كذلك لعبد الرحمن، ثم عهد اليه الأمير هشام بن عبد الرحمن عند ولايته لقيادة الشرطة. ويبدو ان عمره طال حتى ادرك امارة الحكم الربضي فكان صاحب اختامه، وهي وظيفة استقل بها من قبل في عهد هشام بن عبد الرحمن. وكان اخوه عبد العزيز يشركه ايضاً في الوزارة للحكم الربضي.

وقد تكاثرت سلالة الوزير ابي عبدة وابنائه في الأندلس وتولى الكثيرون

منها اعلى المناصب في الدولة على انهم من الكثرة بحيث لا نستطيع استيفاء جميعهم، كما يقول الدكتور مكي.

ويقول ابن حيان في الجزء الخاص بالأمير عبد الله من كتاب «المقتبس»: ومن الغريب ان اجتمع في بيت الوزارة في ايامه اربعة رجال من وزرائه اقارب من بيت واحد من صميم الموالي آل ابي عبدة حسان بن مالك:

ابو عثمان عبيد الله بن محمد بن ابي عبدة
وابو العباس احمد بن محمد بن عيسى بن ابي عبدة
وسالم بن علي بن ابي عبدة
وعبد الرحمن بن حمدون بن ابي عبدة المعروف بدحيم.

وقد كان اشهرهم القائد ابو العباس احمد بن محمد بن ابي عبدة الذي يعتبر من عباقرة القادة العسكريين، فقد ظل طيلة ايام الأمير عبد الله يتردد بالحملات على الثائرين والناكثين بغير انقطاع.

فلما مات الأمير عبد الله وخلفه حفيده عبد الرحمن ظل في خدمته وما زال يتردد بالحملات حتى استشهد اخيراً في سنة ٩٠٧/٣٠٥ في موقعة «قاشتره موره» Castro Moro بعد ان ابلى اعظم البلاء.. ويليه في الشهرة ابو عثمان عبيد الله بن محمد بن الغمر بن عبد الغافر بن ابي عبدة الذي تصرف للأمير عبد الله بن محمد في الكور وحجابة الأولاد والمدينة والخيل والقيادة، واستأذن في الحج فأدى الفريضة وعاد فلزم داره وحمل ذكره بعد ذلك بتدبير من بدر بن احمد الخصي الصقلي وصيف الأمير. وقد ولي كورة جيان وظل يتردد بالحملات على الشوار. وكان له فضل بناء كثير من الحصون منها حصن «اندوشر» ANDUJAR. وقد روى لنا ابن حيان في المقتبس كثيراً من اخبار حملاته..

ولاسم عبيد الله بن محمد الغمر المذكور اهمية خاصة في تاريخ الأندلس، اذ من صلبه ينحدر الرئيس ابو الحزم جهور اول ملوك الطوائف في قرطبة ومؤسس دولة الجهاورة التي حكمت عاصمة الأندلس القديمة بعد انتثار سلك الدولة المروانية. فابو الحزم جهور هو ابن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد.

والأمير عبد الرحمن اول من الزم هؤلاء الوزراء الاختلاف الى القصر كل يوم والتكلم معهم في الرأي والمشورة في النوازل، وافرد لهم بيتاً رفيعاً داخل قصره مخصوصاً بهم يقصدون اليه ويجلسون فيه فوق ارائك قد نضدت لهم،

يستدعيهم اذا شاء الى مجلسه جماعاً واشتاتاً، يخوض معهم فيما يطالع به من امور مملكته ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من احكامه. واذا قعدوا في بيوتهم اخرج رقاعه ورسائله اليهم بامره ونهيه فينظرون فيما يصدر اليهم من عزائمه. جرى على ذلك من تلاهم الى اليوم. وهو اشبه ما يكون بما نعرفه في عصرنا الحاضر من الاتصال بين رئيس الدولة واجهزة الحكم المختلفة.

وكان قد اجتمع للامير عبد الرحمن الأوسط من سراة الوزراء اولي الحلوم والنهى والمعرفة والذكاء عصابة لم يجتمع مثلها عند احد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم.

لم يختلف احد من شيوخ الأندلس في انه ما خدم ملوك بني امية فيها احد اكرم من عيسى بن شهيد غاية ولا اكرم اصطناعاً ولا ارعى لذمة. ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بهذه الصفة على زيادة لخصاله وادواته على عيسى الا في باب كرم الصنيعة واستتمامها فلم يكن لفضله درجة بل كان عبد الكريم يقصر على عيسى في باب قبول الهدية وتجويز المكافأة على قضاء الحاجة، فانه كان يقبل ذلك ولا يأباه. وكان عيسى على الضد منه في هذا الباب لا يقبل شيئاً منه البتة. وكان يهجر من عرضه اليه ولا يرضى فيمن تقلده من صنائعه ويشمله بنعمته الا بغاية التشريف والانهاض والتخويل والامداد.

فمن مشهور ذلك فعله في عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني فانه قدم الى الأندلس وهو فتى متأدب فاعتلق بحبل ابن شهيد، فقال له: امسك عن الغناء فانه يريبك لدينا وتحقق بأدبك فلك خصال تجذب بضبعك[1]

ففعل عبد الواحد ذلك ولزم عيسى فالقى ذكره الى الأمير عبد الرحمن الأوسط كما رأينا، فاصابه على ما وصفه له عيسى فادنى منزلته ونادمه وانس به ثم استخدمه حتى خوله المدينة.

ربما كان عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني من اول من عهد اليهم بمنصب «صاحب المدينة» فيما نعرف فالكثير من هذه الخطط التي استقرت رسومها بعد ذلك في ظل خلافة بني امية وتأصلت في الأندلس حتى نهاية الاسلام في تلك البلاد انما بدت في الظهور والتحدد في ايام الأمير عبد الرحمن

١ ـ الضبع: ما بين الأبط الى نصف العضد.

ابن الحكم اذ كان هو الذي اعطى الدولة المروانية رونقها ونظم آياتها ورتب طبقات الخدمة فيها.

وعلى ما يبدو ان خطة المدينة كانت بمثابة الحكم والاشراف على الامن العام فيها. وصاحب المدينة في قرطبة كان هو حاكمها العام او «محافظها». وكان اصحاب الشرطات الثلاث: الشرطة العليا والشرطة الوسطى والشرطة السفلى يخضعون له ويأتمرون بامره.

ويقول ابن حيان ان والي المدينة في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط كان يتقاضى وظيفة او مرتباً شهرياً يبلغ مائة دينار. وكان يوجد خلال عصر الامارة صاحب واحد للمدينة. فلما اتسعت خطط قرطبة وامتد العمران فيها بعد اعلان الخلافة وبناء مدينة الزهراء اصبح لمدينة الزهراء صاحب مستقل العمل عن صاحب المدينة في قرطبة. وحدث مثل ذلك حينما بنى المنصور بن ابي عامر مدينة «الزاهرة» اذ عين لها صاحب مدينة ايضاً.

وتجدر الاشارة الى ان هذه الخطة الأندلسية قد انتقلت الى اسبانيا المسيحية المجاورة كما انتقل كثير من النظم باوضاعها ورسومها واسمائها العربية بحكم التفوق الحضاري للمسلمين الأندلسيين على جيرانهم في دول اسبانيا المسيحية، فنجد منذ اواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي في مملكتي نبارة NAVARRA وارغون ARGON منصباً ادارياً قضائياً مقابلاً لخطة «صاحب المدينة» في الأندلس الاسلامي وكانوا يسمونه ZABALMEDINA او مختصراً في كلمة ZALMEDINA.

الفصل التاسع

كتّاب الأمير عبد الرحمن الأوسط

يقول ابن خلدون في مقدمته صفحة ٢١٤ وما يليها، المطبعة الأدبية بيروت ١٨٧٩: . . . اكد الحاجة الى وظيفة الكتابة في الدولة الاسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بابلغ من العبارة اللسانية في الأكثر وكان الكاتب للأمير يكون من اهل نسبه ومن عظماء قبيلته كما كان للخلفاء وامراء الصحابة بالشام والعراق لعظم امانتهم وخلوص اسرارهم. فلما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بني العباس رفيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان او شارته ويغمس في طين احمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم، ويطبع به على طرفي السجل عند طيه والصاقه.

. . . . ومن خطط الكتابة التوقيع وهو ان يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة اليه احكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان باوجز لفظ وابلغه.

واعلم ان صاحب هذه الخطة لا بد ان يتخير من ارفع طبقات الناس واهل المرؤة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر في اصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد احكامهم من امثال ذلك مع ما تدعو اليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر اليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة واسرارها.

أما الشروط المعتبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه من اصناف الناس فهي كثيرة واحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته الى الكتّاب وهي:

«اما بعد حفظكم الله يا اهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وارشدكم فان الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ومن بعد الملوك المكرمين اصنافاً وان كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات الى اسباب معاشهم وابواب ارزاقهم، فجعلكم، معشر الكتاب، في اشرف الجهات اهل الأدب والمرؤات والعلم والرزانة بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم امورها وبصلاحكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغني الملك عنكم ولا يوجد كاف الا منكم فموقعكم من الملوك موقع اسماعهم التي بها يسمعون وابصارهم التي بها يبصرون والسنتهم التي بها ينطقون وايديهم التي بها يبطشون فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما اضفاه من النعمة عليكم وليس احد من اهل الصناعات كلها احوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم ايها الكتاب، اذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به مهمات اموره ان يكون حليماً في موضع الحلم، فهيماً في موضع الحكم، مقداماً في موضع الاقدام محجاماً في موضع الاحجام مؤثراً للعفاف والعدل والانصاف كتوماً للأسرار وفياً عند الشدائد عالماً بما يأتي من النوازل، يضع الأمور مواضعها والطوارق في اماكنها، قد نظر في كل فن من الفنون العلم فاحكمه وان لم يحكمه اخذ منه بمقدار ما يكتفي به، يعرف بغريزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعد لكل امر عدته وعتاده ويهيء لكل وجه هيئته وعادته. فتنافسوا، يا معشر الكتاب، في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين وابدوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثقاف السنتكم ثم اجيدوا الخط فانه حلية كتبكم وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وايام العرب والعجم واحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسمو اليه هممكم. ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الأمور ومحاقرها فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب. ونزهوا صناعتكم عن الدناءة واربأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه اهل الجهالات واياكم والكبر والسحق والعظمة فانها عداوة مجتلبة من غير احنة وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصلوا عليها بالذي هو اليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم. وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه واوسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب اليه امره. وان اقعد احداً منكم الكبر عن مكسب ولقاء اخوانه فزوروه

وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه احوط منه على ولده واخيه، فان عرضت في الشغل محمدة فلا يصفها الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه ويحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب اليكم، معشر الكتاب، اسرع منه الى الفراء وهو لكم افسد منه لها، فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه ان يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير امره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك تبعاً له عند الحاجة اليه والاضطرار الى ما لديه، فاستشعروا ذلك، وفقكم الله من انفسكم في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمؤساة والاحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه من وسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة واذا ولي الرجل منكم او صير اليه من امر خلق الله وعياله امر فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقاً وللمظلوم منصفاً فان الخلق عيال الله واحبهم اليه ارفقهم بعياله. ثم ليكن بالعدل حاكماً وللاشراف مكرماً وللفيء مؤثراً وللبلاد عامراً وللرعية متألفاً وعن اذاهم متخلفاً وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً وفي سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا. . واذا صحب احدكم رجلاً فليختبر خلائقه فاذا عرف حسنها وقبيحها اعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بالطف حيلة واجمل وسيلة. وقد علمتم ان سائس البهيمة اذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة اخلاقها فان كانت رموحاً لم يهجها اذا ركبها وان كانت شبوباً اتقاها من بين يديها وان خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها. وان كانت حروناً قمع برفق هواها في طرقها. فان استمرت عطفها يسيراً فيساس له قيادها. وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم.

والكاتب لفضل ادبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره ويفهم عنه او يخاف سطوته اولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم اوده من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاباً الا بقدر ما يصيرها الى صاحبها الراكب عليها.

الا فارفقوا رحمكم الله، في النظر واعلموا ما امكنكم فيه من الروية والفكر تأمنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصير منكم الى الموافقة وتصيروا منه الى المواخاة والشفقة ان شاء الله. ولا يجاوزن الرجل منكم

في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وخدمه وغير ذلك من فنون امره قدر حقه، فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم افعال التضييع والتبذير. واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متآلف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان اهلهما ولا سيما الكتاب وارباب الآداب. وللأمور اشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتنف اعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم. ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها محجة واصدقها حجة واحمدها عاقبة واعلموا ان للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ علمه ورؤيته. فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه، وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل عن اكثاره وليضرع الى الله في صلة توفيقه وامداده بتسديده ومخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وادبه فانه ان ظن منكم ظان او قال قائل ان الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته انما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره، فقد تعرض بحسن ظنه او مقالته الى ان يكله الله عز وجل الى نفسه فيصير منها غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف ولا يقول احد منكم انه ابصر بالامور واحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته فان اعقل الرجلين عند ذوي الألباب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى ان اصحابه اعقل منه واجمل في طريقته وعلى كل واحد من الفريقين ان يعرف فضل الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا يكاثر على اخيه او نظيره وصاحبه وعشيره، وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته وانا اقول في كتابي هذا ما سبق به المثل: من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته اخره وتممته به تولانا الله واياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه باسعاده وارشاده فان ذلك اليه وبيده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

كتب له الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث مع ما كان اليه من الحجابة والقيادة.

وعبدالله بن محمد بن امية بن يزيد بن ابي حوثرة:

مولى معاوية بن يزيد بن عبد الملك بن مروان. بيت الكتابة لبني مروان

بالاندلس تناسق بعبدالله هذا ثلاثة منهم ما بينه وبين جده امية سنة اربع وخمسين ومائة ومهلك عبدالله هذا المذكور سنة مائتين وست واربعين. وكانوا اهل بيت نجابة.

اورد لنا ابن حيان اخباراً جديدة عن اولية بيت امية بن يزيد الذين توارثوا الكتابة والوزارة وغيرهما من المناصب الكبرى لامراء بني مروان.

اما الاول امية بن يزيد فقد دخل الاندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري من الشآميين سنة ١٢٣/٧٤١ فاتصل بخالد بن يزيد كاتب يوسف بن عبد الرحمن الفهري ووزيره، وتلمذ عليه واشتغل بالكتابة تحت نظره. فلما توطد ملك الاندلس لعبد الرحمن بن معاوية صار خالد بن يزيد الى كتابته غير انه نفر بعد ذلك عن القرار بالاندلس وسأل الاذن بالخروج الى المشرق ولعله فعل غضباً لمولاه يوسف بن عبد الرحمن الفهري حينما اوقع به عبد الرحمن الداخل وقتله. فاذن له الامير واستكتب بعده امية بن يزيد واشتمل عليه لكونه من مواليه.

ويروي ابن الابار هنا خبراً يصور مدى وفاء امية بن يزيد لاستاذه خالد اذ يقول ان الامير عبد الرحمن امره ان يكتب كتاباً بسراح خالد واخراجه من الاندلس فابى امية ذلك وقال: معلمي وولي الاحسان قبلي يكون اول شيء يجري له على يدي الكتابة بخروجه عن اهله وماله؟

وارتفعت مكانة امية بعد ان استقل بالكتابة واصبح في عداد من يشاورهم الامير ويؤثر آراءهم وقيل انه كان ممن اتهموا في ثورة يحيى بن يزيد الهاشمي فاتفق ان مات قبل اليزيدي واطلع عبد الرحمن على ما كان خافياً من امر تلك المؤامرة. وكانت وفاة امية في سنة ١٥٤/٧٧١.

واعقب امية بن يزيد ولدا هو محمد بن امية الذي اشتغل ايضا بالكتابة للامير هشام وابنه الحكم، غير انه اتهم بالميل الى عمه سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية الذي بدا ثورته على هشام اخيه وواصلها في عهد الحكم بل انه كان هو المحرض سليمان على مواصلة العصيان والثورة. ويروي ابن سعيد بهذه المناسبة عن تاريخ ابن حيان نفسه نصاً له اهميته فيما نحن بصدده اذ يقول: «وكان سليمان قد هم بالركون الى الطاعة والانقياد حتى كتب اليه ابن امية:

«لا تقبلن عهوداً لا وفاء لها	ان المدير عليك الرأي شيطان
ان الصدور التي استعذبت اولها	اعجازها لك ان حصلت خطبان
كيف المقام بارض ليس يملكها	ذاك المبرأ من نقص سليمان

وكانت وفاة محمد بن امية بن يزيد في سنة ٢٢٦/٨٤١ على ما يذكر ابن حيان وهو خامل معزول عن الكتابة.

اما عبدالله بن محمد بن امية بن يزيد فقد ولي الكتابة والوزارة للاميرين عبد الرحمن بن الحكم وابنه محمد، وتصرف قبل الوزارة في الولاية والعرض واثنى عليه ابن القوطية وقال ان الامير محمداً عند ولايته اقره على الكتابة فتصرف فيها نحو عامين ثم اقعدته علة عن الركوب اعواماً اقام الخدمة فيها قومس بن انتنيان» الى ان توفي عبدالله سنة ٢٤٦/٨٦٠.

واشتهر من بيت بني امية هؤلاء عبدالله المذكور ابناه محمد الذي ولي الوزارة لعبد الرحمن الناصر وتوفي سنة ٣٠٩/٩٢١.

محمد بن سعيد الزجالي:

كتب له ايضاً وهو مؤسس بيت من بيوت الشرف بقرطبة من غير قدم في الدولة. يقول عنه ابن سعيد المغربي في كتابه «المغرب في خلى المغرب»: انه من بني «يطفت» برابر تاكرنا، وانه كان يلقب بالاصمعي لذكائه وحفظه وساد بقرطبة وفشا فيها نسله وعظم عقبه. وكان اول من استكتبه عبد الرحمن الاوسط.

وذكر ابن حيان ان سبب سعادته ان عبد الرحمن الاوسط عثرت به دابته وهو سائر في بعض اسفاره فكاد يكبو لوجهه فتمثل:

«وما لا ترى مما يقي الله اكثر...»

وطلب صدر البيت فلم يوجد الا في حفظ الزجالي فانشد:

«ترى الشيء مما يتقى فتهابه   وما لا نرى مما يقي الله اكثر»

فاعجب الامير ما كان منه وراقه بيانه واعجبه شكله فقال له: «الزم السرادق».

فلما جالسه وحدثه ازداد قبولاً له فاستخصه ثم استكتبه بعد حين لسره.

وكان يكتب عن الامير وتشاركه فيه وزراؤه على العادة، فانف من ذلك وكتب اليه كتاباً منه: ان من وسم بميسم كتابه، اعزه الله، وشرف باسمها لجدير ان يعتلي على كتابة وزرائه ويزدهي بحصانة اسراره.

فافرده لكتابته فجرت عادة.

وله في رسالة يشكو بها «نصراً» الخصي الى عبد الرحمن الاوسط: «قد علم ما خصني به دون نظرائي من المنزلة الرفيعة التي اصبحت علماً من اجلها محسوداً مرمياً بالحدق تسلقني الالسن وتجول فيّ الافكار. وعندما استوى بناؤها

وقام عمودها واسترخت اطنابها سعى في هدمها من لا ازال اؤثل شرف ذكره واجل رفيع قدره.

وكان محمد بن سعيد هذا من احد عجائب الدنيا في قوة الحفظ يضرب بحفظه المثل.

وقد سلك ابنه حامد مسلكه وارتقى الى الكتابة عن سلطان الاندلس محمد بن عبد الرحمن ووزرائه وكان اهلاً لبلاغته وحسن معرفته، خلا انه كان يوصف بالبخل.

وقيل لمؤمن بن سعيد الشاعر: ما بالك لا تسامر الوزير حامداً حسبما نراك تفعله مع الوزراء من اصحابه مع قديم اتصالك به؟

فقال: «ذاك جنازة غريب لا يصحبها من صحبها الا الله».

ونمت كلمته الى حامد فحقدها. وشيعه مؤمن بعد ايام في خروجه من قصر السلطان الى الدار وهو لا ينكر منه شيئاً مما كان يعرفه.

فلما اراد مؤمن الانصراف قال له حامد: اعظم الله اجرك، ابا مروان، وكتب خطاك، كما يدعى لمشيع الموتى.

وغلط امامه ليلة في بعض قراءته في التراويح فقال مكان «الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما»، ـ فانكحوهما ـ ، فقال حامد:

ابدع القارىء معنى لم يكن في الثقلين
امر الناس جميعا بنكاح الزانيين

وذكر عن ابيه قال: جاءه يوما مستجد توسل اليه بشعر امتدحه به سأله ان يأذن له في انشاده، ففعل وجعل الشاعر ينشد له ومحمد مطرق. فلما فرغ من شعره ذهب الى مغالطته له فقال:

«يا هذا، ما الذي دعاك ان تنتحل شعراً لغيرك فتقلبه فينا؟ وكنت في غنى عن ذلك فقد كان في قصدك لنا ما نقضي به ذمامك ونعينك على شأنك».

فقال له: «سبحان الله يا سيدي، تقول ذلك في شعر كددت فيه خاطري واتعبت فيه ذهني؟ فلا والله ما اخذته من احد ولا سويته الا من نظمي.

فقال له محمد بن سعيد: باطل، انه لشعر قد رويته قديماً وحفظته فان شئت فاستمع اليه انشدكه وبدا فاعاد الشعر عليه او اكثره. فبقي حائراً لما فاجأه به، وقد زال طمعه وانقطعت حجته واشتدت فجعته.

فلما رأى محمد بن سعيد سوء مقامه قال له: «خفض عليك، فاني مزحت معك وانك الصادق فيما قلت، الحقيق بالثواب على ما قرضت، وانما اعانني عليك قوة حفظي الذي ذهبت الى اختباره معك ولا والله ما سمعت بهذا الشعر قبل يومي».

فسرى عن الشاعر غمه واجزل صلته.

وقد روى ابو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغاني قصة جرت بين البحتري وابي تمام تكاد تكون هي نفسها التي تروى عن محمد بن سعيد الزجالي والشاعر الذي مدحه بقصيدة. فقد روى البحتري انه دخل على ابي سعيد محمد بن يوسف الثغري فانشده قصيدته التي مطلعها:

«افاق صب من هوى فافيقا...

فسر ابو يوسف بها. وكان في مجلسه رجل رفيع نبيل المجلس.

فلما فرغ البحتري من انشاده اقبل عليه الرجل فوبخه واتهمه بان ذلك الشعر له وان البحتري منتحل له. ثم اندفع فانشد اكثر القصيدة. واضطرب الشاعر وتحير وجعل يحلف بكل محرجة من الايمان بان الشعر له لم يسمعه من احد. فلم ينفعه ذلك ولامه ابو سعيد على انتحاله شعر غيره. وقال: انه كان له من قرابته منه ما يغنيه عن ذلك.

وشرع البحتري في الخروج يجر رجليه وهو منكشف البال. فلما بلغ الباب رده الغلام الى المجلس فاقبل الرجل عليه قائلاً: «ان الشعر له». ثم دعاه اليه وعانقه وضمه وعرفه بنفسه، فاذا به ابو تمام الطائي. ولزمه البحتري منذ ذلك اليوم واخذ عنه واحتذى فنه.

وقد اشرنا الى ابنه حامد الزجالي الذي اشتهر ببخله، وهجاه شاعر اسمه البلساري قال فيه:

«فعل اللئيم وليته لم يفعل ... واتى بفعل مثله لم يجمل
ذبح الضفادع في الصنيع ولم يدع ... للنمل جارحة ولا للقمّل
وضع الطعام فلو علته ذبابة ... وقعت لتكمل شَبعه لم تُكمِل
وكأنما خرطت صحاف طعامه ... من دقة ودمامة من خردل
وكان فتره صحفة عن صحفة ... في البعد والابطاء فترة مرسل

الفصل العاشر

جواري عبد الرحمن:

لم يأت المؤرخون على ذكر جميعهن ولا شك ان العدد كبير لأن عبد الرحمن انجب ما يقرب من مائة ولد بين ذكر وانثى. غير انه اذا فاتنا كل اسمائهن فقد وصل الينا بعضهن.

طروب:

الجارية الغالية على قلبه واليها ينسب المسجد بصدر الربض الغربي ولها فيه آثار سواه.

ضرب المثل في حب عبد الرحمن الثاني لطروب ومما يروى عنه انه خرج غازياً الى جليقية فطالت غيبته فكتب اليها:

«اذا ما بدت لي شمس النها	ر طالعة ذكرتني طروبا
انا ابن الميامين من غالب	اشب حروبا واطفي حروبا
عداني عنك مزار العدا	وقودي اليهم لهاما مصيبا[1]
فكم قد تخطيت من سبسب	ولاقيت بعد دروب دروبا
الاقي بوجهي سموم الهجير	اذا كاد منه الحصى ان يذوبا
تدارك بي الله دين الهدى	فاحييته وامت الصليبا
وسرت الى الشرك في جحفل	ملأت الحزون به والسهوبا

وهي التي اعطاها حليا قيمته مائة الف دينار فقيل له: «ان مثل هذا لا ينبغي ان يخرج من خزانة الملك». فقال: «ان لابسه انفس منه خطرا وارفع قدرا واكرم جوهرا واشرف عنصرا».

١- اللهام: الجيش العظيم. وفي نفح الطيب نجد «سهاما» بدل لهام.

فجر:

لها مسجد رفيع علا امهات مساجد قرطبة، ام ابنه بشر ابي الوليد الاديب الشاعر، وهي التي اطلعته على دسيسة الخصي نصر في دس السم للامير عبد الرحمن.

الشفاء:

اعتق الامير عبدالرحمن هذه الجارية وتزوجها. وكانت من اجمل النساء عقلا ودينا وفضلا، واليها ينسب المسجد الذي في الربض الغربي من قرطبة واجملهن مذاهب واكثرهن اوقافا على المساجد والمرضى والضعفاء. اعتنت بابنه الامير محمد في صغره بعد وفاة امه وصرفها الامير عبد الرحمن في بعض مغازيه لاجل مرضها، الى قرطبة فلحقتها المنية بفج البشرى من حوز طليطلة فدفنت هناك وصار قبرها معروفا. وقد حرر الامير محمد في دولته اهل تلك القرية من المغارم لاحتراسهم اياه وتجديدهم اسمه.

فضل المدنية:

صاحبة علم المدينة. كانت فضل حاذقة بالغناء كاملة الخصال وكانت لاحدى بنات هارون الرشيد، منشأها وتعلمها ببغداد ودرجت من هناك الى المدينة فازدادت طبقتها في الغناء واشتريت هناك للامير عبد الرحمن الثاني مع صاحبتها «علم» وصواحب غيرها ـ اليهن ينسب دار المدنيات بالقصر. وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ولرقة ظرفهن ودقة ادبهن.

قلم:

تأتي بعد الجاريتين: «الشفاء» و«فضل المدينة» في الحظوة عند الامير عبد الرحمن الثاني. كانت اندلسية الاصل، رومية من سبي البشكنس، حملت صبية الى المشرق فوقعت الى المدينة وتعلمت هناك الغناء فحذقته. وهي ام ابنه «ابان» ابي الوليد وكان اديباً ولا عقب له. وكانت اديبة ذاكرة حسنت الخط راوية للشعر حافظة للاخبار، عالمة بضروب الآداب.

متية:

جارية علي بن نافع المعروف بزرياب. كانت رائعة الجمال، ادبها مولاها زرياب وعلمها احسن اغانيه حتى شبّت وتصرفت بين يدي عبد الرحمن بن

الحكم تغنيه مرة وتسقيه اخرى. فلما فطنت لاعجابه بها، ابدت له دلائل الرغبة فابى الا التستر فغنته بهذه الابيات وهي لها في ما احسب:

«يا من يغطي هواه من ذا يغطي النهار
قد كنت املك قلبي حتى علقت فطار
يا ويلتي اتراه لي كان او مستعارا
يا بني قرشي خلعت فيه العذارا

فلما انكشف لزرياب امرها اهداها الى الامير عبد الرحمن فحظيت عنده.

اولاد عبد الرحمن الاوسط

- اولهم الامير محمد الوالي بعده.

قال يوماً لاخيه «ابان» وقد خلا معه على راحة: هل لك امل نبلغك اياه؟

فقال: «لم يبق لي امل الا ان يديم الله تعالى عمرك ويخلد ملكك».

فاعجب ذلك الامير وقال: ما مالت اليك نفسي من باطل.

وكان كل واحد منهما يهيم بالآخر وفي ذلك يقول ابان:

«يا من يلوم ولا يدري بما انا مفتول ولو ابصرته ما كنت تلحاني
من مازجت روحه روحي وشاطرني يا حسنه حين اهواه ويهواني

- ابو العاصي الحكم الاشتياق: ولعل «الاشتياق» لقب غلب عليه، لم يورده ابن حزم بين من ذكر من اولاد عبد الرحمن اذ ان عقبه كان قد انقرض في عهده. ونحن نعرف ان عبد الرحمن كان يكل الى ابنه الحَكَم هذا بعض المهام العسكرية ومناصب الحكم في حياته من ذلك اخراجه اياه في سنة ٢٢٤/٨١٩ الى دار الحرب وامره له بالتجول في الثغور وتفقدها، وولايته كورتي البيرة وتدمير، وان اخاه محمداً اخرجه الى طليطلة بالصائفة فاحتل قلعة رباح وامر ببنيان سورها واسترجاع من فر من اهلها.

- ابو ايوب سليمان.

- ابو القاسم المطرّف: ذكره ابن حزم في القائمة من بين من اعقب من ولد الامير عبد الرحمن بن الحكم، اذ قال اربعة بنين ذكوراً ينتهي نسبهم الى عبدالله بن المطرف المذكور. واضاف ابن حزم الى ذلك ان المطرف هو الذي ينسب اليه فحص مطرف بين دور الربض الشرقي بقرطبة وهو المعروف ايضاً

بفحص ابن بسيل. وقد اشترك المطرف في كثير من الحملات والصوائف في عهد والده عبد الرحمن.

افنيت عمري في الشرب والوجوه الملاح
ولم اضيع اصيلا ولا اطالع صباح.
احيي الليالي سهدا في نشوة ومراح
ولست اسمع ماذا يقول داعي الفلاح

ويقول المقري في نفح الطيب: «والعياذ بالله من هذا الكلام وحاكي الكفر ليس بكافر.

وعتبه احد اخوانهِ على هذا القول فقال: اني قلته وانا لم اعقل ولم اعلم انه يحفظ عني وانا استغفر الله تعالى منه والذي يغفر الفعل اكرم من ان يعاقب على القول.

ومن جيد شعره قوله:

يا اخي فرقت صروف الليالي بيننا غير زورة[1] الاحلام
فغدونا بعد ائتلاف وقرب نتناجى بالسن الاقلام

ـ ابو الحكم المنذر: ذكره ابن حزم وقال ان خمسة رجال بقوا من عقبه ينتهي نسبهم الى مروان بن المنذر المذكور وانهم كانت لهم ثروة وحال ظاهرة واداب وخير، ثم انقرضوا ولم يبق لهم عقب الا من رجل واحد منهم. كذلك ذكر ابن حزم من نسل المنذر هذا الشاعر ابا الحكم المنذر بن سعيد بن المنذر بن مروان بن الحكم. ويذكر ابن حيان ان اخاه الامير محمداً وجهه بالصائفة الى طليطلة فحاصرها وانتسف معايشها وقد قاد المنذر كثيرا من الحملات في ايام ابيه عبد الرحمن الاوسط. وقد اورد المقري في «نفح الطيب» اخباراً طريفة عن المنذر المذكور تصور اخلاقه وطباعه ومحاوراته بينه وبين ابيه الامير عبد الرحمن وقصصا اخرى تصوّر كرم نفسه بعد ان امتحنه ابوه وتعهده بالتأديب. فمما قال المقري عنه[2]:

«وكان المنذر بن الامير عبد الرحمن الاوسط سيء الخلق في اول امره كثير الاصغاء الى اقوال الوشاة مفرط القلق مما يقال في جانبه معاقباً على ذلك من

١ـ الزورة: البعد.

٢ـ المقري: نفح الطيب جزء ٢ ص٣٢٧ المطبعة الازهرية = القاهرة.

يقدر على معاقبته، مكثراً التشكي ممن لا يقدر عليه لوالده الامير عبد الرحمن. فطال ذلك على الامير فقال لوكيل خاص به عارف بالقيام بما يكلفه به الموضع الفلاني الذي بالجبل الفلاني المنقطع عن العمران: تبني فيه الآن بناء اسكن فيه ابني المنذر.

واوصاه بالاجتهاد فيه.

ففرغ منه وعاد اليه.

فقال له: «تُعْلِمُ المنذرَ اني امرته بالانفراد فيه ولا تترك احدا من اصحابه ولا اصحاب غيره يزوره ولا يتكلم معه البتة، فاذا ضجر من ذلك وسألك عنه فقال له: هكذا امر ابوك».

فتولى الثقة ذلك على ما امر به.

ولما حصل المنذر في ذلك المكان وبقي وحده وفقد خوله ومن كان يستريح معه ونظر الى ما سلبه من الملك ضجر. فقال للثقة:

«عسى ان يصلني غلماني واصحابي اتأنس بهم».

فقال له الثقة: ان الامير امر ان لا يصلك احد وان تبقى وحدك لتستريح مما يرفع لك اصحابك من الوشاية. فعلم ان الامير والده قصد محنته بذلك وتأديبه. فاستدعى دواة وكتب الى ابيه:

«اني قد توحشت في هذا الموضع توحشاً ما عليه من مزيد وعدمت فيه من كنت آنس اليه واصبحت مسلوب العز فقيد الامر والنهي، فان كان ذلك عقابا بالذنب كبيراً ارتكبته وعلمه مولاي ولم اعلمه فاني صابر على تأديبه ضارع اليه في عفوه وصفحه.

«وان امير المؤمنين وفعله   لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

فلما وقف الامير على رقعته وعلم ان الادب بلغ به حقه استدعاه فقال له: «وصلت رقعتك تشكو ما اصابك من توحش الانفراد في ذلك الموضع وترغب ان تأنس بخولك وعبيدك واصحابك، ان كان لك ذنب يترتب عليه ان تطول سكناك في ذلك المكان، وما فعلت ذلك عقاباً لك وانما رأينا تكثر الضجر والتشكي من القال والقيل فاردنا راحتك بان نحجب عنك سماع كلام من يرفع لك وينم حتى تستريح منهم».

فقال له: سماع ما كنا اضجر منه اخف علي من التوحد والتوحش والتخلي مما انا فيه من الرفاهية والامر والنهي.

فقال له: «فاذ قد عرفت وتأدبت فارجع الى ما اعتدته وعوّل على ان تسمع كأنك لم تسمع وترى كأنك لم تر. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو تكاشفتم ما تدافنتم». واعلم انك اقرب الناس الي واحبهم فيّ وبعد هذا فما يخلو صدرك في وقت من الاوقات عن انكار علي وسخط لما افعله في جانبك او جانب غيرك مما لو اطلعني الله تعالى عليه لساءني، ولكن الحمدلله الذي حفظ ما بين القلوب بستر بعضها عن بعض فيما يجول فيها، وانك لذوهمة ومطمح ومن يكن هكذا يصبر ويغض ويحمل ويبدل العقاب بالثواب ويصير الاعداء من قبيل الاصحاب ويصبر من الشخص على ما يسوء فقد يرى منه بعد ذلك ما يُسِّر، ولقد يخفف عليّ اليوم من قاسيت من فعله وقوله ما لو قطعتهم عضواً عضواً لما ارتكبوه مني ما شفيت منهم غيظي، ولكن رأيت الاغضاء والاحتمال لا سيما عند الاقتدار اولى. ونظرت الى جميع من حولي ممن يحسن ويسيء فوجدت القلوب متقاربة بعضها من بعض، ونظرت الى المسيء يعود محسناً والمحسن يعود مسيئاً وصرت اندم على من سبق له مني عقاب، ولا اندم على من سبق له مني ثواب. فالزم يا بني معالي الامور، وان جماعها في التغاضي ومن لا يتغاضى لا يسلم له صاحب ولا يقرب منه جانب ولا ينال ما ترتقي اليه همته ولا يظفر بامله ولا يجد معيناً حين يحتاج اليه.

وانصرف المنذر ولم يزل يأخذ نفسه بما اوصاه والده حتى تخلق بالخلق الجميل وبلغ ما اوصاه به ابوه وارتفع قدره، ومن شعره في ابن عم له:

وممولى ابى الا اذاي وانـني ... لاحلم عنه وهو بالجهل يقصد
تـوددته فـازداد بعـداً وبغضـة ... وهل نافع عند الحسود التودد؟

وقوله:

خـالـف عـدوك فـيـما ... اتـاك فـيـه بـنـصـح
فـانمـا يـبـتـغـي ان ... تـنـام عـنـه فـيـربـح

ومن كرم نفسه ان احد التجار اهداه جارية بارعة الحسن اسمها «طرب» ولها صنعة في الغناء اخذت بمجامع قلبه. فقال لاحد خدمه: ما ترى ان ندفع لهذا التاجر عوضاً عن هذه الجارية التي وقعت منا احسن موقع؟

فقال: تقدر ما تساوي من الثمن وتدفع له بقدرها.

فقومت بخمسمائة دينار.

فقال المنذر للخديم: ما عندك فيما ندفع له؟

فقال: الخمسمائة.
فقال: ان هذا للؤم. رجل اهدانا جارية فوقعت منا موقع استحسان نقابله بثمنها، ولو انه باعها من يهودي لوجد عنده هذا.
فقال له: ان هؤلاء التجار لؤماء بخلاء واقل القليل يقنعهم.
فقال: «وانا كرماء سمحاء فلا يقنعنا القليل لمن نجود عليه فادفع الف دينار، واشكره على كونه خصنا بها واعلمه بانها وقعت منا موقع رضاء وفيها يقول:

«ليس يفيد السرور والطرب ان لم تقابل لواحظي طرب
ابهت في الكأس لست اشربها والفكر بين الضلوع يلتهب
يعجب مني معاشر جهلوا ولو رأوا حسنها لما عجبوا

وقال له ابوه يوماً: «ان فيك لتيهاً مفطراً».
فقال له: «حق لفرع انت اصله ان يعلو».
فقال له: «يا بني، ان العيون تمج التياه والقلوب تنفر منه».
فقال: «يا ابي لي من العز والنسب وعلو المكان والسلطان ما يجمل عن ذلك، واني لم ار العيون الا مقبلة علي ولا الاسماع الا مصغية اليّ، وان لهذا السلطان رونقاً يريقه التبذل وعلواً يخفضه الانبساط ولا يصونه ويشرفه الا التيه والانقباض. وان هؤلاء الانذال لهم ميزان يسبرون به الرجل منا فان رأوه راجحا عرفوا له قدر رجاحته وان رأوه ناقصا عاملوه بنقصه وصيروا تواضعه صغرا وتخفضه خسة.
فقال له ابوه: لله انت: فابق وما رأيت.

ـ ابو الوليد هشام: ذكره ابن حزم فيمن ذكر من بين المعقبين من ولد الامير عبد الرحمن. وتذكر عنه قصة وهو ان اخاه محمداً نافسه في جارية يبدو ان الامير تعشقها قبل ان يصل الى الامارة ثم طلبتها نفسه بعد ذلك فارسل الى اخيه هشام يستهديه اياها. ويتبع معاوية بن هشام تلك القصة بقوله: ان هشاماً المذكور كان من اهل العلم والبصر بالعربية والحديث مكثراً من الرواية عن يحيى بن يحيى وغيره وان اباه الأمير عبد الرحمن كان قد نصبه للصلاة على جنائز اهل قصره.

وقال فيمن اسمه ريحان:

«احبك يا ريحان ما عشت دائماً ولو لامني في حبك الانس والجان

ولولاك لم اهوَ الظلام وسهده ولا حببت لي في ذرا الدار غربان
ومـا اعشق الريحـان الا لأنـه شريكك باسم فيه قلبي هيمان
على انه لم يكمل الظرف مجلس اذا لم يكن فيه مع الراح ريحان

وله فيه:

«اذا انا مازحت الحبيب فـانما قصدت شفاء الهم في ذلك المزح
فما العيش الا ان اراه مضاحكا كما ضحك الليل البهيم عن الصبح»

- ابو بكر يحيى.
- ابو عبد الملك مروان.
- ابو عثمان: هكذا ورد هذا الاسم بالكنية فقط «ابو عثمان» والمرجح ان صحته «عثمان» فقط، فهنـاك من ابناء الامـير عبد الـرحمن من يحمل اسم «عثمان» وهو لم يرد في هذه القائمة فلا بد ان يكون الناسخ قد اضطرب في كتابة هذه الاسماء المتوالية فاضاف «ابو» الى الاسم المذكور. اما عثمان بن عبد الرحمن الذي نشير اليه فيشهد به الحميدي له في الجذوة قائلاً: انه كان شاعراً اديباً اورد بعض شعره ابو عمر ابن مسلمة والى هذه الترجمة اشار ابن الابار في موضعين من الحلة السيراء.
- ابو سعيد مسلمة امية.
- عبد الملك
- الاصبغ
- ابو مروان عبيدالله.
- ابو معاوية سعيد: يذكر ابن حيان ان سعيداً بن عبد الرحمن الاوسط كان في طليطلة عند وفاة والده عبد الرحمن وان عامل المدينة يومئذ كان حارث بن بزيع وذلك حينما انتكث اهل طليطلة وخلعوا الطاعة، فاسـروا عاملهم حارث بن بزيع وهرب سعيد ناجياً بنفسه.
- ابو العاصي بكر ابو الاصبغ عبد العزيز.
- ابو امية العاصي.
- ابو محمد عبدالله: ابو محمد عبدالله هو ابن حظية عبد الرحمن الاثيرة اليه من بين نسائه وهو الذي حاولت امه «طروب» وطنيعتها نصر الخصي ان يولياه الامارة كما سيأتي.
- بشر ابو الوليد الشاعر الاديب وامه الجارية «فجر» التي اطلعها الحراني على دسيسة الخصي نصر لقتل الامير عبد الرحمن كما سنرى.

- ابو حفص عمر
- الاعرج طريف
- ابو العباس الوليد.
- ابو العاصي عبد الجبار.
- ابو عبدالله احمد
- ابو الهاشم العباس.
- ابو القاسم اسماعيل.
- ابو خالد يزيد
- ابو الوليد اسحق والغمر شقيقه.
- ابو القاسم عبد الواحد.
- ابو اسحق ابراهيم.
- ابو القاسم عمر
- ابو عبد الملك المغيرة.
- ابو الاصبغ عثمان.
- الغريض.

ويبدو ان عدد الذكور من ابناء الامير عبدالرحمن كان اكبر مما يذكره الرازي، وقد يكون ابن حزم على حق حينما اوصل العدد الى خمسين او على الاقل الى خمسة واربعين كما يقول ابن عذارى وذلك لان هناك اسماء ابناء لعبد الرحمن بن الحكم لم ترد في القائمة التي يعتمد عليها ابن حيان وهي مأخوذة عن الرازي، مثل «بشر» الذي ترجم له ابن الابار.

وفي كتاب معاوية بن هشام الشبينسي[1] قال: من نبهاء ولد الامير عبد الرحمن «ابو قُصَيْ يعقوب وكان اديباً شاعراً كلف بالعلوم جامعاً للآداب مطبوعاً في الشعر. وكان جواداً ويسرف حتى يخل بنفسه يقال:

«اذا انا لم اجد يوماً وقومي ... لهم في الجود آثار عظام
فمن يرجى لتشييد المعالي ... اذا قعدت عن الخير الكرام؟

١- هو معاوية بن هشام الشبنسي كان اديباً اخبارياً تاريخياً عظيماً وكان ابوه من رجالات الدولة الأموية توفي عام ٩١٢/٣٠٠، اما معاوية فقد كتب تاريخاً في دولة قومه بني مروان وهو الكتاب الذي يعتمد عليه ابن حيان في رواية هذه القصة عن يعقوب. ولابن الشبينسي تأليف في نسب العلوية وغيرهم من قريش سماه «التاج السني في نسب آل علي».

قال حيان: وصفه بالشعر ثم لم ينشد له منه ما يصدق وصفه. بل انشد ثلاثة ابيات من قصيدة مدح بها ابن اخيه العاصي بن الامير محمد بن عبد الرحمن ليست بطائل، والابيات من الوافر:

«ينادي ماجد من عبد شمس كـريم الفرع مفضـال اليـدين
سـما بالمكـرمات فقـد حـواهـا بهـنـديّ وخـطّار رديـني
وغيثـاً حين يسكب لا الثـريا بـه حاذت ولا نـوء البُـطَينْ[1]

الاناث:

والاناث في عدد الرازي ثلاث واربعون كما يقول ابن حيان:

اسماء - عاتكة - عائشة الغالب عليها عيشونة - ام الاصبغ - ام هشام - فاطمة الغالب عليها فطيمة - عبدة - عبدة اخرى - امة العزيز - ام كلثوم - ام عمرو - زينب - ام هشام - عبيدة - ناشدة - قسيمة - عتيكة - كنزة - عزيزة - ام حكيم - مية - ولادة - ام البنين - ولادة - امة الوهاب - ظبي - امة الرحيم - رحيمة - هشيمة - رقية - ام عثمان - ام موسى - امة الرحمن - امة الملك السيدة بريهة - تملال - المنى - حكيمة - ام سلمة - آمنة - السيدة علية[2] - البهاء[3].

وزاد في عددهن معاوية بن هشام الشبينسي ابنتين: امية ومهاة.

١- البُطَينْ: تجويف صغير ومنه في القلب اثنان يدفع منهما الدم في الشرايين.

٢- اشار ابن عذارى الى السيدة علية بنت عبد الرحمن الاوسط وقال: انها توفيت سنة ٩٢٢/٣١٠، ولا بد ان حياتها طالت كثيراً حتى انها ادركت عهد عبد الرحمن الناصر لدين الله، الذي كان بمثابة ابناء احفادها.

٣- بنت الامير عبد الرحمن الاوسط كانت من خير نسائهم من اهل الزهد والعبادة والتبتل، وكانت تكتب المصاحف وتحبسها، وكان لها رغبة في الفضل والخير وهي التي ينسب اليها مسجد «البهاء» في مساجد ربض الرصافة. توفيت في رجب سنة خمس وثلاثمائة لاول دولة الناصر، فلم يتخلف احد عن جنازتها.

الفصل الحادي عشر

عبد الرحمن في حياته الخاصة

الامير عبد الرحمن مضطرب الفكر مشوش البال، عابس الوجه مقطب الجبين. ولا عجب فلا يطلع عليه صباح الا يطلعون عليه بخبر لا يرضيه: نشوب ثورة تجدد عصيان واذا لم يكن في طليطلة كان في ماردة واذا لم يكن في ماردة كان في الثغر الاعلى او في اي مكان من الاندلس.

ففي ماردة ثار البربر بقيادة زعيمين من زعمائهم هما محمود بن عبد الجبار بن زاقلة[1] وهو من بني طريق من مصمودة، وسليمان بن مرتين وانضم اليهما النصارى والمعاهدون. ووجد لويس ملك الافرنج فرصة جديدة للدس والتحريض على قرطبة فبعث الى الثوار يشجعهم ويعدهم بالمدد والعون.

وكان محمود زعيماً قوياً ومغامراً جريئاً فوثب بعامل ماردة وقتله وعاث في تلك الانحاء قتلاً ونهباً وتخريبا. وتوالت اليه بعوث عبد الرحمن فكان في كل مرة يعتصم بالمدينة فاذا غادره الجند عاد الى عيثه وسفكه.

في سنة ٢١٨/٨٣٣ سار اليه عبد الرحمن بنفسه فغادر ماردة في صحبه ومع زميله سليمان وخرجت مع محمود اخته «جميلة» العذراء، وهي فارسة بارعة الحسن اشتهرت يومئذ في جميع انحاء الاندلس بروائع جمالها كما اشتهرت بالشجاعة والنجدة والفروسية ولقاء الفرسان ومبارزتهم في العساكر.

ونزل الثوار بحصن «فرنكش» على ضفة نهر وادي يانه. ثم غادر سليمان زميله واستقل محمود بالعمل وزحف بجموعه على بطليوس ثم على «اكشنوبة ACSANOBA» ثم سار الى باجه فقاتله اهلها ولكنه تغلب عليهم بمعاونة اخته جميلة وبسط سلطانه على باجه، وهو يقاتل خصومه من حوله وبعوث الامير

١- يسميها عبدالله عنان «راحلة».

تتردد اليه حتى لحقه الاعياء واليأس ففر مع اخته وصحبه الى جليقية واستجار بملكها «الفونسه الثاني» فرحب به واكرم وفادته وانزله باطراف مملكته.

وبعد حين رأى الثائر ان يلوذ الى الطاعة فكاتب عبد الرحمن الاوسط. ووقف الفونسه على هذه المحاولة، فخشي ان فلت الثائر منه ان ينقلب حرباً عليه. فسار اليه واحاط به الجند من كل ناحية. ودافع محمود عن نفسه دفاع الابطال ولكنه قتل اخيراً واسر اهله وصحبه. وكانت اخته الحسناء جميلة بين الاسرى ٢٢٥/٨٤٠. ووقعت جميلة في نصيب كبير من زعماء النصارى فحملها على اعتناق النصرانية وتزوج منها. وكان من ولدها فيما بعد رئيس اساقفة شنت ياقب.

ولكن هذه الامور لم تعد تشغل بال عبد الرحمن فقد الفها واصبحت خبزه اليومي ولا ثورة طليطلة تقلقه..

ففي سنة ٢١٤/٨٢٩ ثار بها زعيم من العامة يدعى «هشام الضرّاب». وكان هشام في طليطلة ايام واقعة الحفرة. ثم اخذ بين الرهائن الى قرطبة، فاشتغل بها حداداً مدى حين وعرف بالضرّاب. ثم غادرها الى طليطلة، واجتمع اليه عدد كبير من الاوغاد والسفلة، فاخذ يغير بهم على الانحاء المجاورة حتى اشتد بأسه وطار صيته وهرع الى لوائه اهل الشر والبغي من كل صوب. وسار الى البربر في «شنت برية» فاغار عليهم واوقع بهم. فبعث عبد الرحمن الجند لقتاله بقيادة محمد بن رستم عامل الثغر الادنى. فنشب بينه وبين الثوار عدة وقائع غير حاسمة.

وفي العام التالي بعث عبد الرحمن الى عامله المدد والعون فزحف على الثوار والتقى بهم على مقربة من حصن «سمسطا»، ونشبت بين الفريقين موقعة عنيفة هزم فيها الثوار وقتل هاشم الضرّاب وكثير من اصحابه سنة ٢١٦/٨٣١.

ولكن طليطلة استمرت مع ذلك على اضطرامها. وكان على عبد الرحمن ان يخوض معارك اخرى لاخضاعها. ففي سنة ٢١٩/٨٣٤ ارسل اليها جيشاً بقيادة اخيه امية فحاصرها وانتسف ما حولها من الزروع. ولكن المدينة الثائرة لم تهن ولم تخضع فرحل عنها وترك بعض قواته بقيادة ميسرة الفتى في قلعة رباح الواقعة في جنوبها استعداداً لمحاصرتها. فخرج عندئذ اهل طليطلة لقتال ميسرة فظهر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة فارتدوا الى داخل المدينة وعادوا الى الاعتصام وراء اسوارها المنيعة.

وفي العام التالي سار اليها عبد الرحمن بنفسه فثبتت في وجهه المدينة الثائرة. فترك الجند في قلعة رباح وسار الى الغرب في احواز ماردة ليطارد سليمان بن مرتين زعيم البربر.

وكان سليمان هذا بعد ان تخلف عن زميله محمود بن عبد الجبار كما رأينا، تزعم الثورة في تلك الانحاء فحاصره عبد الرحمن. وحدث ان قتل الثائر في سقطة مميتة عن جواده فانفضت جموعه وخبتت ثورته.

وسير عبد الرحمن في العام التالي حملة اخرى الى طليطلة، ولكن هذه المرة بقيادة اخيه الوليد. فضرب حولها الحصار الصارم، واستمر على حصارها حتى جهد اهلها وضاقوا بالحصار ذرعاً ثم هاجمها واقتحم اسوارها وخضعت المدينة الثائرة بعد اعوام عديدة من فتن وثورات مستمرة كان يغذيها روح التمرد المتأصل في شعبها ودسائس البربر والنصارى من اهلها وتحريض الفرنج والجلالقة.

كان خضوعها في رجب سنة ٢٢٢/٨٣٧.

كل هذا لا يهم عبد الرحمن كثيراً فهو يجري بعيداً عن قرطبة ويمكن مداواته. ولكن ما يقلقه يتعلق به شخصياً ونفسياً وعاطفياً: هذه جاريته طروب قد هجرته منذ ايام وصدت عنه وابت ان تأتيه ولزمت مقصورتها واوصدت الباب دونه.

ما اشد جور النساء، طروب التي احبها ويحبها فوق كل حب تصد عنه وتتصرف معه هذا التصرف.

شاء معرفة سبب صدودها، فاستعرض في ذاكرته الاحداث التي قد تكون ساءتها. لقد سمعها تلمح الى ولاية العهد لابنها عبدالله الذي انجبته منه، ولم يصغ لها كثيراً. فعبدالله ما زال طفلاً والامير ما زال في ريق شبابه فما الداعي الى العجلة؟ هل هذا الحادث آلمها؟ هل تريد ضمان المستقبل لها ولابنها وهذا امر طبيعي ولكن اذا كانت كل جارية من جواريه تطمح الى ولاية العهد لابنها فعلى الدنيا السلام. عبد الرحمن انجب خمسين ولداً ذكراً من جواريه الكثيرات.

لا، ان ذلك لا يكون. طروب لا تغضب لسبب مثل هذا وهي عالمة انني احللتها في قلبي المكان الاول. ثم اني لم انكر عليها رغبتها ولم اقطع لها املها وقد عللتها بالانتظار لا اكثر فالايام طويلة. واذا كانت تُرغب فعلاً في وصول ولدها الى اعلى مرتبة في الدولة فلتسهر على عنايته وتربيته على الاخلاق الطيبة والسيرة الحسنة والآداب السامية. فاني قد تعهدته بعنايتي مثل اولادي الآخرين

وجئتهم باحسن المؤدبين وقد خصصت عبدالله بامور كثيرة لم اخص بها بقية اولادي، والمستقبل يقول كلمته.

واسترسل في تأملاته ولم يجد مبرراً لغضبها، فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من الشوق اليها وجهد ان يترضاها بكل وجه فاعياه ذلك. فارسل نصراً من خاصة خصيانه وغيره من يكرهها على الوصول اليه. فأغلقت باب مجلسها في وجوههم وآلت ألاّ تخرج اليهم طائعة ولو انتهى الامر الى القتل.

فانصرفوا اليه واعلموه بقولها واستأذنوه في كسر الباب عليها فنهاهم وامرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ففعلوا وبنوا عليها بالبدر واقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضياً راغباً في المراجعة على ان لها جميع ما سد به الباب. فاجابت وفتحت الباب، فانهالت البدر في بيتها.

فاكبت على رجليه تقبلهما بعد ان غلقت الباب فالفت نفسها وحيدة مع عبد الرحمن وتناست البدر وهزتها رعشة فارتفعت القبلات الى الساقين، قبلات محمومة واوغلت في اللمس والمداعبة ولم يقو عبد الرحمن على الاحتمال فانهضها وتأملها: عليها قميص سكب، يتبين منه بياض بدنها وتدوير سرتها ونقش تكتها. وفي رجليها نعلان صراران قد اشرق بياض قدميها على حمرة نعليها، مضمومة بفرد ذؤابة تضرب الى حقويها وتسيل كالعثاكيل[1] على منكبيها، وحاجبان قد قوسا على محجري عينيها، وعينان مملوءتان سحراً، وانف كأنه قصبة در وفم كأنه جرح يقطر دماً.

وتأمل هذا الجمال النضيد والحسن الانور فانهارت فيه كل مقاومة وخذله كل تحفظ ونفر عنه كل وقار: لا جارية ولا امير لا سلطان ولا مملوكة، قلبان يضطربان عشقاً وجسدان يتلهفان على لذة الوصال، فبادرته: «انا والله اشتهي ان اضع فمي على فمك والصق صدري بصدرك واضمك الي وتضمني اليك».

فانتشى عبد الرحمن من سماع هذه الكلمات الجياشة باللذة الناهدة الى المتعة. ولبى طلبها فالتصق الفم بالفم والتقى الصدر بالصدر، واغلق ذراعيه حول خصرها وسمع آهاتها وانتقل لسانه الى كتفيها ونحرها وشدها اليه وشدته اليها وانقلب الجسدان متعانقين على الفراش وتعالت انفاسهما سراعاً وغمرتهما لذة الخلوة

---

١ ـ جمع عثكال: عنقود البلح.

وتذوقا الحب كما لو كان هذا اللقاء الأول، فالحرمان الطويل اضرم فيها ناراً لم تعهدها من قبل.

وهمدت العاصفة....

وبثت في اذنيه بخجل وضراعة:

ـ تبيت عندي الليلة لأروي ظمأي منك لادرك ما فاتني بعد طول القطيعة.

ـ على رسلك، وكيف استطيع ان ارد لطروب طلباً مثل هذا، ينزل على قلبي برداً وسلاماً؟

وله مع طروب قصص اخرى، ويقال انه اجنب[1] في بعض غزواته وقد دنا من وادي الحجارة فقام الى الغسل وفكره موقوف على خيال طرقه، فاستدعى شاعره ابن الشمر وقال له: اجز:

«شاقك من قرطبة الساري بالليل لم يدر به الداري»

فقال ابن الشمر بديهة:

«زار فحيا في ظلام الدجى اهلاً به من زائر زاري»

فهاج اشتياقه لصاحبة الخيال، فاستخلف على الجيش ورجع الى قرطبة للتمتع بصاحبة الخيال التي ليست سوى طروب.

ومن قوله فيها:

قتلتني بهواكا وما احب سواكا
من لي بسحر جفون تديره عيناكا
وحمرة في بياضٍ تكسي به وجنتاك
اعطف علي قليلا واحيني برضاكا
فقد قنعت وحسبي ان ارى من رآكا

ندماء عبد الرحمن:

ويروي لنا ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد» جزء ٣ ص ٦١ القصة التالية:

كان عبد الرحمن بن الحكم قد عتب على ندمائه، فامر نصراً الفتى باسقاطهم من ديوان عطائه ولم يستبدل بهم.

---

١ ـ اجنبه: ابعده = اجنب: تباعد

فلما كان بعد ايام استوحش لهم فقال لنصر:

ـ قد استوحشنا لاصحابنا اولئك.

فقال له نصر: «قد نالهم من سخط الامير ما فيه ادب لهم فان رأى ان يرسل فيهم ارسلت.

قال: ارسل.

فاقبل القوم وعليهم كآبة، فاخذوا مجلسهم ولم ينشرحوا ولا خاضوا فيما كانوا يخوضون فيه. فقال عبد الرحمن الاوسط لنصر: ما يمنع هؤلاء من الانشراح؟

قال: عليهم ابقى الامير وجه السخط الذي نالهم.

قال: قل لهم قد عفونا عنهم فلينشرحوا.

قال: فقام عبد الله بن الشمر الشاعر المنجم فجثا بين يديه ثم انشد شعراً له اقذع فيه على بعض اصحابه والصق بهم التهمة في انهم كانوا السبب في سخط الامير عليهم وختم قصيدته ببيتين بديعين هما:

«فيا رحمة الله في خلقه ومن جوده ابدا يسكب
لئن عفت صحبة اهل الذنوب لقل من الناس من يصحب»

ويروي لنا ابن سعيد المغربي في كتابه «المغرب في حلى المغرب» ج ١ ص ٥٠ ـ ٥١ ان الامير عبد الرحمن الاوسط كتب يوماً الى نديمه ومنجمه عبدالله بن الشمر هذه الابيات:

ما تراه في اصطباح وعقود القطر تنثر
ونسيم الروض يختال على مسك وعنبر
كلما حاول سبقا فهو في الريحان يعثر
لا تكن مهمالة واسبق فما في البطء تعذر

ويقول ابن سعيد ان ابن الشمر جاوبه بما تأخر فيه عن طبقته.

ويروي ايضاً ابن سعيد ان عبدالله بن الشمر كان ايام تمكن نصر الخصي من عبد الرحمن الاوسط، كان يقل من زيارة محمد بن عبد الرحمن لأن العداوة كانت قائمة بين نصر الخصي وولي العهد محمد بن عبد الرحمن، فكان الشاعر لهذا السبب يقلل من زيارة محمد. فلما هلك نصر قال شعراً منه:

لئن غاب وجهي عنك ان مودتي لشاهدة في كل يوم تسلم

وما عـاقني الا عــدو مسلط ... يذل ويشجي من يشاء ويرغم
ولم يستطل الا بكم وبعزمكم ... وما ينبغي ان يمنح العز مجرم
فنحمـد ربـاً سـرنـا بهـلاكـه ... فما زال بالاحسان والطول ينعم.

وقد جاء في البيان المغرب ان الغزال دخل يوماً على الامير عبد الرحمن بن الحكم فقال له الامير: «جاء الغزال بحسنه وجماله»

فقال له الوزير: «اجز ما بدأ به الامير».

فقال له الغزال:

قـال الامـير مـداعبـاً بمقـالـه ... جـاء الـغـزال بحـسنـه وجمـالـه
اين الجمـال من امـرىء اربى على ... مـتعـدد الـتسعـين من احـوالـه
وهل الجمال - له الجمال - من امرىء ... القـاه ريب الـدهـر في اغـلالـه
واعـاده مـن بعـد جـدتـه بـلى ... واحـال رونق حـالـه عن حـالـه.

ويقول يحيى الغزال في مكان آخر بهذا المعنى:

تـسـألـني عـن حـالـتي ام عـمـر
وهي تـرى مـا حـل بي من الغـير
ومـا الـذي تسـأل عنـه من خبـر
وقد كفاهـا الكشف عن ذاك النظر
ومـا تكـون حـالتي مـع الـكبـر
اربـد مني الـوجـه وابيض الشعر
وصـار رأسي شهـرة من الشهـر
ويـبسـت نضـرة وجـهي واقـشعـر
ونقص السمـع بنقصـان الـبصـر
وصـرت لا انهض الا بعـد شـر
لـو ضـامني من ضـامني لم انتصر
فـانـظر الي واعـتبـر ثـم اعتبـر
فـان لـلحـليـم فيّ مـعـتـبـر

وقال في هذا المعنى ايضاً:

الست ترى ان الزمـان طواني ... وبـدل خـلقي كـله وبـراني
تحيفني عضواً فعضوا فلم ادع ... سوى اسمي صحيحاً وحده ولساني

ولو كانت الاسماء يدخلها البلى لقد بلي اسمي لامتداد زماني
وما لي لا ابلى لتسعين حجة وسبع اتت من بعدها سنتان
اذا عن لي شخص تخيل دونه شبيه ضباب او شبيه دخان

عباس بن فرناس:

ومن ندماء الامير عبد الرحمن الاوسط عباس بن فرناس وهو شخصية عجيبة، لا يعرف اصله بالضبط فالبعض يجعله اسبانياً. ولد في رندة، والبعض الآخر يرى انه مغربي الاصل. كان عالماً بالرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والموسيقى ايضاً، فقد ابدع ابداعات لطيفة واختراعات عجيبة وضرب بالعود وصاغ الالحان الحسنة وكان مع ذلك مجيداً للشعر حسن التصرف في طريقته كثير المحاسن جم الفوائد.

وكان الامير عبد الرحمن الاوسط يستأنس به وكان يغني بين يديه من رقيق نظمه. ومما غنى له المقطوعة التي مطلعها:

الجهل ليل ليس فيه نور والعلم فجر نوره مشهور

والمقطوعة التي مطلعها:

محمد اكرم مستخلف من خلفاء الله في الارض

يروي المؤرخون انه حاول الطيران فكسا نفسه بقوادم النسر وصنع له جناحين على هيئة اجنحة الطيور وربطها في جسمه بشرائط دقيقة من الحرير المتين. ثم قام بمحاولته من ناحية «الرصافة»، فحلق في الهواء مدة واستطاع ان يطير الى مسافة بسيطة ولكنه اخفق في تقدير وزن الجسم فسقط على الأرض واصيب ببعض الكدمات. وان اخفاقه يرجع الى عدم اتخاذه ذنباً او ذيلاً يعينه على التخفيف من حدة السقوط، وتعتبر هذه اول محاولة للطيران في العالم.

ويروى ايضاً ان عباس بن فرناس صنع في بيته قبة على شكل السماء بما فيها من نجوم وافلاك وانه استطاع ان يحدث فيها ظواهر الرعد والبرق بطرق آلية. فهي دراسة تجريبية تطبيقية لعمليات الظواهر الطبيعية.

كذلك ينسبون اليه انه اشتغل بالكيمياء وانه كانت تخرج من داره قناة يجري فيها ماء احمر كالدم وانه عرف نوعاً من الزجاج الشفاف الطبيعي وقلده بالزجاج الصناعي لأنه عرف تكوينه عن طريق الصناعة كذلك.

والى جانب هذه النواحي العلمية، كان عباس بن فرناس عالماً باللغة العربية وآدابها.

ويروون في ذلك ان تاجراً عراقياً حمل الى الامير عبد الرحمن الاوسط كتاب العروض للخليل بن احمد فاستعصى على الامير فهمه. وظل الكتاب مهملاً في القصر لا يفهمه احد الى ان سمع به العباس بن فرناس فطلب من الامير ان يأذن له بالاطلاع عليه. فلما قرأه لاحظ بذكائه ان الكتاب ناقص من اوله. فارسل الامير الى المشرق من احضر هذا الجزء الناقص واستطاع عباس بن فرناس بذلك ان يفهمه ويشرحه للناس فكان اول من اخذ عنه علم العروض بالاندلس. وقد منحه الامير عبد الرحمن الاوسط ثلاثمائة دينار وكساه.

وهذه قصة عن عباس بن فرناس وهي قصة تثير الاعجاب حقاً. كان الناس في القرون الوسطى ينفرون من المشتغلين بالكيمياء والفلك ويرمونهم بتعاطي السحر. وكان السحر في العصور الوسطى من الصناعات المكروهة ايضاً. ولهذا كان عباس بن فرناس هدفاً لحملات العامة وبعض الخاصة الذين يفكرون على هذا النحو، فاتهموه بالزندقة وتعاطي السحر ورفعوا عليه دعوى الى القضاء.

سمع القاضي شهادة الناس وهي انه كان يشتغل بالليل في بيته باحراق النار وان المياه الملونة بالاحمر تجري من قناة داره وانه في روحاته وغدواته كان يهذي ويقول: فعول فعيل.

ولكن القاضي كان واسع التفكير فلم يجد ما يؤخذ على الرجل وبرأه من هذه التهمة[1] وكان بينه وبين مؤمن بن سعيد مهاجاة فافحش الاثنان، وقال فيه مؤمن:

«يطم على العنقاء في طيرانها اذا ما كسا جثمانه ريش قشعم[2]»

ومن قول ابن فرناس فيه:

«ترى اثر الاعواد في جحر مؤمن كآثار قضب في رماد مغربل»

مؤمن بن سعيد بن قيس:

انه فحل شعراء قرطبة كان يهاجي ثمانية عشر شاعراً فيعلوهم. وكانت آفته التهكم بالناس وتتبع زلاتهم وتمزيق اعراضهم فرموه عن قوس واحدة.

١- احمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والاندلس: مؤسسة الثقافة الجامعية - اسكندرية ص ١٦٧

٢- طم: علا وغلب. القشعم: المسن من النسور.

ورحل الى المشرق فلقي ابا تمام الطائي وروى عنه شعره، وكان يقرأ عليه في الأندلس، وقرأ عليه يوماً احد المتعلمين قول حبيب:

«ارض خلعت اللهو خلعي خاتمي   فيهـا وطلقت السـرور ثـلاثـا

فقال له: من سرور هذه اصلحك الله؟ فقال: هي امرأة حبيب وقد رأيتها ببغداد.

وحمله طبعه الذميم على ان افسد حاله عند مستخلصيه هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد. ولما اسر هاشم شمت به. وقال مخاطباً ابا فحص بن عم هاشم وعدوه:

«تصبح، ابا حفص، على اسر هاشم   ثـلاث زجـاجـات وخمس رواطـم
وبـح بالـذين قد كنت تخفيـه خفية   فقـد قـطع الـرحمن دولـة هـاشم

وقال هذه القصيدة سراً وصنع على وزنها قصيدته:

«متى ترجع الأيام دولة هاشم   ويملكهـا نـور العـلا والمكـارم

ولم يخف على هاشم وبنيه قصيدة الشماتة. فلما عاد هاشم الى وزارته وخلص من الأسر نصب له حبائل السعاية عند الأمير محمد حتى اطال حبسه الذي ادى به الى الهلكة ولم يفده ما اطاله في حبسه من النظم والنثر واكثر التشفع بجد هاشم: محمد بن جهور فلم يفده فاقذع في هجائه وفي ابي حفص المتقدم الذكر يقول:

اخاطر في هدى عمر بـرأسي   اليس اعـز من رأسي عليـا؟

ولما كسر اهل سجن قرطبة السجن وفروا منه، رغب مؤمن عن الفرار وظن ان ذلك يخلصه، فلما وقف هاشم بباب الحبس لمعاينة من فيه والنظر في امره، خرج اليه مؤمن واستعطفه، فلم يلتفت اليه واوصى السجان بايصاده. فقتله اليأس الى ستة ايام ليلة الثلاثاء لأربع خلون من رجب سنة سبع وستين ومائتين.

وجعله الحجاري دعبل الأندلس.

وانشد له الحميدي:

حرمتك مـا عدا نـظرا مضرا   بـقلب بـين اضـلاع مـقيـم
فعيني منـك في جنـات عـدن   مخـلدة وقلبـي في الحـجيـم.

يحيى بن حكم الغزال:

وهذا ايضاً كان من ندماء الأمير عبد الرحمن الأوسط. وقد ذكر الحميدي في جذوة المقتبس ان يحيى بن حكم الغزال ولد سنة ١٥٦ ومات سنة ٢٥٠هـ وهو ابن اربع وتسعين سنة.

كانت شخصية الغزال متميزة فقد كان جميل الشكل في شبابه وشيخوخته وكهولته. وعرف الغزال طوال حياته بالذكاء والألمعية وحضور البديهة وكانت هذه الصفات في جملة ما قربه الى البيت الأموي.

كان جريئاً صريحاً يقول ما يعتقده ويصرح بما يجول في نفسه ومن هنا برز شعر الهجاء والتعريض والنقد الاجتماعي في ديوانه

قال ابن دحية في صفته انه اختير سفيراً لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر وبديهة الرأي وحسن الجواب والنجدة والاقدام والدخول والخروج من كل باب

وكان الغزال مثقفاً ثقافة عامة واسعة فقد وصفه المقري بالعراف لمعرفته بعلم النجوم ويضاف الى هذه الأوصاف انه كان في شبابه الأول متلافاً قليل الاحتراز. كان على معرفة اشتهرت له بعلم الحساب وهذا مفهوم لاشتغاله بالفلك والنجوم

ضاع ديوانه وكان قد جمعه حبيب بن احمد الشطجيري ورتبه على الحروف. كانت اغراضه الغزل والهجاء والمدح[1]

ومن شعره:

قالت: احبك. قلت كاذبة ... غرى بذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست اقبله ... الشيخ ليس يحبه احد
سيان قولك ذا وقولك ان ... الريح نعقدها فتنعقد
او ان تقولي: النار باردة ... او ان تقولي: الماء يتقد.

وقال ايضاً:

لعمري ما ملكت مقودي الصبا ... فامطو للذات في السهل والوعر
ولا انا مما يؤثر اللهو قلبه ... فامسي في سكر واصبح في سكر

---

١ ـ ديوان يحيى بن حكم الغزال: الدكتور محمد رضوان الدايه دار قتيبة ـ دمشق.

ولا قارع باب اليهودي موهنا   وقد هجع النوام من شهوة الخمر
[1]واوتغه الشيطان حتى اصاره   من الغي في بحر اضل من البحر
اغذ السرى فيها اذا الشرب انكروا   ورهني عند العلج ثوبي من الفجر
كأني لم اسمع كتاب محمد   وما جاء في التنزيل فيه من الزجر
كفاني من كل الذي اعجبوا به   قليلة ماء تستقي لي: من النهر
ففيها شرابي ان عطشت وكل ما   يريد عيالي للعجين وللقدر
بخبز وبقل ليس لحما وانني   عليه كثير الحمد لله والشكر
فيا صاحب اللحمان والخمر هل ترى   بوجهي اذ عاينت وجهي من ضر
وبالله لو عمرت تسعين حجة   الى مثلها ما اشتقت فيها الى خمر
ولا طربت نفسي الى مزهر ولا   تحنن قلبي نحو عود ولا زمر
وقد حدثوني ان فيها مرارة   وما حاجة الانسان في الشرب للمر؟
اخي، عد ما قاسيته وتقلبت   عليك به الدنيا من الخير والشر
فهل لك في الدنيا سوى الساعة التي   تكون بها السراء او حاضر الضر
فما كان منها لا يحس ولا يرى   وما لم يكن منها عمي عن الفكر
فطوبى لعبد اخرج الله روحه   اليه من الدنيا على عمل البر
ولكنني حدثت ان نفوسهم   هنالك في جاه جليل وفي قدر
واجسادهم لا يأكل الترب لحمها   هنالك لا تبلي الى آخر الدهر

وقال ايضاً:

وخيرها ابوها بين شيخ   كثير المال او حدث فقير
فقالت: خطتا خسف وما ان   ارى من حظوة للمستخير
ولكن ان عزمت فكل شيء   احب الي من وجه الكبير
لأن المرء بعد الفقر يثرى   وهذا لا يعود الى صغير

او هذه القصيدة المأخوذة من العقد الفريد:

«اقر السلام على الف كلفت به   قد رمت صبرا وطول الشوق لم يَرِمِ
ظبي تباعد عن قربي وعن نظري   فالنفس والهة من شدة الألَمِ
كنا كروحين في جسم غذاؤهما   ماء المحبة من هام ومنسجم
الفين هذا بهذا مغرم كلف   وواحد في الهوى منا بمتهم

---

1 - وَتِغ يَوْتَغ وتغاً اثم - هلك في الدين والدنيا. اوتغه: اهلكه.

لله تـلـك الـلـيـالي والـسـرور بـهـا   كـأنمـا ابصـرتهـا العـين في الحلم
ففـرق الـدهـر شمـلا كـان ملتئـما   منـا وجمـع شمـلا غـير مـلتئـم
مـا زلت ارعى نجوم الليـل طالعـة   ارجو السلو بها اذ غبت عن نجمي
نجم من الحسن ما يجري به فلـك   كـأنـه البـدر والـيـاقـوت في الـنظم
ذاك الـذي حاز حسنـا لا نظير لـه   كـالبدر نـورا عـلا في منزل النعم
وقـد تنـاظـر والبـرجيس في شـرف   وقـارن الـزهـرة البيضـاء في تـوم[1]
فـذاك يشبهـه في حسن صـورتـه   وذا يـزيـد بحظ الشـعـر والقـلم
اشكـو الى الله مـا القى لفـرقتـه   شكـوى محب سقيم حافظ الـذمم
لو كنت اشكو الى صم الهضاب اذا   تـفـطرت الـذي ابـديـه مـن الم
يـا غادرا لم يـزل بالغـدر مـرتـديـا   اين الـوفـاء ابن لي غـير محتشـم
ان غاب جسمك عن عيني وعن نظري   فـما يغيب عن الأسـرار والـوهـم
اني سـأبكيـك مـا نـاحت مـطوقـة   تبكي اليفـا عـلى فـرع من النشم[2]

وقال:

ان الفتـاة وان بـدا لـك حبهـا   فـبـقـلـبـهـا داء عـلـيـك دفـين
واذا ادعـين هـوى الكبـير فـانمـا   هـو لـلكـبـير خـديعـة وقـرون
واذا رأيت الشيـخ يهوى كـاعبـا   فـعليـه مـن درك القـرون ديـون

ومن قوله ايضاً في المرأة:

يـا راجـيـا ود الـغـواني ضـلـة   فـفـؤاده كـلـفـا بهـن مـوكـل
لا تـكلفـن بـوصـلهـن فـانمـا الـ   ـكلف المحب لهن من لا يعقـل
ان النسـاء لكـالسـروج، حقيقـة   فالسـرج سـرجـك ريثـما لا تنـزل
فـاذا نـزلـت فـان غيـرك نـازل   ذاك المكـان وفـاعـل مـا تفعـل
او منـزل المجتـاز اصبـح غـاديـا   عـنـه وينـزل بعـده من ينـزل
او كـالـثمـار مبـاحـة اغصـانها   تـدنـو لأول مـن يمـر فـتـؤكـل
اعط الشبيبـة، لا اب لـك حقهـا   منهـا فـان نعيـمهـا متـحـول
واذا سلبت ثيـابهـا لم تـنـتـفـع   عنـد النسـاء بكـل مـا يستبـذل

---

١ ـ البرجيس: المشتري
٢ ـ النشم: شجر تتخذ منه القسي

وقال ايضاً:

«فارعة الجسم هضيم الحشا كالمهرة الضامر لم تركب
او درة ساعة ما استخرجت لم تمتهن بعد ولم تثقب
مشربة اللون متوع الضحى صفراء بالأصال، كالمذهب

خصال ومناقب الأمير عبد الرحمن الأوسط

قال احمد بن محمد الرازي: «كان الأمير عبد الرحمن مقدم الطبقة في البلاغة مطبوعاً في الكتابة مقتدراً على ما حاول من سني البيان المنثور والمنظوم مؤثراً لمن يحسنهما مقرباً بوسيلتهما وكان له التوقيع الوجيز والقريض المستحسن.

فمما شهر من موجز توقيعه:

توقيع له الى بعض من سأله من مواليه توليته عملاً لم يكن من اهله:

«من لم يعرف وجه مطلبه كان الحرمان اولى به».

ووقع الى ابنه المنذر وكان من بين ولده بليغاً مفوهاً، فكتب اليه يسأله ان يأذن له في اعتلاء المنبر بالبلد الذي كان يليه له ليقيم صلاة الجمعة ويخطبهم ليحيى رسوم سلفهم وينوه به في اتباعهم فوقع على ظهر كتابه:

قالت الحكماء: «لو كان الكلام من فضة لكان الصمت من ذهب واني لأشفق عليك مما تحسنه فكيف مما توهّم عليك بعض التقصير فيه بملحم سداهما ومقتدح زنادهما ومجاريهما في مضمار باطلهما: زرياب المغني، تالي وحي الشيطان وثالث اثافي السلوان، ما له من متعة نعيم تملك القلوب وتصور اليها الآذان لو ان حيا يسلم من الحدثان.

ما زلنا ننقل عن احمد بن محمد الرازي: يقول: «قرأت في كتاب معاوية بن هشام الشُبينَسي قال: من ابدع مكارم الأمير عبد الرحمن الأوسط الدالة على رِفعة نفسه وفرط استحيائه ورقته التي لم يكن يعدله فيها احد من اهل بيته ان أُحضِر يوماً مال كثير اتاه من بعض النواحي جلس لايعابه في بِدَره، وقد امر خدمه الصقالبة بتولي ذلك ونضده بين يديه الى ان يأمر رفعه الى بيت المال فأخذوا في ذلك على عينه.

واعترته سِنَة غضّ لها من طرفه خالها بعض شرهائهم نعاساً فمد يده الى بدرة من ذلك المال اختلسها حين غفلة من اصحابه فصيرها في حضنه والأمير ينظر اليه.

فلما اكملوا نضد البدر امرهم باعادة عدها فاصابوها تنقص تلك البدرة المختلسة فتراموا بسرقها، واشتد بينهم التنازع فيها فلما اكثروا قال لهم الأمير:

ـ حسبكم، كفوا عن ذكرها فقد اخذها من لا يردها ورآه من لا ينمّ عليه فاياه واياكم من العود لمثلها فان كبير الذنب يهجم عن استنفاد العفو. ارفعوا المال واقلوا المقال.

فاشتد عجب من سمع به من سعة كرمه وشدة حيائه.

ومما يروى عنه ايضاً انه تردد عليه بعض مواليه يسأله استخدامه بلطائف الرغبة وترقيق الملاطفة فقال له:

«لم يتقدم لك عندنا خبرة نوليك بها ولا تجربة نقدمك بسببها غير ما رأيناه من بلاغتك وحسن خطابك فيما يرد علينا من كتبك. فان كنت كاتبها فقد جودت واحسنت وان كنت تطلبت بعنايتك وتخيرت بفضل همتك من حسن ذلك عنك فقد احسنت في العناية وفضلت في الهمة فانت بكلتي الحالتين متقدم، وقد رجونا باستلطافك لعلمك وتهذيبك لخدمتك وقد وليناك على الرجاء فيك فصدق ما خيله الظن فيك فانك ان حافظت على ادنى حظك ادركت اقصاه، وان احسنت في بدئه نلت احسن عقباه

ومن شعره:

«ولقد تعارض اوجه لأوامر فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ ان يحوِ النهى بتجارب فشباب رأي القوم عند شبابها.

كان مكان الأمير عبد الرحمن من صلة الرحم والحنو على القرابة على حال لم يساوه فيها احد من اهل بيته، وكان قد اختص فوقهم جميعاً اخاه ابا عثمان سعيد الخير بن الأمير الحكم، فحباه بصداقته من بين سائر اخوته من وقت نشأتهما ايام ابيهما. فلما ان صار الأمر اليه تضاعف اختصاصه «لسعيد الخير» وانس به ومباطنته اياه والصاقه به. فصار ينادمه ويخلو به ويتصرف معه في مغازيه وصيوده ولا يصبر عنه حتى اعتلت حال سعيد في اهل بيته وحسدوه على ما اتيح له من الزلفى الى الأمير عبد الرحمن. وكان سعيد في ذاته سيداً جوادا.

وفي ذات يوم كان في مجلس سمر وغناء اقامه في دار جديدة البناء وقعد في بعض خلواته للأنس مع جواريه والالتذاذ باغانيه.

فبينما هو منغمس في نعمته لاه بمسرته، اذ انهارت تلك الستارة السامية التي كان علاها على مجلسه الذي كان قاعداً فيه من داء استبطنها لم يشعر به لما

اراده الله من عرض قدرته عليه. فخر المجلس على من كان فيه من نسائه وخدمه وسحقهم سحقاً وقضى الله بنجاته من بينهم بأدق سبب من قبل جائزة[1] صلبة من جيزان المجلس تعرضت فوقه فامسكت عنه اذى الهدم ونجا تحتها هو وجارية له حظية كان قد اجلسها الى جنبه كانت تسمى «منتهى المنى»، ام ولده مروان تجت بنجائه وهلك جميع جواريه اشنع هلاك وكن اربع عشرة جارية.

فارتجت المدينة من شناعة قصته واتصل خبره باخيه الأمير عبد الرحمن فسر بنجاته سروراً هون عنده جميع ما اصابه واخلف عليه بكل جارية هلكت اثنتين، فارسل اليه ثمان وعشرين جارية بما لهن من نشب وكسوة ودفع اليه مالاً واسعاً يعيد له بناءه ويطرد به شعثه[2]. فاعتدلت حال سعيد وجبر كسره واتصلت الفته بالأمير عبد الرحمن وبابنه الأمير محمد بعده.

طالت حياته الى ان توفي في ايام الأمير محمد صدر ربيع الآخر سنة اربعين ومائتين وهذا هو التاريخ الأقرب الى الصواب والمعقول لأن ابن حيان كان قد ذكر ان سعيد الخير بن الحكم بين من توفوا سنة ٢٣٦ بينما يذكر هنا ان حياته امتدت الى ان ادرك ايام الأمير محمد بن عبد الرحمن وتوفي في اول عهده سنة ٢٤٠ وقد احتفل الأمير محمد بدفنه اجمل احتفال اذ انه ارسل بكفنه وحنوطه وطيبه من عنده وعهد الى بنيه واخوته واهل بيته ووزرائه واهل خدمته بشهوده والمشي بين يدي نعشه.

وقد دخل الأندلس من بني مروان على ايام الأمير عبد الرحمن الأوسط ابو القاسم بكار بن عبد الواحد بن داود بن سليمان بن عبد الملك بن مروان ودخل معه ابن اخيه ابو سعيد مسلمة بن عبد الملك فكرمهما الأمير عبد الرحمن ورحب بهما وانزلهما واحسن اليهما واقطعهما واجرى لكل واحد من الرزق بالمشاهرة ثلاثين دينارا.

---

١ ـ يدل استخدام لفظ «الجائزة» هنا على ان المقصود بها هو لوحة طويلة من الخشب، وقد رأينا في وصف المسجد الجامع باقليش: «ومن العجائب البلاط الأوسط من مسجد جامع اقليش، فان طول كل جائزة من جوائزه مائة شبر واحد عشر شبراً وهي مربعة منحوتة مستوية الأطراف. ولكن الاستعمال هنا يدل على ان اللفظ ينصرف الى ان يكون سارية او عموداً عالياً من الحجر أو الرخام وقد جمع ابن حيان جائزة فاصبحت «جيزان» فهو جمع غير مألوف، والصيغة التي جاءت في الحميري وفي نفخ الطيب هي «جوائز» وهي اقرب الى الشائع المتعارف.

٢ ـ الشَعْث: ما تفرق من الأمور.

ودخل بعدهما من اهل بيتهما الى الأمير عبد الرحمن الثاني سنة ست وثلاثين ومائتين شكمة بن عبد الملك بن عبد الواحد بن داود بن سلمان فاجراه مجراهما.

ودخل الأندلس ايضاً من هؤلاء المروانية ايام الأمير عبد الرحمن الثاني اصبغ بن محمد بن سعيد الخير بن عبد الملك بن مروان فانزله الأمير عبد الرحمن وكرمه واقطعه فالقى عصاه بالأندلس وانسل فعرف ولده ببني السعيدي وهم باشبيلية.

ووجدت بخط عبادة الشاعر قال:

الشريف دحون بن الوليد واسمه حبيب بن الوليد بن حبيب الداخل الى الأندلس، ودحون لقب له غلب عليه، ويكنى ابا سليمان وان جده حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان صاحب طليطلة، وبنو دحون اعيان «بلكونة» من اعمال قرطبة، رسوا بها ووصفه بالفروسية والأخلاق الملوكية والأدب وهو القائل:

«قل لبرق اضاء من نحو نجد — كيف بالله ساكن الجزع بعدي
اتراهم على العهود اقاموا — ام ترى البين قد اخل بعهدي
من يكن في الدنو غير وفي — كيف يرجى وفاؤه في البعد؟

ولما قال:

لاضرمن جميع الأرض قاطبة — نارا وابلغ ما لا يبلغ الأجل
انا الذي ليس في الدنيا له مثل — وبارتقائي في العليا جرى المثل.

سجنه عبد الرحمن الأوسط ثم تشفع فيه فسرحه ورحل الى اهل المشرق في ايام الأمير عبد الرحمن الأوسط حج فيها ولقي علية اهل الحديث فكتب عنهم وقدم الى الأندلس بعلم كثير. فذهب الى نشره، فكان يجلس حلقة في المسجد الجامع بقرطبة وهو يلبس الوشي الهشامي وما شاكله فتكاثر الناس عليه فكره ذلك الأمير عبد الرحمن واوصى اليه بترك التحلق وقال له: «انك جد من قريش ومنا بحيث تعلمه ولا يصلح هذا الأمر بك فدعه». فترك ذلك.

وقيل: جرت لدحون في سفرته مع والي بني العباس بدمشق قصة طريفة حكاها اسحق بن سلمة عن ابنة ولده عبدة بنت بشر بن دحون عن ابيها بشر قال:

دخل ابي دحون الى مدينة دمشق وطنهم الأقدم في رحلته الى المشرق، وعاملها يومئذ لأبي اسحق المعتصم، عمر بن فرج الرخجي مولى بني العباس. فاتفق ان وافق كونه فيها ايام غلاء نزل باهلها وارتفاع سعر ضجوا منه فاخذ الرخجي بضبطهم بان امر بازعاج من عندهم من الطارئين عليهم من اهل البلاد والغرباء، وجعل على كل من اخذ من ابناء السبيل بعد انقضاء الأجل الذي ضربه لهم ان يحل به اشد العقاب.

فابتدر الغرباء الخروج عنها واقام دحون لم يتحرك فجيء به الى الرخجي بعد الأجل فقال له:

ـ ما بالك عصيت امري؟ أو ما سمعت ندائي؟

فقال له دحون: ذلك قدر لأني ابن بجدتها وانتمي له.

قال الرخجي: صدقت، والله، ما انت فيها غريب وانك لاحق بالاقامة فيها منا فاقم ما احببت وانصرف اذا شئت.

وذكر اسحق بن سلمة عن احمد بن عبد الله الحبيبي عن جده قال: «لما حج حبيب دحون بمكة مع ابن عمه محمد بن يزيد بن سلمة. وكان مطمئناً ببلده بالشام بحال حسنة، فوهب له محمد جارية تسمى «عابدة المدنية» ام ولد حبيب بن الوليد المرواني الملقب بدحون كانت جارية سوداء حالكة من رقيق المدينة تروي عن انس بن مالك وغيره من علماء المدينة فتسند حديثاً كثيراً لدحون في رحلته الى الحج. فقدم بها الأندلس وقد اعجب بعلمها وفهمها واتخذها لفراشه فولدت له بشر ابن حبيب. وكانت تسند عشرة آلاف حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثاني عشر

حوادث جرت على عهد عبد الرحمن

احتلال جزيرتي ميورقة ومنورقة

انشأ الامير عبد الرحمن الأوسط اسطولاً بعد ان علم ان البحر هو الميدان المناسب لقهر خصومه الكارولنجيين اذ كان يعلم ان قوتهم الحقيقية تعتمد اساساً على قوتهم البرية وان قواتهم البحرية محدودة وقد ازدادت ضعفاً في عهد الملك «لويس الورع» فحشد عبد الرحمن اساطيله على طول الساحل الشرقي الاندلسي وبنوع خاص في طرطوشة وبلنسية وشرع يشن الغارات على الشواطىء الكارولنجية في جنوب فرنسة حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسيلية وآرل وما حولها.

ولم تقتصر غارات الاسطول الاندلسي على قواعد الفرنجة وسواحلهم الجنوبية بل شملت ايضاً الجزر الشرقيات «البليار» التي كانت خاضعة لحمايتهم. ويبدو ان سكان هذه الجزر شعروا بعدم الفائدة من الارتباط بعجلة الدولة الرومانية المقدسة الكارولنجية فسارعوا الى قبول سيادة الامويين وتعهدوا بعدم التعرض لسفن المسلمين وفي ذلك يقول المؤرخ القرطبي ابن حيان:

«وفي سنة اربع وثلاثين ومائتين (٨٤٨ اغزى الامير عبد الرحمن الأوسط اسطولاً من ثلاثمائة مركب الى اهل جزيرة ميورقة ومنورقة لنقضهم العهد والحاقهم الضرر بمن مر اليهم من مراكب المسلمين ففتح الله عليهم واظفر بهم فاصابوا سباياهم وفتحوا اكثر جزائرهم).

وانفذ الامير فتاه شنظير الخصي الى ابن ميمون عامل بلنسية ليحضر تحصيل الغنائم ويقبض الخمس. وكان قد صالح بعض اهل تلك الحصون على ثلث اموالهم وانفسهم واحصيت رباعهم واموالهم وقبض منهم ما عليه صولحوا.

وفي السنة التالية اي ٢٣٥/٨٤٩ ورد كتاب اهل ميورقة ومنورقة الى الامير عبد الرحمن يذكرون ما نالهم من سخطه مستقيلين لعثراتهم لديه راغبين في صفحه واقالته، فعطف عليهم واقالهم زلتهم واجابهم الى مسألتهم واعطاهم ذمته وجدد لهم عهده، فكتب اليهم ما جاء فيه:

«اما بعد فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه امركم واغارة المسلمين الذين وجهناهم اليكم لجهادكم واصابتهم ما اصابوه منكم من ذراريكم واموالكم وما اشفيتم عليه من الهلاك وسألتم التدارك لامركم وقبول الجزية منكم وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة والنصيحة للمسلمين وكفّ مكروههم والوفاء بما تحملونه عن انفسكم ورجونا ان يكون فيما عوقبتم به صلاحكم وتمنعكم عن العود الى مثل ذلك الذي كنتم عليه وقد اعطيناكم عهد الله وذمته»[1].

ويقول الدكتور احمد مختار العبادي: «يتضح لنا ان الجزر الشرقيات (البليار) قد خضعت لنفوذ حكومة قرطبة في سنة ٢٣٤/٨٤٨ وان كان من المعروف ان هذه الجزر لم تضم نهائياً وتحكم حكماً مباشراً بواسطة عمال الدولة الاموية الا منذ سنة ٢٩٠/٩٠٢ حينما ارسل اليها الامير عبدالله بن محمد قائده عصام الخولاني حاكماً عليهما.

على انه ينبغي ان يلاحظ هنا انه رغم هذه الانتصارات التي احرزها الامير عبد الرحمن الأوسط على خصومه الفرنجة وحلفائهم في البحر الابيض المتوسط فان البحرية الاندلسية في عهده كانت ما تزال محدودة في امكاناتها ووسائلها فلم تكن لديها القواعد والمحارس والسفن الكافية لحماية جميع سواحلها ولا سيما الغربية منها ولهذا عجزت عن حمايتها عندما هاجمها الاردمانيون الذين يملكون سلاحاً جديداً: تحركاتهم السريعة واسهمهم النارية الخاطفة واشرعة سفنهم السوداء التي جعلت بعض المعاصرين يراها وكأنما ملأت البحر طيراً جوناً، (والجون هو ضرب من القطا سود البطون والاجنحة)»[2].

---

١ ـ ابن عذارى: البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٢ ـ ١٣٣

٢ ـ احمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والاندلس ـ مؤسسة الثقافة الجامعية ـ الاسكندرية ص ١٤٨.

سيلان نهر قرطبة

يروي لنا ابن حيان انه في سنة خمس وثلاثين ومائتين طما سيلان عظيم بنهر قرطبة في شهر رجب القمري الموافق لشهر يناير كانون الثاني الشمسي ٨٥١ رأس سنة العجم بالاندلس عدا في امهات السيول وحمل وادي شنيل ايضاً.

ونهر شنيل GENIL هذا تقع عليه مدينة غرناطة هو احد فروع وادي الكبير «نهر قرطبة» ونهر شنيل هذا نهر صغير يجف عادة في ايام الصيف وحتى في ايام الشتاء اذا لم تكن السنة ممطرة. وقد بالغ الاندلسيون واهل غرناطة خاصة في تصوير قيمته حتى انهم جعلوا اسمه مرادفاً لقولهم: «الف نيل» وذلك لان حرف الشين كما يقول لسان الدين بن الخطيب يساوي عند اهل المغرب عدد «الف» فمعنى شنيل اذاً الف نيل وبذلك ذكره اهل غرناطة وشعراؤها.

وقال الشقندي: «اما غرناطة فانها دمشق بلاد الاندلس ومسرح الابصار ومطمح الانفس ولم تخل من اشراف اماثل وعلماء اكابر وشعراء افاضل ولو لم يكن لها الا ما خصها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها».

وفي بعض كلام لسان الدين بن الخطيب ما صورته: وما لمصر تفخر بنيلها والف منه في شنيلها، يعني ان الشين عند اهل المغرب عددها الف. وفيها قيل:

«غرناطة ما لها نظير   ما مصر ما الشام ما العراق
ما هي الا عروس تجلى   وتلك من جملة الصداق

ويقول ابن حيان ان السيل طغى مدة واخرب حنيتين من قنطرة مدينة استيجة وابطل عدداً من ارجائها. ومدينة استيجة ECIJA تقع على وادي شنيل في الجنوب الغربي من قرطبة بينها وبين اشبيلية وتبعد عن قرطبة بنحو خمسين كيلومتراً وهي الآن من اعمال اشبيلية. واما قنطرتها فقد كانت من اشهر معالمها وقد هدمها القائد بدر الحاجب سنة ٩١٢/٣٠٠، بعد ان فتح المدينة في مستهل امارة عبد الرحمن الناصر. وكان اهل استيجة قد خالفوا وخلعوا الطاعة.

وطما السيل ايضاً بكورة اشبيلية التي بها قراره فذهب مده في مجتمعه هناك لست عشرة قرية ما بين البحر وحاضرة اشبيلية وهلك كل ما فيها من ناس وبهائم وامتعة. فكان ذلك حدثاً عظيماً تحدث الناس عنه زماناً.

وقد اشار الى خبر هذا السيل ايضاً ابن عذارى في البيان المغرب ٢/٨٩، وابن الاثير في الكامل: ٥/٢٨٥

اما احداث سنة ست وثلاثين ومائتين فكثيرة منها انه ورد كتاب للامير عبد الرحمن عن عبيدالله بن يحيى من الثغر الاعلى يذكر استغناءه عن العدة التي امر باحتباسها قبله من الخرس. ويعني المؤرخ بها: هؤلاء المماليك الذين كان الحَكَم بن هشام والد عبد الرحمن الأوسط قد استكثر منهم حتى بلغ عددهم خمسة آلاف. وكانوا يسمون الخرس بعجمتهم وان عدداً منهم كانوا قد خرجوا الى الثغر الاعلى مع حارث بن بزيع حينما اسره موسى بن موسى بعد موقعة «بلمة» سنة ٨٤٢/٢٢٧. فلما توجه اليه الامير عبد الرحمن في السنة التالية اطلق بن بزيع ومن كان اسر معه من الخرس.

ويقول انه يكتفي بمائة وثلاثين غلاماً، ذكر انهم معه من مواليه وغلمانه يرضى بسالتهم ويحمد مذهبهم ويسكن اليهم ويجتزىء بخدمتهم، لما اصبح الثغر بحمد الله من السكون والهدوء.

فرد عليه الامير بارتضاء رأيه واحماد نظره، وبأن يصرف جميع ما يقبضه بالثغر من الجزاء والعشور وجميع الوظائف بعد اقامة سائر النفقات الراتبة الى فكاك اسراهم وحمل مرجليهم وترميم حصونهم ومصالح ثغورهم وكل ما فيه تقويتهم على عدوهم. وسوغه ان يرتزق في كل شهر مما يجتبيه، مائتي دينار دراهم وينهض معروفه للعام الى الف دينار مما يتقاضاه من جباية عمله. فكان عمل الامير عبد الرحمن ذلك بالثغر واهله من جلائل مناقبه.

وفي هذه السنة ابدل الامير عبد الرحمن ابنه الحَكَم عن ولاية البيرة باخيه عبدالله وولى الحكم كورة تدمير ومعه سعد اخو خزر لا يفارقه. ثم عزل عبدالله عن كورة البيرة فاعاد اخاه الحكم اليها.

وكانت البيرة الرومانية من كبريات حواضر الاندلس ونزل بها جند دمشق. ثم خربت في الفتنة التي شبت في ايام الامير عبدالله بن محمد وانتقلت عاصمة اقليمها الى غرناطة.

اما تدمير فتنسب الى الملك الذي كان يحكمها في ايام الفتح العربي للاندلس وقد نزلها جند مصر وانتقلت عاصمتها بعد ذلك الى مرسية في ايام عبد الرحمن الأوسط سنة ٨٢٥/٢١٠

وفي هذا العام صرف الامير عبد الرحمن عامله عن كورة (ريه)[1] وصرف خزر المولى الملازم له معه. وفي هذه السنة ايضاً ثار حبيب البرنسي بجبال الجزيرة الخضراء[2] واجتمع اليه خلق من اهل الفساد في الارض فشن بهم الغارة على قرى «ريه» وغيرها، فاشاع الاذى ونهب وقتل وسبى. فاخرج الامير عبد الرحمن عند ذلك الخيل مع عباس بن مضا، فالفى اضداده قد قصدوا حبيباً واصحابه فاوقعوا بهم وقتلوا خلقاً منهم وتفرقت بقيتهم واندس حبيب رئيسهم في غمار الناس وطفئت ثائرته وطلب دهراً فلم يظفر به.

لقد كانت هذه السنة زاخرة بالاحداث الخطيرة.

وقيعة البيضاء

جرت هذه الوقيعة سنة سبع وثلاثين ومائتين يقابلها ثمانمائة واحدى وخمسون. والبيضاء بالاسبانية Albelda حصن صغير انشأه موسى بن موسى القسوي على بعد عدة كيلومترات الى جنوب مدينة «لكروي» Logrono الحالية وهي الآن مدينة صغيرة تقع على بعد ٩١ كيلومتراً الى الشمال الغربي من تطيلة. ويتردد ذكر البيضاء في الحوليات المسيحية اذ تذكر انه لم يكد موسى بن موسى يتم بناءها حتى حاصرها ملك جليقية واشتورش اردون الاول Ordono I

---

١ ـ كورة «ريه» هي المنطقة التي اصبحت مدينة مالقة Malaga عاصمتها في الجنوب شرقي شبه الجزيرة وهي كلمة مأخوذة عن اللاتينية «ريجيو» Regio ومعناها الملكي وقد اورد ابن سعيد في المغرب:

«بوادي «رية» عرج فاني ... رأيت الحسن عنه لا يميل
وهات الخمر صرفاً دون مزج ... بحيث الماء والظل الظليل
غدا متقسماً في كل وجه ... كما نلت على خز تصول
تجول لواحظي ما دمت فيه ... بحيث ترى مذانبه تجول

ويكفيها عن الاطناب ما يتضمن شرح اسمها اذ معنى «ري» عند النصارى: سلطانه، فهي سلطانة البلاد. وخمر مالقة مشهورة بالاندلس مفضلة وفيها من ضرب الوشي العجائب ويصنع بها الفخار المذهب والزجاج.

ولابن مسلمة موشحة في واديها.

بوادي ريه اخلع عذار التصابي
اما تراه مفرع
مثل الصباح المرصع
بالروض عاد يجزع

وقد نزل هذه الكورة جند الاردن بعد الفتح العربي.

٢ ـ الجزيرة الخضراء او جزيرة ام حكيم وهي التي تعرف الآن باسم Algeciras وتقع في اقصى الطرف الجنوبي لاسبانية مطلة على مضيق جبل طارق ومواجهة لسبتة على الساحل الافريقي.

فخرج موسى للقائه. ودارت بين المسلمين والنصارى معركة حامية تعرف في الحوليات المسيحية باسم موقعة «كلابيخو» Clavijo وتقول هذه الكتب ان المسلمين اصيبوا فيها بهزيمة منكرة وان موسى اصيب بجروح بالغة وقتل فيها زوج ابنة غرسية. وتحدد المراجع المسيحية هذه المعركة بسنة ٨٥٩/٢٤٥ ـ ٨٦٠ على ان المراجع الاسلامية لا تذكر شيئاً عن ذلك مما يشك في صحة الخبر وان كان بعض الباحثين الاوروبيين المحدثين عادوا الى تأكيد وقوعها في السنة المذكورة مثل المؤرخين:

— PEREZ DE URBEL
— SANCHEZ ALBORNOZ

ويرى هذا الباحث الاخير ان هناك موقعتين دارتا لدى مدينة البيضاء: الاولى هي التي يتحدث عنها ابن حيان والتي احرز فيها موسى بن موسى انتصاراً باهراً على الجاشقيين سنة ٨٥١/٢٣٧.

والثانية هي التي وقعت بين موسى واوردون ملك جليقية ومني فيها موسى بهزيمة فادحة وكانت بعد المعركة الاولى بنحو ثمان سنوات. ويرى بيرس دي اوربيل ان المراجع العربية قد سكتت عن تلك المعركة على اننا نستبعد ذلك اذ لو صح حدوث تلك المعركة لما سكت عن ذكرها ابن حيان الذي لم يضرب صفحاً ابداً عن جميع ما دار من وقائع سواء كانت للمسلمين ام عليهم.

وهذه البيضاء مجاورة لمدينة بقيرة VIGURA التي تقع على بعد كيلومترات قليلة الى جنوب البيضاء وهي الآن من عمل مدينة «لكروي» مؤسسها لب بن موسى القسوي انشأها بعد ان انصرف من قرطبة منطلقاً من اسر الامير عبد الرحمن الأوسط ولما بلغ اخوه لب انشاء هذا الحصن عسكروا اليه فخرج اليهم وهزمهم ولكنهم تمكنوا بعد ذلك من القبض عليه في قلهرة ثم اطلقوه فتوجه الى بقيرة وبقي بها حتى مات.

وكانت الوقيعة بين المسلمين والجاشقيين، فكان اليوم الاول منها على المسلمين فاستشهد منهم جماعة ونالت فيه موسى بن موسى خمس وثلاثون وخزة تخللت حلق درعه. واليوم الثاني كافحهم المسلمون وقد اخذ المقدمة موسى بن موسى متحاملاً لالم جراحه فحامى على المسلمين وحسن بلاؤه، فهزم الغاشقيون افحش هزيمة وفرشت الارض بصرعاهم.

وفي هذه السنة ايضاً اي ٢٣٧هـ هلك «ينقه بن يناقه» اخو موسى بن موسى لامه وظهيره على امره وكان قد اصابه فالج عطله.

وفيها في ايام ولاية عبيدالله بن يحيى للثغر قام بناحيته رجل من المعلمين فادعى النبوءة والحد في القرآن فاحاله عن وجهه وادله على غير تأويله وقام معه خلق كثير. وكان ينهي عن قص الشارب والاظفار ويقول: «لا تغيير لخلق الله».

فارسل عبيدالله من جاء به. فلما دخل عليه وكاشفه كان اول ما ابتدأه به ان دعاه الى اتباعه. فاستشار فيه عبيدالله اهل العلم عنده فاشاروا باستتابته ثلاثة ايام، فان تاب والا قتل.

ففعل به ذلك فلم يتب فاسلمه للقتل صلباً، فجعل يقول: «اتقتلون رجلاً ان يقول: ربي الله؟ فامضى عبيد الله قتله بالفتوى وكتب الى الامير بامره فاحمد فعله.

وقد ذكر خبر هذه الثورة التي نشبت في الثغر الاعلى ابن عذارى ولو انه يسمي عامل الثغر يحيى بن خالد ولعله خلط بين عبيدالله بن يحيى بن خالد المذكور هنا وابيه يحيى. وقد عرض لدراسة هذه الثورة «أسين بالاسيوس» ASIN PALACIOS في كتابه «ابن مسرة» القرطبي ومدرسته، واشار الى وجوه الشبه الكثيرة بين تعاليم هذا الثائر في النهي عن قص الشعر والاظافر وبين بعض التعاليم الفيتاغورية القديمة كما ورد احتمال ان يكون لنزعة ذلك المعلم في تأويل القرآن صلة بالدعايات الشيعية التي كانت تضطرب خلال ذلك الوقت في الشمال الافريقي والاندلس.

المجاعة والاستسقاء

يذكر لنا ابن حيان نقلاً عن ابن هشام الشبينسي انه في سنة سبع ومائتين نالت اهل الاندلس مجاعة شديدة صدر ايام الامير عبد الرحمن الثاني. وكان سببها انتشار الجراد بالارض ولحسه الغلات وتردده بالجهات، فنالت الناس مجاعة عظيمة كفى حدها الامير باطعام الضعفاء والمساكين من اهل قرطبة.

ومن المعروف ان الجراد لا يتفرق الا بالمطر الشديد، والمطر الشديد يحتاج الى الاستسقاء اي الى الصلاة الى الباري تعالى لاسقاط المطر عليهم.

وصلاة الاستسقاء لا تتلى عادة في المسجد الجامع بل في العراء في مصليات خارج اسوار المدينة. وفي قرطبة مصليان: مصلى المصارة ومصلى الربض.

مصلى المصارة يقع على الضفة اليمنى للوادي الكبير نهر قرطبة في الفضاء الذي يحمل نفس هذا الاسم متصلاً بباب القنطرة عن طريق الرصيف الموازي لضفة النهر.

ولفظ «المصارة» من الالفاظ التي اختصت بها الاندلس ومنها انتقل الى المغرب وهو يعني «الفضاء الفسيح» الواقع خارج المدينة ويعد من منتزهاتها. ولم تكن مدينة اندلسية تخلو من مصارة يخرج اليها الناس في ايام الاعياد للتروح والنزهة. وما زالت في اسبانيا اماكن تحمل اسم «المصارة».

وفي مدن المغرب مصارات كثيرة ما زالت تحمل هذا الاسم حتى اليوم. ومصارة قرطبة هي التي دارت فيها المعركة المشهورة بين عبد الرحمن بن معاوية الداخل ويوسف الفهري سنة ٧٥٦/١٣٨، (راجع كتابي عبد الرحمن الداخل). وكثيراً ما كانت تقام فيها المواكب الملكية واستعراضات الجيوش طوال ايام دولة بني مروان، هذا فضلاً عن صلوات الاستسقاء. ولم يكن في مصلى المصارة على طول عهد امراء بني امية بناء مشيد ولا محراب ثابت وانما كان الامام يتخذ مقامه حيث يرى. واول من بنى محراباً هناك هو عبد الرحمن الناصر اول خلفاء بني امية في الاندلس، اذ اقام فيه محراباً مبنياً في سنة ٩١٨/٣٠٦، كما ينص على ذلك صاحب «البيان المغرب».

اما المصلى الآخر فهو مصلى «الربض» وكان يقع على الضفة اليسرى للوادي الكبير في جنوبي المدينة وعلى مقربة من مقبرة الربض التي اصبح يحمل اسمها بحكم هذا الجوار. ولهذا فقد كان الوصول اليه يقتضي عبور القنطرة، بعكس مصلى «المصارة» الذي كان اقرب الى المدينة واكثر اتصالاً بها. وهذا ما حمل الفقيه عبد الملك بن حبيب على ايثاره على سابقه ويعده «ارفق بالناس» واقرب الى قضاء حوائجهم، على ما في عبور القنطرة من خطر الازدحام وما في جواز النهر على المراكب من خطر الغرق. وكانت منية نصر كما سنرى، قريبة من مصلى الربض المذكور اذ كانت تقع على الضفة اليسرى للوادي الكبير.

قام امام المصلين يحيى بن يحيى الليثي الفقيه المشهور وتصفح وجوه الناس حوله فلم تقع عينه على ايوب العابد المستجاب، فنادى باسمه مستحلفاً له بالله ان يبرز اليه. فلما اكثر من الارجاف به برز ودنا منه فاجتهد يحيى في الدعاء وايوب يؤمن وينادي ربه فسقي الناس ليومهم. وغاب ايوب فلم يظهر. غير ان ابن سعيد في كتابه «المغرب» جزء اول صفحة ١٤٦ - ١٤٧ في معرض الكلام

عن القاضي مسرور بن محمد يقول: «احسن السيرة وخطب في الاستسقاء فقال: «يا ايوب البلوطي، عزمت عليك حيث تكون لتقومن فلم يقم اليه الا بعد ان اقسم عليه في الثالثة، وقال: «يا هذا، اشهرتني، اما كنت ادعو حيث انا؟»

ثم رفع القاضي رأسه فقال: «اللهم انا نستشفع اليك بوليك هذا».
والح بالدعاء وكثر الضجيج والبكاء فلم ينصرفوا الا احذيتهم في ايديهم من كثرة المطر. وطلب ايوب بعد ذلك فلم يوجد.

وقد وصلت الى ايدينا صلاة «الاستسقاء» على عهد عبد الرحمن الناصر لدين الله، وهي عبارة عن نسخة من كتاب الناصر لدين الله الى جميع العمال على الكور بالامر بالاستسقاء.

باسم الله الرحمن الرحيم
اما بعد فان الله عز وجل اذ بسط رزقه واغدق نعمه واجزل بركاته احب ان يشكر عليها، واذا زواها وقبضها احب ان يسألها ويضرع اليه فيها وهو الرزاق ذو القوة المتين التواب الرحيم الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون، وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد فاجبت به الرغبة اليه عز وجهه فيه والخنوع لعزته والاستكانة له والالحاح في المسألة فيها احتبس به والتوبة من الاعمال المنكرة التي توجب سخطه وتبذل نعمته وتستر وجه رضاه تعالى جده.

وقد امرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء في المسجد الجامع يوم الجمعة الثانية التي تليها ان ابطأت السقيا، والبروز يوم الاثنين بعدهما بجماعة المسلمين عندنا الى مصلاهم، او يأتي الله قبل ذلك بغيثه المعي عنه ورحمته المنتظرة منه المرجوة عنده. فمر الخطيب بموضعك ان يحتمل على مثل ذلك ويأخذ به من قبله من المسلمين ويحملهم ذلك المحمل ولتكن ضراعتهم الى الله تعالى ضراعة قد اعترف بذنبه ورجا رحمة الله والله غفور رحيم وهو المستعان لا شريك له، ان شاء الله.

وقد جاءت هذه الصلاة في كتاب «المقتبس» الجزء الخامس لابن حيان تحقيق «محمود صبح» و «شلميتا» CHALMETA و «كوريتني» CORRIENTE وطبعه المعهد الاسباني العربي للثقافة - مدريد ص ٢٥١.

الفصل الثالث عشر

المستعربون

انهم الرعيل الاكبر من النصارى في شبه الجزيرة الابرية وقد ظلوا على نصرانيتهم بعد دخول المسلمين الى الاندلس.

فالاسلام الذي دخل شبه الجزيرة الابرية ثم شاء التوغل في الارض الكبيرة «اوروبة»، احب ان يخلف وراءه شعباً اذا لم يكن حليفاً، على الاقل مسالماً. ومن هنا جاء التسامح العربي نحو الاسبان الذين منذ ذلك الحين اخذ يطلق عليهم اسم «مستعربون». فاحترمت مشاعرهم الدينية وطقوسهم وعاداتهم. وقد احتفظوا في قرطبة العاصمة الاسلامية بست رعايا او كنائس:

كنيسة القديس «اسيسكلو» ACISCLO كنيسة القديس «زويل» ZOYL وثلاث كنائس على اسماء الشهداء الثلاثة: القديس «قبريانوس، والقديس خينس GINES والقديسة اولالية EULALIA» وديران في الحاضرة وست كنائس في البادية ساعدت على بقاء الايمان المسيحي على حاله. وقد بنيت المدارس الى جانب هذه الكنائس بامر صدر عن المجمع الطليطلي الرابع. وفي بعض الكنائس، مثل كنيسة القديس اسيسكلو، توجد مكتبة صغيرة حوت مؤلفات القديس ازيدوروس الاشبيلي. وقد جلب «اولوخيو» في عودته من نبارة مخطوطات قديمة للشاعر اللاتيني «فرجيليوس» و «هوراسيوس» و «يوفنال» وقصص «افينو» AVIENO ومؤلفات القديس اغسطينوس وخاصة كتابه «مدينة الله».

لقد نعم المستعربون او المعاهدون كما اشرنا، بحرية تامة. وكان عليهم قومس «يدبر امورهم كما كان على عهد القوط».

ويستطيع المؤمنون النصارى ان يسيروا في جنازة موتاهم وان يقرعوا

الاجراس في الدعوة الى الصلاة، واحراق الشموع في الكنائس. ولكن حرم عليهم، طبعاً، شتم نبي الاسلام، فالعقاب يكون بالجلد علناً.

وقد اضطر المسلمون بسبب علاقاتهم مع جيرانهم ملوك الشمال او الملوك النصارى الى الاستعانة بالمعاهدين العارفين باللغة العربية لكي يدبجوا رسائلهم اليهم ويترجموا لهم.. ومن جملة هؤلاء الراهب «سمسون».

وهذا التعاطي اليومي بين المسلمين والنصارى ادى الى التزاوج فيما بينهم فولد جيل جديد اطلق عليه اسم «المولدون» اي ابوه مسلم وامه نصرانية.

ويقول منيندس بيلايو: ان هذا التسامح الديني لم يطل كثيراً فان الامير هشام بن عبد الرحمن الداخل منع استعمال اللغة اللاتينية والزم المستعربين دخول المدارس العربية. والنتيجة ان العدوى انتقلت من اللغة الى العوائد ومن العوائد الى الدين فولدت الشكوك والشعوذات والهرطقات والجحود، ولكن لم تذبل نضارة الايمان المسيحي ولم تفتر حرارة المتعبدين..

وكما يقول دوزي في كتابه: تاريخ المسلمين في اسبانيا ان الرعيل المثقف من النصارى في قرطبة لم يتذمر من مصيره، فلا اضطهاد ينصب عليه. ومن ناحية اخرى يمارس حريته الدينية. وهذا كاف. وكثيرون من النصارى انخرطوا في صفوف الجند وغيرهم انصرف الى الاعمال التجارية في المدن وثغور الدولة وآخرون شغلوا وظائف مرموقة في البلاط ولدى العيال المسلمة العريقة النسب. وقد اقتدوا بالمسلمين في تعدد النساء، وآخرون استسلموا الى رذيلة مكروهة دأب الشرقيون على ممارستها وغيرهم بهرتهم الآداب العربية فنبذوا الادب اللاتيني وانكبوا على دراسة اللغة العربية كتابة ونطقاً. وقد وصف «البارو» ALVARO هذه الحالة ونفسه تقطر حزناً والماً. فقال:

«ان اخوتي في الدين وابناء رعيتي يتذوقون الاشعار والروايات العربية ويتعمقون في دراسة الفلاسفة المسلمين، وليت انصرافهم هذا يؤدي الى مساعدتهم على ضحد المذاهب الاسلامية او الرد عليها، بل على العكس لكي يتمكنوا من هذه اللغة ومن آدابها وليجيدوا استعمالها احسن فأحسن. . . . اين نجد الآن علمانياً واحداً نصرانياً يقرأ الاناجيل او حياة القديسين او اعمال الرسل والانبياء؟ آه ويا للاسف ان الشباب المسيحي الذي تميز بذكائه وعبقريته لا يجد اللذة والمتعة الروحية الا في قراءة الكتب العربية وآدابها وينفقون الاموال الطائلة على شراء هذه الكتب وتشكيل مكتبات ضخمة، وينادون على رؤوس

الاشهاد: ان لا آداب توازي الآداب العربية... كلموهم عن الكتب المسيحية يجيبوكم بازدراء: انها لا تستحق الانتباه... آه ما اتعسنا، ان المسيحيين منا قد نسوا لغتهم، وبين الف شخص منهم لا يوجد واحد يحسن كتابة رسالة الى صديقه باللغة اللاتينية. ولكن اذا طلبته للكتابة باللغة العربية اجاد كل الاجادة بحيث ان الكثيرين من اخواننا في الدين يحسنون اللغة العربية افضل من العرب انفسهم[1].

وهذا الشغف باللغة العربية واهمال اللغة اللاتينية لا يجب ان يثير فينا الدهشة، فقلما نجد في قرطبة مؤلفات لاتينية هامة، رأينا منها ملحمة فرجيليوس وهوراسيوس ويوفنال». واما كتب اللاهوت والكتب الروحية الاخرى لا تستهوي كثيراً العصر الجديد، والادب المعاصر آنذاك داخل في عصر الانحطاط التام. بقي نظم الشعر باللغة اللاتينية ولكن اي شعر؟ لا قافية ولا وزن واسلوب ركيك.

انسجم القرطبيون النصارى مع المسلمين انسجاماً صحيحاً. ولكن لكل قاعدة شواذ فالشعور بالكرامة والاعتبار الوطني لم يتلاشيا تماماً فان بعض النفوس ابت ان تنسى ان هذه القصور التي يتمتع بها الاسياد الجدد كانت منازل آبائهم واجدادهم من القوط والرومان.

وكانوا يغبطون الممالك الشمالية الصغيرة رغم استمرارها في الحرب لكي تظل بنجوة من السيطرة العربية ويظل اسيادها نصارى. والمسلمون في بعض الاحيان يزكون هذه الروح في سن القوانين التي يعتبرها النصارى مجحفة بحقهم مثل قانون «الختان» كاليهود والمسلمين، كما يذكر «الفارو» في كتابه «المرشد النير» (Indiculo luminoso).

والمتذمرون بالدرجة الاولى هم رجال الدين يكنون للمسلمين بغضاً غريزياً شديداً لان معلوماتهم عن النبي محمد صلعم خاطئة مع انه يسهل عليهم جداً معرفة العقائد الاسلامية من مصدرها وينبوعها لانهم يعيشون بين ظهراني المسلمين، بدل ان يستعينوا بالخرافات عن النبي العربي ويصدقوها، والفارو ذاته

---

١ ـ في منتصف القرن الثامن اي قبل قرن كامل من هذا الكلام كانت اللغة العربية قد اخذت مكان اللغة اللاتينية واصبح الاسبان يجيدونها، ففي عام ٧٥٥ كان المتحدرون من اصل اسباني يحسنون العربية او بعضهم على الاقل افضل مما يعرفها العرب انفسهم. وعندنا قصة «ابي عثمان» العربي مع «خالد» من اصل اسباني. (راجع كتابي عبد الرحمن الداخل ص ١١١ وما يليها).

يعرف العربية ويستطيع معرفة الديانة الاسلامية من اوثق المصادر، ودراسة حياة النبي العربي باللغة العربية. بل ان الفارو هذا عمد الى مخطوط لاتيني قديم وقع بين يديه وقد عثر عليه في احد الاديرة ببنبلونة وقرأ في هذا المخطوط ان «نبي الاسلام لما ادرك ان ساعته قد دنت تنبأ في اليوم الثالث لوفاته ان الملائكة تأتي وتبعثه وسهرت تلامذته حول جثته منتظرين الاعجوبة ولم تحدث الاعجوبة.»

هكذا تعرف نصارى قرطبة المتعصبين على العقيدة الاسلامية. والكهنة الذين سيطرت عليهم الافكار الصوفية وحرم عليهم الاقتراب من النساء تشككوا من تعدد الزوجات ومن الاعتقادات الاسلامية بشأن الجنة والنعيم والحور. غير ان الاعتقاد السائد بينهم هو ان محمداً بشر خلاف ما بشر به المسيح فيقول «الفارو» عن الرسول محمد صلعم: «هذا هو عدو المسيح المخلص، فقد جعل اليوم السادس من الاسبوع يوم الم وحزن وصيام فجعله محمد يوم شراهة وفساد. لقد بشر المسيح بالعفة اما محمد فقد بث فيهم الملذات الحسية البدنية والزواج من الاقارب والتمرغ في اقبح الشهوات. بشر المسيح بالزواج وهو بالطلاق. نادى المسيح بشظف العيش وبالصيام وهو بلذة الطعام وشهوة البطن.. المسيح يأمر في ايام الصيام ان يبتعد المؤمن المسيحي عن زوجته الشرعية، بينما هو يخصص ايام الصوم للذة الجسدية. مسكين «الفارو» انه لمن يرثى لهم، فقد كان على جهل تام للشرائع الاسلامية. فهذا الفقيه يحيى قد فرض التقشف على عبد الرحمن الأوسط لانه خالف وصية محمد القائلة بالامتناع عن الاقتراب من النساء طيلة شهر الصوم.

وهكذا فان رجال الدين المسيحيين اخذوا فكرة خاطئة تماماً عن الديانة الاسلامية، وعبثاً حاول بعضهم العارف بالاسلام على حقيقته واقناعهم ان محمداً قد بشر بالاخلاق الرفيعة والآداب الطاهرة، كله اضاعة وقت، فالاكليروس بالعموم معند في ان يجعل الاسلام في مستوى الوثنية الرومانية، واعتباره عبادة اصنام شيطانية. واكثر من ذلك فهذا الحقد غير راجع في الاصل الى الديانة ذاتها بل الى طبيعة هذا العربي الذي يجمع بين المرح وبين اللذة الممتعة، وعامة الشعب من المسلمين لا تتورع عن الحاق الاهانة في كثير من الاحيان بالكاهن الذي يمر في الشارع فيتعرض للاهانة بشتى الوسائل. وعندما النصارى يدفنون موتاهم كان المسلمون يقولون: لا رحمهم الله.

ولكي يتجنب الكهنة الاهانة من رعاع المسلمين كانوا ينزوون في بيوتهم لا

يغادرونها الا للضرورة القصوى وفي كثير من الاحيان يتظاهرون بالمرض ويمكثون النهار كله في البيت حتى لا يدفعوا جزية الرأس... ويستسلمون الى عزلة طويلة وحياة منعزلة تأملية منكمشين على انفسهم مجمعين بصمت كنوزاً من الحقد. وكانوا سعداء ببغضهم شاحنين في ذاكرتهم اهانات جديدة، وعند هبوط الليل ينهضون ويشرعون بالقراءة في هدأة الليل الصامت على ضوء مصباح شحيح، مقاطع من التوراة ومن الفصل العاشر من انجيل متى، وآباء الكنيسة وحياة القديسين وهي الكتب الوحيدة الموجودة في ايديهم يقرأون ان المسيح قال: «اذهبوا وعلموا جميع الشعوب... وما اقوله لكم في الظلمة رددوه في النور... وما سمعتموه بهمس الاذن نادوا به على السطوح... ها انا مرسلكم كالنعاج بين الذئاب... وستمثلون امام الحكام والملوك لاجلي لكي تقدموا شهادة عني... لا تخافوا ممن يقتل الجسد ولا يستطيع ان يقتل النفس، خافوا خاصة ممن يمكنه ان يهلك النفس والجسد معاً في جهنم...

هذه اقوال السيد المسيح نجدها عند «اولوخيو» في كتابه «تذكار القديسين» Memorriale sanctorum ويقرأون كتب آباء الكنيسة الذين لا يرون عيباً في اخفاء مذهبهم ومعتقدهم، واذا جاهروا به واستشهدوا بسببه نالوا اكليل المجد الخالد.. ولكن الذي يشغل بالهم ومخيلتهم المريضة هو مثال القديسين الشهداء الذين تعرضوا للموت وللاضطهاد من قبل الوثنيين ولم يخشوا هذا الاضطهاد بل تقدموا الى الموت فرحين متهللين مرتلين اغاني المجد.

كانوا يعيشون حياتهم معجبين بتصرفات هؤلاء الشهداء، ابطال الايمان ويشعرون في اعماق نفوسهم بالحاجة الى ان يحذوا حذوهم ويسيروا على خطاهم، ويتململون في اعماقهم لان الاضطهاد لم يلحقهم ويتشوقون بحرارة الى ان تحين الفرصة لينادوا على رؤوس الاشهاد انهم نصارى ولا يرهبون الموت بل يتقدمون اليه طوعاً.

فهذا الحزب المتهوس المتعصب يخضع لدوافع رجلين معروفين احدهما علماني واسمه «الفارو» والآخر كاهن واسمه «ايولوخيو» EULOGIO يتحدر من عائلة قرطبية تميزت بتقواها وورعها المسيحي وببغضها وكراهيتها للمسلمين. اسم جده «ايولوخيو» عندما يسمع المؤذن ينادي على الصلاة والفلاح يصنع اشارة الصليب على وجهه ويردد مع المزامير «لا تصمت يا رب، فهؤلاء اعداؤك ومبغضوك قد رفعوا رؤوسهم.

ومع كل هذا الحقد نحو المسلمين فان الاخ الاصغر يوسف يشغل احدى وظائف الدولة، والاخوان الآخران انصرفا الى التجارة واحدى اخواتهم واسمها «انلونة» ANELONA لبست ثوب الراهبات وايلوخيو دخل في الكهنوت واصبح من رجال الدين وتربى بينهم في كنيسة القديس زويل اكب على الدرس ليلاً ونهاراً وتفوق على اترابه وحتى على معلميه وشبت عنده الرغبة في معرفة ما لا يعرفون وخشي الاساءة اليهم اذا كشف لهم سره، ولكنه كان يحضر خفية مدارس العلماء المعروفين في قرطبة ولا سيما الأباتي «اسباريدون» الواثق بالله، مؤلف كتاباً يضحد فيه العقائد الاسلامية. فكان لهذا الرجل نفوذ كبير على نفسية «اخلج» فبث فيه ذلك البغض الوحشي القاتم ضد المسلمين وقد رافقه طيلة حياته.

ومن جملة الذين شهدوا دروس المعلم «اسباريدون» البارو الفتى من عائلة شريفة فلم ينخرط في سلك الكهنوت ولكنه حضر الدروس الى جانب «اخلج» وكان يقاسمه الشعور، فقد ولدا ليتفاهما ويتصادقا، وبالفعل ما طال الامر بينهما ان ربطتهما عروة وثقى. وعندما طعن البارو في السن وكتب حياة صديقه ذكر العهد الذي اخذه على نفسه بالمحافظة على تلك الصداقة الى الابد مع اولوخيو وهما يتلقنان العلوم من ذلك الملفان العظيم، وقد صرفا جل اهتمامهما في كتابة الرسائل ونظم القصائد التي يمزقانها فيما بعد رغم ما تحتويه من الذكريات الطيبة، خشية ان يلومهما السلف على هذا الانتاج الهزيل خلال زمن الفتوة المرحة.

سيم اولوخيو شماساً ثم كاهناً على كنيسة القديس «زويل» فاشتهر بفضائله ونال حظوة عند الخاص والعام واهتم بزيارة الاديرة والمعابد وترك فيها رائحة فضائله وحرارة تقواه وقمع شهوات جسده بالصوم والسهر طالباً من الباري تعالى عز وجل ان ينقذه من حياة يعتبرها حملاً ثقيلاً، ويجعله في صفوف المختارين.

غير ان هذه الحياة القشفة استنارت بشعاع حب لذيذ، حب طاهر عفيف لدرجة انه لم يدرك وجوده ويجهر به بديهياً ببراءة ساحرة.

كان يعيش في قرطبة صبية رائعة الجمال اسمها «فلورة» «زهرة» جمعت بينهما خصال مشتركة. ولدت في حضن عائلة ابوها مسلم وامها مسيحية، فكانت مسلمة طبعاً. ولما توفي والدها وهي طفلة ربتها امها في حضن الديانة المسيحية، فعودتها امها التقية على ممارسة الفضيلة والتعلق بالامور المقدسة،

ولكن اخاها المسلم الغيور تتبع جميع خطواتها فلم تستطع حضور القداس الا في مناسبات نادرة. ويثقل عليها هذا الخضوع والتقيد، وتساءلت مراراً الا ترتكب اثماً، اذ يظنها الناس مسلمة؟ فقد قرأت في الانجيل: «من يعترف بي امام الناس اعترف به امام ابي في السموات ومن ينكرني امام الناس انكرته امام ابي الذي في السموات».

ووجدت ذاتها قوية قادرة على المقاومة، ثابتة الجأش مصممة العزم لا تقهر ولا تعرف الاستسلام، فاتخذت قراراً: غادرت البيت خلسة ترافقها اختها «بلدكتونا» BALDECOTONA التي تقاسمها شعورها وبحثتا عن مأوى لهما بين النصارى. وفتش عنهما شقيقهما في جميع الاديرة دون جدوى وعبثاً سجن الكهنة ظناً منه انهم اخفوهما. ولكن فلوره لا تريد الحاق الضرر بالنصارى بسببها فتقدمت من تلقاء ذاتها الى البيت وخاطبت اخاها بهذه الكلمات:

تبحث عني وتضطهد شعب الله بسببي، ها انذى امامك واخاطبك بكل جرأة. ظنونك في محلها، انا نصرانية. حاول اذا قدرت، ان تفصلني عن حب المسيح بواسطة التعذيب، انا اعرف كيف احمله.

فصرخ اخوها من اعماقه: يا شقية، الا تدركين ان شريعتنا تعاقب بالموت المارقين الى الدين؟

فاجابت فلورة قائلة: اعرف ذلك ولا انساه ولكن سارددو انا على منصة الاعدام: ربي وسيدي والهي يسوع المسيح ملأت قلبي حباً، اموت سعيدة.

فازداد اخوها حنقاً من عنادها وانهال عليها بالضرب المبرح دون شفقة ولا رحمة، ولكن فلورة من الذين منحوا العزم الوطيد والارادة الصلبة فلم تكترث للآلام الجسدية. وادرك اخوها ان لا منفعة من تأديبها، فشاء اقناعها باللطف واللين. ولم ينجع لينه ولطفه، فما كان منه الا ان اسلمها الى القاضي:

ـ هذه اختي احترمت ديانتنا ومارست معي واجباتها وقد افسد النصارى معتقدها وعلموها على احتقار نبينا وبثوا في روعها ان المسيح هو الله.

فسألها القاضي: هل صحيح ما يدعيه اخوك؟

ـ وهبه صحيحاً، هل هذا في نظر اخي كفر وزندقة؟ ادعاؤه بهتان فانا لست مسلمة ولم اكن مسلمة فمنذ نعومة اظفاري تعرفت على سيدي يسوع المسيح وعبدته وهو الهي ولا اله سواه وهو زوجي ولن اتزوج غيره.

وكان بوسع القاضي ان يحكم عليها بالموت في الحال ولكن عز عليه ان يقصف هذا الشباب الغض وهذا الجمال الصارخ. وظن في قرارة نفسه ان عقاباً جسدياً يكفي لارعوائها عن غيها ولعودتها الى حظيرة الخراف انها نعجة ضالة.

وامر الحرس بجلدها. ثم سلمها الى اخيها ميتة اكثر منها حية وقال له:

علمها شريعتنا وديانتنا ونيّرها بهما واذا ابت فاعدها الي.

ولما اصبحا في المنزل سلمها اخوها لعناية الحريم، واوصد الابواب عليها خشية ان تفر. ولما كان سور البيت عالياً رأى ان لا ضرورة الى تدابير وقائية اخرى.. ولقد فاته ان امرأة مثل فلورة صممت النية على ادراك غرضها لا تتراجع امام اي عقبة. فبعد ايام قليلة شعرت ببرء جروحها ووجدت من نفسها القدرة على الهرب انتظرت قدوم الظلام وتسلقت احد السقوف وتدلت الى جدار السور ووصلت الى الشارع دون ان يلحق بها اذى وتاهت على غير هدى في ظلمة الليل البهيم، وصادف ان وقعت على منزل نصراني تعرفه ويعرفها صاحبه، وظلت مستترة هناك بضعة ايام. وشاهدها «ايولوخيو» فسحرته بجمالها الجسدي وبعذوبة كلماتها واساليبها وبمغامراتها وبعزمها الصامد وصبرها على الشدائد وحرارة تعبدها ومقاساتها الآلام بالصبر الطويل، فشعر بهزة قوية تزعزع كيانه وبميل لا يقاوم يشد به نحو هذه الصبية الماثلة امامه. وعبثاً حاول اخفاء اضطرابه فدلائل الحب لا تخفى على احد، فاذا هو يهيم بهذه الفتاة حباً شاء ان يرفعه الى اسمى درجات الحب الطاهر البريء، حب افلاطوني حب سماوي ملائكي لا يقدر ابناء البشر سبر غوره وادراك كنهه لانه ولد في الروح ويتغذى من الروح، حب تغلغل في كيانه واورثه لذة روحية بعيدة القرار لا تعذب الجسد لانها بمنأى عنه.

ومرت عليه ستة اعوام وظل يذكر تلك المقابلة الاولى بأدق حذافيرها، وما زادتها تلك الاعوام الا رسوخاً ونمواً وقد نمّت عليه كلماته التي وجهها برسالة الى فلورة:

«لقد شئت يا اختي القديسة منذ زمان بعيد ان اكشف عن كتفيك وتريني آثار الجراح التي تركتها السياط في جسمك، ويسترها شعرك الطويل المسدول. لقد انزلتني منك منزلة ابيك الروحي الطاهر العفيف مثلك. لمست جراحك بلطف وتمنيت لو اتيح لي شفاء تلك الجراح بقبلة من شفتي ولكني لم اتجاسر،

وعندما تواريت عنك خلت نفسي في حلم لذيذ ليتني لم استفق منه، وتنهداتي لا تنقطع.

وخشيت «فلورة» افتضاح امرها في قرطبة فبادرت الى الفرار عن عاصمة الامويين في الاندلس ترافقها اختها «بلديكتونة» BALDEGOTONA.

ولنتركهما متواريتين حتى نلتقي بهما من جديد.

وبينما نصارى قرطبة، قسم ضئيل من نصارى قرطبة، مستسلمون الى تأملات عميقة وطموح يتغذى في الظلام ويتمرمر في الجمود وقع حادث زكى تعصبهم وحقدهم.

خرج احد الكهنة المنتمي الى كنيسة القديس «اسيسكلو» اسمه «برفكتو» Perfecto، في غرض له. وعندما اقترب من بعض المسلمين شرعوا في الحديث معه لانه كان ينطق العربية جيداً. ومن البديهي ان يدور الحديث عن الدين. وسأله المسلمون رأيه بيسوع المسيح ومحمد فقال:

ـ المسيح هو ربي والهي، اما نبيكم فلا اجسر ان اصرح برأي النصارى فيه لاني اذا ذكرته لكم اغتظتم وسلمتموني للقاضي فيحكم علي بالموت. غير انكم اذا ضمنتم لي انه لا خوف علي كشفت لكم عما نقرأه في الاناجيل وما يقال عن نبيكم بين النصارى.

ـ يمكن الركون الينا، لا تخش شراً. اطلعنا على رأي النصارى بنبينا ونقسم لك بالله اننا لا نخونك.

ـ اذا كان الامر كذلك فاقول لكم اننا نقرأ في الانجيل هذه العبارات: «وستقوم انبياء كذبة ويجترحون العجائب ويفعلون المعجزات لكي يستهووا المختارين انفسهم اذا قدروا. ونبيكم هو منهم.

ثم تورط «برفكتو» في انزال الشتائم بالنبي محمد صلعم لدرجة انه نعته بصفة «عبد الشيطان» وتركه المسلمون ينصرف بامان ولكن اضمروا له الحقد في قلوبهم. ولم يمض زمن طويل حتى شاهدوه ذات يوم قادماً نحوهم وقد اصبحوا في نجوة من ايمانهم المحرجة فهتفوا صارخين امام الناس:

---

١ ـ كل هذه المعلومات وما سيليها مستقاة من «حياة الكاهن اخلج» كتبها صديقه الفارو عنوانها باللاتينية Vita Eulogii

ـ هذا الصفيق الوجه الذي تـرونه امـامكم كال للنبي صلعم شتـائم واهانات لا يقبل السكوت عنها، اي واحد منكم مهما تمادى في حلمه، اذا سمعها فار غضبه.

ويقول اخلج راوي الحكاية هذه: كانت هذه الكلمات كالزيت صب على النار او قفير نحل خرج من جرته، فوجد «برفكتو» ذاته محاطاً من كل جانب ووثبوا عليه واخذوه الى القاضي بسرعة البرق الخاطف كأن اقدامهم لا تمس التراب. . وقالوا له:

ـ ان هذا الكاهن قد شتم النبي صلعم وانت تعرف اكثر منا ما ينتظره من عقاب على هذه الجريمة الكبرى.

وبعد ان اصغى القاضي الى الشهود سأل «برفكتو» هل لك من شيء يقال بشأن ما ينسبونه اليك؟ وارتجف الكاهن المسكين من رأسه الى اخمص قدميه، لم يكن على استعداد لاقتبال الشهادة، فانكر ما نسب اليه ولم يجده انكاره نفعاً لان جريمته ظاهرة مثل نور الشمس. وحكم القاضي عليه بالموت كما نصت الشريعة الاسلامية. فكبل بالسلاسل والقيود وزج في السجن حتى يقرر الفتى نصر يوم تنفيذ الحكم بالموت.

لا امل يرجى للكاهن المسكين الذي ذهب ضحية الخيانة والغدر من قبل بعض المسلمين الذين وضع ثقته بهم وصارحهم بالحقيقة، فنبش على قبره بيده. غير ان معرفته بدنو اجله ردت اليه شجاعته التي خانته امام القاضي.

ولما يئس من نجاته من الموت بابدال حكم الاعدام بالسجن او ما شاكله، اقر أنه شتم النبي محمداً وتباهى بالشتيمة وانصرف الى تكرارها بدون انقطاع فكأنه نار حقد مكبوت وانطلق من عقاله لا يأبه لعقاب، واي عقاب اكثر من الموت الذي ينتظره بين لحظة واخرى. . انه الاستعداد للاستشهاد.

والتجأ الى الصلاة والصوم وهجره النعاس فلم يعد يقوى على اطباق اجفانه.

ومرت الشهور على هذه الحال وكان نصراً قد نسي وجود الكاهن في السجن او شاء الاطالة في نزاعه البطيء، لم يحدث شيء من هذا فقد قرر نصر الخصي تنفيذ حكم الموت في عيد الفطر، اول شوال.

وصادف ذلك العام ان اول شوال وقع في ١٨ نيسان، فازدانت شوارع

قرطبة منذ الصباح الباكر بابهى حللها لانها طيلة ايام الصيام استمرت مقفرة، فالجموع الغفيرة تألبت نحو المساجد والاغنياء لبسوا جديدهم من الثياب والعبيد تزينوا بالملبوسات التي وهبها اياهم اسيادهم، والشبان يتبخترون بارديتهم الفضفاضة، وقد استأجرت جميع الدواب التي حملت على ظهورها اكبر عدد ممكن من الاشخاص. البهجة مرتسمة على الوجوه والاصدقاء يسلمون على بعضهم البعض ويتقبلون التهاني بالعيد ويتعانقون.

وبعد انتهاء المراسم الدينية الاحتفالية بالعيد بدأت الزيارات وقدمت المأكولات والحلويات الشهية للنظر والذوق، وخرجت الخمور من الدنان وازدحم الفقراء امام ابواب الاغنياء يلتهمون بقايا الاطعمة الفائضة عن الموائد السخية. وحتى النساء المحصنات خرجن في ذلك اليوم في طلب النزهة وشم النسيم بينما اباؤهن وازواجهن مستسلمون للشراب فهن يتجولن في الشوارع يوزعن الطعام والحلوى على الفقراء ويتوجهن الى المدافن بحجة زيارة الموتى ولكن بالحقيقة لينسجن المكائد ويدبرن المؤامرات والف حيلة وحيلة للاجتماع بعشاقهن.

وعند منتصف النهار لما كانت عشرات من الزوارق تمخر في نهر وادي الكبير، مشحونة بالمسلمين وسكان قرطبة مجتمعون في ساحة كبيرة قرب النهر للاستماع الى عظة العيد، جاء الى برفكتو من ينذره انه بأمر من الخصي نصر سينفذ فيه حكم الاعدام.. وكان على استعداد لاستقبال الموت غير ان فكرة تنفيذه بين اهازيج وافراح الجماهير يملأ قلبه حزناً وحنقاً، فهتف غاضباً في تلك الجماهير الغفيرة: اني منذركم ان نصراً هذا الرجل المتكبر المتجبر الذي تنحني امامه الجباه ويتمسحون في اعتابه من اعلاهم الى ادناهم، هذا الرجل الذي ينطق ولا مرد لنطقه هذا يمارس السلطة الفعلية لن يعيش لينعم ببهجة العيد المقبل لارتكابه هذه الجريمة بتنفيذ الحكم بالاعدام فيّ.

ولم تبدُ على «برفكتو» اي بادرة وجل او وهن عندما قادوه الى منصة الاعدام فصرخ باعلى صوته: «اجل اجل لقد جدفت على نبيكم وان ديانتكم هي من عند الشيطان وتنتظركم عذابات الجحيم». وراح يكرر هذه العبارات بدون انقطاع، وصعد الى منصة الاعدام بقدم ثابتة وقد تجمهر الناس وعلائم الارتياح بادية على وجوههم فان كاهناً سيلاقي حتفه جزاء له على سلط لسانه واهانته النبي صلى الله عليه وسلم.

اما النصارى فاعتبروا «برفكتو» شهيداً قديساً. فما ان نفذ حكم الاعدام

حتى حضر مطران قرطبة على رأس المؤمنين النصارى وحملوا جثمانه في تابوت بابهة وباصوات الترانيم والتراتيل الدينية المسيحية ودفن الى جانب رفات القديس «اسيسكلو». وفي الليلة التالية لتنفيذ الحكم به جنح زورق يجري في مياه وادي الكبير وغرق اثنان من ركابه من اصل ثمانية فاعتبر «اخلج» هذا الحادث انتقاماً ارسلته السماء التي شاءت ان يبتلع النهر اثنين منهم ويرسلهم الى اعماق الجحيم..

وقد تمت نبوءة برفكتو فان نصراً الفتى لم تمر عليه سنة حتى مات فجأة وبظروف غريبة حقاً[1] ومن الطبيعي ان الكهنة النصارى يجهلون خبايا القصر والمؤامرات والدسائس التي تحاك فيه، غير انه لم تفتهم انباء وفاة نصر فجأة بين يوم وضحاه دون مرض سابق الزمه الفراش. واشيع بينهم انه مات مسموماً ولا يعرفون اكثر من هذا. فعلى ما يظهر ان البلاط حاول كتم الخبر عن الناس لا سيما وان المؤامرة المدبرة تتناول رؤوساً كبيرة: طروب ابنها عبدالله عدد من خصيان القصر وغيرهم وغيرهم الطبيب الحراني المهم في نظر الكهنة ان نبوءة «برفكتو» تحققت فقبل ان يحول الحول دخل نصر في عالم الاموات وقد تذكر النبوءة العديد من النصارى والمسلمين المسجونين مع «برفكتو».

وما طال الامر ان اثارت حفيظة هذا الحزب المتهوس حادث جديد تعرض له احد تجار النصارى واليكم القصة:

اسم التاجر يوحنا. رجل مسالم لم يدر في خلده قط انه سيتألم يوماً ما لاجل المسيح. همه وشغله الشاغل تجارته التي اثرى منها، فهذا التاجر اخذ عادة وهي ان يقسم باسم النبي محمد في كل مرة يريد ان يحمل الزبون المسلم على تصديقه بان بضاعته جيدة. اعتاد ان يردد: «والنبي هذه البضاعة جيدة، وفقك الله. لا تجد افضل منها في اي مكان آخر من قرطبة».

تلك عبارات اعتاد ان يفوه بها دون ندامة. غير ان منافسيه في المهنة ساءهم ان يروا اعماله تتقدم يوماً فيوماً وتجارته رائجة اكثر فأكثر.

سمعوه ذات يوم يقسم باسم النبي محمد فقالوا له:

اسم نبينا على شفتيك في كل وقت حتى توهم الذين لا يعرفونك ويعرفون

---

١ - «اولوجيو» ذكرى القديسين جزء ١ و ٢ Memoriale sanctorum الفارو Indiculo luminoso ص ٢٢٥ وما يليها.

مذهبك، انك مسلم، ومن جهة اخرى فان القسم بالنبي في كل مرة تطلق كذبة امر لا نرضاه اطلاقاً.

فاحتج يوحنا في بادىء الامر وقال انه اذا اقسم بالنبي فليس عن احتقار او تهكم على المسلمين او جرحاً لعواطفهم وشعورهم.

ولكن ما طال الامر ان حمي وطيس الجدال والنقاش فصاح قائلاً:

لن الفظ بعد اليوم اسم نبيكم، ولعنة الله على من يلفظه.

وما كاد يفوه بهذه الكلمات حتى تجمعوا عليه صارخين: انه يجدف، انه يجدف. وجروه امام القاضي. فاستجوبه فقال: انه ليس في قصده اهانة احد وليست شكواهم ضده سوى غيرة وحسداً لانه نجح في تجارته حيث فشلوا.

وكان على القاضي ان يحكم ببراءته ويطلق سراحه او يحكم عليه بالموت، ولكن لم يحكم ببراءته ولم يصدر عليه حكم الموت بل عاقبه باربعمائة جلدة. ثم طيف به في الشوارع على ظهر اتان ورأسه الى الوراء بينما ينادي مناد امامه:

- ارأيتم كيف يعاقب من يهزأ بنبي المسلمين؟

ثم اقتيد الى السجن مثقلاً بالقيود. ولما عثر عليه «اخلج» بعد بضعة اشهر في ذلك السجن كانت آثار السياط ما زالت ظاهرة في بدنه..

وتحرك المتهوسون من جديد لانهم لم يحركوا ساكناً منذ وقت طويل، وقد صمموا العزم في هذه المرة على الموت شهداء على ايدي المسلمين. وما اسهل بلوغ هذه الامنية، يكفي شتم نبي المسلمين، وهذا ما عولوا عليه مثل الراهب اسحق.

ولد اسحق في قرطبة من والدين من الاغنياء والاشراف وتربى تربية شريفة، يعرف العربية جيداً وعمل كاتباً في دولة الامير عبد الرحمن الأوسط.

ولما بلغ الرابعة والعشرين من سنه شعر بتوبيخ الضمير وبوساوس دينية، فتخلى عن وظيفته في البلاط حيث كان ينتظره مستقبل باهر وانزوى في دير «تبنوس» TABANOS كان قد بناه عمه «ارميا» من ماله الخاص في شمالي قرطبة. يقع بين جبال عالية وغابات كثيفة، والحياة فيه صارمة اكثر منها في اي دير آخر. ويعتبر بحق بؤرة التعصب. ووجد اسحق هناك عمه وعمته ايزابيل

واقارب له كثيرين قادهم التقشف الى اقصى حدوده.. فهذه القدوة التي وجدها هناك وتلك العزلة وتلك الطبيعة الحزينة الموحشة والصيام المتواصل والسهاد الطويل والصلاة وتعذيب الجسد واستعباده بالجلد وغيره وقراءة سير القديسين ولد فيه شعوراً وهوساً يقربان من الهذيان عندما ظن هذا الراهب الفتى ان المسيح يدعوه ليموت لاجله، فتوجه الى قرطبة ومثل امام القاضي وخاطبه قائلاً:

- ارغب في اعتناق ديانتكم واتمنى لو توجهني.

فاجابه القاضي: بكل طيبة خاطر.

وشرع القاضي يشرح له العقائد الاسلامية. ولكن اسحق قاطعه وصرخ في وجهه: لقد كذب نبيكم وجر معه الكثيرين الى الجحيم. وانت الرجل العاقل لماذا لا تتنكر لهذه العقائد الفاسدة؟ اعتنق الديانة النصرانية فان الخلاص فيها ولا خلاص خارجاً عنها.

ففارت ثورة غضب القاضي تجاه هذه الوقاحة، وحرك شفتيه دون التمكن من النطق وبكى من الحنق وصفع الراهب اسحق.

فصرخ فيه اسحق قائلاً: كيف تتجاسر ان تصفع خداً صنعه الله على صورته؟ انك ستؤدي حساباً على هذه الصفعة في يوم الدين.

وسمع القاضي معاونيه يقولون: هدىء روعك، ايها القاضي، وحافظ على وقارك وتذكر ان شريعتنا لا تسمح باهانة احد حتى ولا المحكوم عليه بالموت.

فقال القاضي موجهاً كلامه الى الراهب: ايها الشقي، انه مسك جنون او انت سكران ولا تدري ما تقول. الا تعلم ان شريعة النبي صلعم الذي اهنته على هذا الشكل الفظيع تقضي عليك بالموت؟

فقال الراهب بهدوء: ايها القاضي، اني اتمتع بكامل قواي العقلية ولم اتناول جرعة واحدة من الخمر، غير اني اضطرم حباً للحقيقة. اصدر علي الحكم بالموت فلست اخشاه بل اشتهيه لاني اعرف ان سيدي يسوع المسيح قال: «طوبى للمضطهدين لاجل البر فان لهم ملكوت السموات.

ومع هذا فقد رق قلب القاضي على الراهب المصاب بالهوس، ولم يحكم عليه بالموت بل امر بسجنه. وتوجه الى الامير عبد الرحمن الأوسط يطلب منه

تخفيف الحكم عنه لانه فاقد رشده وصوابه. ولكن عبد الرحمن الذي ابصر بناظريه التكريم الذي لقيه جثمان «برفكتو» من قبل النصارى، الامر الذي اثار غضبه، امر القاضي ان يطبق الشريعة بكل ثقلها. ولكي لا يكرم النصارى المتهوسون جثمان الراهب اسحق امر بان تظل جثته معلقة ورأسها الى اسفل بضعة ايام ثم تحرق ويذر رمادها في الرياح السافيات او تلقى في النهر.

ونفذت الاوامر في ٣ حزيران ٨٥١ وقد شاء الامير عبد الرحمن ان يحرم الدير من تلك الرفاة. فانتقم الرهبان بان ادرجوا اسم اسحق في مصاف القديسين وعددوا الآيات التي اجترحها ليس فقط في طفولته بل قبل ان يحبل به في البطن[١].

وفتح الطريق امام الاستشهاد العفوي، فبعد يومين من تنفيذ حكم الاعدام بالراهب اسحق، جرى حادث آخر من هذا النوع: احد حراس الامير عبد الرحمن شانجه الافرنجي الذي تربى على تعاليم «اخلج» جدف على النبي صلعم وحكم عليه بقطع رأسه[٢].

ويوم الاحد المصادف السابع من حزيران مثل ستة رهبان بينهم «ارميا» عم اسحق وراهب آخر اسمه «هابنسيو» HABENCIO عاش حياته قابعاً في صومعته، امام القاضي صارخين في وجهه: نحن ايضاً نؤيد اقوال اخوينا الشهيدين اسحق وشانجه ونؤكد عليها، وانطلقت الشتائم من فمهم على النبي صلعم. ثم اضافوا:

ـ انتقم الآن لنبيك وانزل بنا اقصى العقوبات.

فاطيحت رؤوسهم عن اكتافهم[٣]

وكان في كنيسة القديس اسيسكلو كاهن اسمه «سيسناندو» SISNANDO جمعته صداقة مع راهبين من المستشهدين فتراءيا له يدعوانه للشهادة.

وقطع رأسه مثلهم.

وقبل ان يصعد الى منصة الاعدام حث الشماس «بولس» ليحذو حذوه فاطاعه، وقطع رأسه بعد اربعة ايام من هذا الحادث اي في عشرين تموز. وقد لاقى المصير نفسه راهب من قرمونة «تيودمير».

---

١ ـ «اولوخيو»: «ذكرى القديسين ص ٢٣٧، ٢٣٨.

٢ ـ المصدر السابق الجزء الاول فصل ٣

٣ ـ المصدر ذاته فصل ٤

احد عشر شخصاً استشهدوا في اقل من شهرين واعتبر الحزب المتهوس المتعصب هذا الرقم انتصاراً لقضيته. ولكن الاكثرية الساحقة من المسيحيين الذين يرغبون في العيش بسلام قلقت من ذلك الهوس والتعصب الاعمى الذي قد يحمل المسلمين على اساءة الظن بجميع النصارى دون تمييز. فقالوا للمتهوسين:

«ان الامير عبد الرحمن يسمح لنا بممارسة ديانتنا بحرية ودون الحاق الظلم بنا، فما هذا الهوس وما هذا التعصب الذميم الاحمق؟ ان من تسمونهم شهداء ليسوا بالحقيقة «شهداء»، انهم انتحاريون، وتصرفهم هذا املاه عليهم كبرياؤهم الذي هو اصل جميع الآثام والخطايا، ولو انكم تصفحتم الانجيل جيداً لقرأتم: «احبوا اعداءكم واحسنوا الى من يبغضكم». وبدلاً من ان تنفجروا غضباً وحقداً ضد نبي المسلمين، عليكم ان تتذكروا اقوال الرسول: «ولا المجدفون يرثون ملكوت الله».

«ان المسلمين يقولون لنا: «لو ان الله اوحى لهؤلاء المهوسين التصرف كما تصرفوا في شتم النبي صلعم لاجترحوا اعجوبة كنا بسببها نعتنق ديانتكم، ولكن ما ابعد هذا عن الحقيقة فان الله شاء ان يحول اجساد هؤلاء «الشهداء الدجالين» الى رماد يلقى في النهر. ان طائفتكم لا تحرز اي مكسب من جراء هذا التصرف الارعن وطائفتنا لا تخسر شيئاً. الا يعتبر الانتحار على هذا النحو جنوناً مطبق؟؟؟

ما هي اجابتنا على هذه الاعتراضات التي تبدو لنا في محلها؟

هذا المنطق تكلم في السن اكثر العلمانيين وجماعة الاكليروس ايضاً. وقد شاء «اخلج» «اولوخيو» الرد عليهم فوضع كتاباً سماه «مذكرة القديسين» ورد ذكره في هذا الفصل. يعتبر القسم الاول منه تقريعاً عنيفاً ومراً لأولئك الذين يدنسون وينجسون اسم الشهداء بافواههم الخاطئة[1]. ويقول ايضاً: «وهذا التسامح الذي نلمسه من المسلمين الذين استعبدونا عقاباً لنا على ذنوبنا وخطايانا، لا يجب ان نعزوه الى المسلمين بل الى سيدنا يسوع المسيح الذي قال لتلاميذه: «انا اكون معكم الى نهاية الدهر».

وضجت السلطة في قرطبة عن حق من هذا النوع الجديد من التمرد لان

١ ـ المصدر ذاته فصل ٥ و ٦

التعصب عند هؤلاء المهوسين ليس سوى مرحلة من مراحل تصرفاتهم، امتزجت فيها النخوة المقاتلة بالشوق اللجوج فتحولا الى انتقام سياسي[1] ولكن ما العمل للحيلولة دون تصرف هؤلاء المصابين بعقولهم لكي لا يسلموا انفسهم الى السياف؟؟ التجديف على النبي يعاقب بالقتل والشريعة لا تشفق ولا ترحم في هذه القضية. لم يبق سوى وسيلة واحدة فعالة: الدعوة الى عقد مجمع كنسي يصدر براءة يحظر فيها على النصارى السير الى استشهاد مزعوم.

وهذا ما دعا اليه عبد الرحمن الثاني فقد عقد مجمع اساقفة، لم يستطع حضوره بسبب مرضه فارسل مبعوثاً عنه، هو متوالي المعاهدين بالاندلس من النصارى واسمه غومس بن انطونيان.

ولا حاجة الى القول ان هذا المعتمد من قبل البلاط المتكبر الظالم الغني بالرذائل كغناه بالاموال ليس له من النصرانية الا الاسم، بزعم «البارو واخلج». برز دائماً في اول الصفوف مناوئاً للشهداء[2] انهما يبغضانه ويشمئزان حتى من ذكر اسمه. لقد ورد اسم هذا الرجل عند المؤرخ الكبير ابن القوطية، وهو حفيد يوليان. انه متوقد الذهن حاضر الفكر له طلاقة وسهولة في النطق والكتابة باللغة العربية بشهادة المسلمين والنصارى على السواء. وكان حظياً عند عبد الرحمن، سوّغه افتراض المعاون والمغارم من المسلمين انفسهم، بعيداً عن التعصب، كارهاً له. ولم يتوان في كثير من الاحيان عن اطلاق عبارات لاذعة تهكمية ضد اولئك المهوسين لانه يخشى ان يتغير عليه الامير وتفتر محبته له وثقته به من جراء تصرف فئة ضئيلة من النصارى يعدون على اصابع اليد. وقد حمله شكه الى التساؤل: الا يتبادر الى ذهن الامير عبد الرحمن الثاني ان جميع النصارى هم من طينة واحدة فعاقلهم متهور ايضاً مثل هؤلاء المتهورين المضحين بانفسهم بدون فائدة. الا يكون نصيبه ونصيب العاملين في الادارة العامة الاقصاء عن مناصبهم والاستغناء عن خدماتهم؟ اجل، جالت هذه الافكار في رأسه وراودت دماغه اكثر من مرة.

حضر مجمع الاساقفة بصفته ممثلاً لسيد قرطبة وفي الوقت نفسه ممثلاً لمصلحته الشخصية المعرضة للضياع، وبالتالي عليه ان يقف في وجه هذا التيار ويصده قبل ان يجرفه ويقضي عليه ويقصيه عن البلاط.

---

١ ـ كان «الفارو» «واولوخيو» يسميان الشهداء «جنود الله» يكافحون ضد ائمة الكفر والضلال.

٢ ـ اولوخيو «ذكرى الشهداء» جزء ١ وجزء ٢ الفصل ١٥ Memoriale Sanctorum

انعقد المجمع الاسقفي برئاسة المطران ركافردو» RECAFREDO رئيس اساقفة اشبيلية. عرض غومس الموقف وسوء النتائج التي تسفر عن تهور وهوس وتعصب اولئك الذين يشتمون النبي العربي فانهم بعملهم هذا بعيدون عن القداسة ويستحقون الحرم من الكنيسة لانهم بسوء تصرفهم يجلبون البلاء على اخوان لهم في الدين.

وبناء على ذلك اطلب من سيادة الاساقفة اصدار براءة تشجب فيها مسلك هؤلاء الشهداء المزعومين وتحظر على المؤمنين اقتفاء اثرهم.

ورأى غومس من جهة اخرى ان اصدار براءة مثل هذه غير كافية، لان الفئة المتهوسة وعلى رأسها «اولوخيو» قد تعترض على هذه البراءة ولا تعمل بها بل تسترسل في ارسال اشخاص بسطاء امام القاضي للتجديف على النبي. وهذا ما يجب الحؤول دونه مهما كلف الامر، فطلب من الاساقفة المنعقدين في مجمع اصدار قرار بسجن الاشخاص الذين يشكلون خطراً على مجتمعهم..

فقام «شاوول» رئيس اساقفة قرطبة للدفاع عن الشهداء.. وهذا الاسقف ينتمي الى الفئة المتطرفة من النصارى لا اقتناعا منه بقداسة قضيتهم بل تكفيراً عن ماض لم يكن يشرفه.

لما انتخبه اكليروس قرطبة مطراناً عليهم لم يحظ انتخابهم بموافقة السلطان، فرأى ان يرشو خصيان القصر باربعمائة دينار على شرط استحصال رضا الامير عبد الرحمن. وطلب الخصيان ضمانة منه، لان المبلغ لم يكن حاضراً عنده، فتعهد خطياً انه في حال تبوئه سدة مطرانية قرطبة يدفع لهم اربعمائة دينار من ريع المطرانية. هذا الريع الموقوف على الكهنة دون سواهم، وبهذا التعهد الخطي المكتوب بالعربية يحرم الكهنة من معاشاتهم.

وتوصل الخصيان على استخلاص هذه الموافقة من الامير عبد الرحمن الثاني.

ظلت هذه اللطخة عالقة باذيال المطران وضميره يوبخه عليه. ووجد سبيلاً لمحوها بالانضمام الى الحزب المناوىء المتطرف.

ومما اثار حفيظة الامير عبد الرحمن بنوع خاص انه شاهده يمشي في جنازة «برفكتو»، وندم على قبوله مطراناً على النصارى.

عارض شاوول موقف بقية الاساقفة ودافع عن موقف الشهداء

مستعيناً بالتوراة وبحياة القديسين، فمنها استقى المتطرفون الجرأة والشجاعة والقدرة للسير الى الاستشهاد.

لم يقتنع اساقفة المجمع بحججه ولم يقاسموه شعوره واظهروا عن استعدادهم لاصدار براءة في المعنى الذي طلبه غومس بن انطونيان متولي المعاهدين.

ووجدوا ذاتهم في موقف حرج، فالكنيسة وافقت على تصرفات الشهداء في الماضي وقدست اعمالهم وقدستهم ولم يتنكروا لتصرفهم في الماضي فلماذا يستنكرون تصرفهم في الحاضر.

وهكذا اصبحوا بين امرين: اما ان يقبحوا مسلك الشهداء في الوقت الحاضر وبالتالي عليهم ان يقبحوا ايضاً مسلك الشهداء على عهد الاباطرة الرومانيين وغيرهم. واما ان يقبلوا بالمسلكين ماضياً وحاضراً وهذا ما لا يرضى عنه المتولي غومس ولا سيد قرطبة.

فتركوا الامرين وحرموا على النصارى منذ ذلك الحين وصاعداً التفتيش عن تلك الميتة المقدسة.

اصدروا حكماً فيه الكثير من الالتباس فيقول «اخلج»: «انه يظهر شيئاً ويبطن شيئاً». ALIUD GUSTANS ET ALIUD SONANS. وانقسمت الكنيسة المستعربة الى قسمين: قسم متطرف، وقسم معتدل. من جملة المتطرفين «اخلج» «والبارو» القرطبي المتحدر من عائلة يهودية، رفيق «اخلج» في الدراسة عند الفقيه «اسباريدون» اي «الواثق بالله». فرفعا الصوت دفاعاً عن المستشهدين..

واقتنع غومس بن انطونيان «بالبراءة» الصادرة عن المجمع الاسقفي، لا سيما وان المطران وعده بانزال العقوبات باصحاب الشغب.

وما كادت تصدر هذه البراءة حتى اتخذها «الفارو واخلج» حجة ضد اخصامهم قائلين: هذه البراءة لا تشجب عمل الشهداء السابقين انما تحرم الاستشهاد منذ الآن فصاعداً. ما معنى هذا التحريم؟ اذا حللنا هذه البراءة بحذافيرها ادركنا ان الخوف قد املاها على قلوب الذين اصدروها. ان المجمع الاسقفي يوافق على الاستشهاد ولكن لا يتجاسر على البوح به.

وهكذا فان هذه النفوس المتهوسة الثائرة تحدت بعنجهية وكبرياء سلطة الاساقفة، غير انها لم تحسب حساب النتائج المتأتية عن تهورها وجسارتها، اعتقاداً منها انها تملك الشجاعة الكافية والحزم الوطيد. ولكن عندما قرر رئيس الاساقفة «ريكافريدو» تطبيق البراءة بمساعدة السلطة وامر بسجن رؤساء الحزب المعارض بما فيهم مطران قرطبة فوقعوا في حيرة ووجوم لا يوصفان. وعبثاً حاول «اخلج» واصدقاؤه اقناعهم انهم اذا فروا من درب العدالة وغيّروا مساكنهم فما ذاك الا لان ساعتهم لم تأت بعد وانهم غير اهل لاقتبال الشهادة. والحقيقة ان «اخلج» واصدقاءه يحبون الحياة اكثر مما يجهرون به ويقول هذا: «ان الانهيار شامل بين اعضاء هذا الحزب. سقوط ورقة من الشجرة يجعلهم يضطربون خوفاً ورعباً». وقد رأينا الكثيرين في السابق يحبذون اعمال الشهداء ويشتاقون اليها بدّلوا رأيهم وشعورهم بين ليلة وضحاها، وليس هذا فقط بل ان الكثيرين منهم اعتنقوا الديانة الاسلامية[1].

ورغم الحذر والحيطة والتستر فقد تمكنت السلطة من القاء القبض على مطران اشبيلية وانصاره[2] وزجوا في السجن. ولقي «اخلج» المصير ذاته. فبينما هو منصرف الى تأليف كتابه «ذكرى القديسين» الا داهمته الشرطة في منزله والقت عليه القبض امام دهشة ووجوم عائلته واقتيد الى السجن حيث التقى للمرة الثانية بحبيبة قلبه «فلورة» على النحو التالي:

في ضواحي قرطبة دير للراهبات ضم راهبة شابة اسمها «ماريا» اخت احد الرهبان الستة الذين تقدموا عفواً الى الاستشهاد فجدفوا على النبي العربي امام القاضي وقطعت رؤوسهم.

فقدت هذه الراهبة منذ وفاة اخيها طعم الراحة وصفاء العيش، فساءت حالها وغاصت في الاسى وانكمشت على ذاتها فاخبرتها احدى الراهبات اللواتي ضمهن الدير انها رأت اخاها في الحلم ووجه اليها هذه الكلمات التي علقت في ذهنها: «قولي لاختي ماريا: كفي عن البكاء علي لانك عن قريب ستجتمعين بي في الفردوس».

وانقطعت مارية فعلاً عن البكاء وانخرطت في حزب اخيها الشهيد ورامت الموت على النحو الذي ذاقه اخوها.

---

١ ـ اولوخيو: تذكار القديسين

٢ ـ القارو: حياة اخلج فصل ٤

توجهت الى قرطبة ودخلت للصلاة في كنيسة القديس «اسيسكلو» الكائنة على الطريق المؤدية الى العاصمة، وجئت قرب صبية تبتهل الى القديس بحرارة ادهشت مارية. تلك هي «فلورة» التي في احدى حالات هوسها، غادرت مخبأها استعداداً للموت شهيدة.

وسرّت الراهبة «مارية» كل السرور لانها عثرت على فتاة تقاسمها مقصدها، فاطلعتها على نواياها وتعانقتا واقسمتا يمين الولاء الا تفترقا منذ الآن، وان تموتا معاً.

وهتفت الراهبة مارية: اريد لقاء اخي.

وصرخت الاخرى: وانا اكون سعيدة قرب يسوع حبيبي.

وغمرتهما موجة من البهجة والارتياح الداخلي وسارتا حتى بلغتا قرطبة ومثلتا امام القاضي: قالت فلورا: كان ابي وثنياً[1] وانا مسيحية وقد انزلت بي عقوبة وحشية لاني رفضت جحود ديانتي المسيحية. ثم تملكني الجبن والضعف فتواريت عن الانظار. اما اليوم وقد امتلأت ايماناً بالهي، فلم اخش المثول امامك لاصرح بملء ارادتي وعلى مسمع من الخاص والعام ان المسيح هو الله وان نبيكم دجال.

وقالت مارية بدورها: وانا عاينت استشهاد اخي مع خمسة شهداء آخرين، اصرح بالجرأة نفسها ان المسيح هو الله وان ديانتكم من عمل الشيطان».

ومجرد هذا التصريح يقودهما الى الموت، غير ان القاضي رق لحسنهما وجمالهما وشبابهما الغض فعز عليه قتلهما وتمنى لو رجعتا عن كلامهما. ولكن اصرتا واعيتا القاضي، ومع ذلك اكتفى بسجنهما.

ولم يهد السجن من عزيمتهما بل تغلبتا على هذه المصيبة بالصلاة والصوم وتراتيل الاغاني الروحية وترانيم الاناشيد الكنسية، وسدرتا في تأملاتهما التصوفية الزهدية. غير ان السجن الطويل ضايقهما وخارت قواهما الجسدية وانهد حيلهما والانهيار الجسدي يؤدي الى انهيار المعنويات، بالاضافة الى التوسلات والتضرعات وصروف المحاولات للعدول عن موقفهما والتراجع عن تصريحاتهما،

---

١ ـ لم يكن ابوها وثنياً بل مسلماً، كما رأينا ولكن وصل التعصب الى اعتبار الاسلام وثني مع ان الديانة المسيحية لم تقل ان المسلم وثني.

وتهديدات القاضي المستمرة بالموت الشنيع وهما ما زالتا في ريّق فتوتهما واخضلال عودهما.

وانكشف للقاضي ان الخوف من العار يؤثر بهما اكثر من الخوف من الموت، فهددهما بالبغاء اذا لم تتراجعا عن شتيمة النبي العربي.

وكاد التهديد ينفذ الى اعماق قلبيهما لما اطل عليهما «اخلج» ينشطهما ويشدد من عزائمهما. وادرك حراجة موقفه: هل يدفع الى الجلاد الفتاة التي شغفته حباً وهو الذي يضحي باثمن ما لديه لقاء بسمة منها ولفتة؟ ايشجعها على الموت وهو يتمنى لها رغد العيش والزوج الحنون؟ انها تضحية لا تضاهيها تضحية.

وجالت في خاطره افكار وقلب الأمر على جميع وجوهه واخمد جمرة الحب المضطرمة في صدره وبحث في مكنونات دماغه عن البراهين التي لا تترك لفلورا مجالاً للشك في نبالة مقصدها وسمو غايته. هل كان فعلاً مقتنعاً في قرارة ضميره بكلماته الملتهبة حباً سماوياً؟ أيحق له ان يشجع فتاة طرية العود على لقاء الموت؟ وهي لم تبل حلو الحياة ومرها بعد؟ له ملء الحق ان يسلك هذا المسلك او ذلك المسلك تجاه نفسه وليس له ان يشجع غيره على سلوكه. ورغم جلده وصبره في الظاهر فقلبه يقطر حزناً والما. تجدد حبه في صدره وهو الى جانب هذه الفتاة الطهور. حب كما قلنا تجرد عن المادة، حب قادر على التضحية مهما سمت لأجل القضية التي تجند لها واصبح رائدها الأول ففرضت الكبت على عواطفه الانسانية ولم يشأ الاقرار انه تمادى في ثقته بقواه، فشاء اخماد الألم الصارخ وخنقه فاستسلم الى نشاط لا يمت بصلة الى شعوره بالحب، فيقرأ ويكتب ليلاً ونهاراً والف رسالة لاقناع «فلورة» ورفيقتها بانه لا شيء اسمى واعلى واكثر استحقاقاً من تحدي الاستشهاد[1]

وانهى كتابه «تذكار القديسين» وبعثه الى «الفارو» لكي ينقحه. وكتب رسالة الى صديقه «ولسندو» WILLESINDO مطران بنبلونة. وساعده صبره وهدؤه على تأليف مقالة في فن نظم الشعر غايتها ايقاظ الوطنية الراقدة عند مواطنيه منشطاً فيهم الميل للعودة الى الآداب القديمة التي تعتبر ادباً قومياً في المدينة التي شهدت ميلاد «سنيكا» ولوقيانوس، وبهذا خالف اعتقاد الكهنة الذين

١ ـ عنوان الرسالة: Documentum Martyriale

عاشوا على عهد القوط وكانوا يقولون بوجوب الاقلاع عن قراءة تلك الكتب الوثنية التي لم تُرشّ على مؤلفيها مياه المعمودية وظن «اخلج» انه يجد في الأدب الروماني القديم بديلاً عن الأدب العربي الذي تمسك به المعاهدون النصارى تمسكاً شديداً. لقد وجد ذاته سعيداً بحصوله على مخطوطات لاتينية لفرجيليوس وهوراسيوس ويوفينال[1] من بلاد نبارة وقد ادمى فؤاده اهمال المثقفين في موطنه الشعر الموزون اللاتيني فشاء تعليمهم قرض الشعر لكي يحسنوا صياغته كما في الماضي على عهد اغسطس قيصر

ولنعد الى «فلورة» فقد استدعاها القاضي من السجن بناء على طلب اخيها ورغبة منه في بذل آخر محاولة لانقاذها فلم تجد توسلاته نفعاً كما لم تجد في السابق. ولما عادت الى السجن بادر «اخلج» الى زيارتها وخال نفسه امام ملاك في جسم انسان، نور سماوي زين محياها فاشرق وجهها غبطة وحبوراً كأنها اخذت تنعم باللذات السماوية.

ويقول «اخلج»: انها رددت على مسمعه، لما زارها، اقوال القاضي وردها عليه والبسمة على شفتيها. ولما سمعت الرواية من فمها الحلو كالعسل حاولت تثبيتها في تصميمها وأريتها الاكليل الذي ينتظرها. اني اعبدها، وانحني اعجاباً واحتراماً امام هذا الملاك الطاهر. ورجوتها كي تصلي لاجلي لان نداءها مسموع. وانعشتني كلماتها وعدت من عندها ونفسي اقل المأ، واعتبر اليوم الذي نالت فيه فلورة ورفيقتها اكليل الشهادة يوم انتصار عظيم، ٢٤ تشرين الثاني ٨٥١،

وكتب الى صديقه «الفارو»: اخي: ان الله قد منحنا نعمة كبيرة فقد نالت فلورة ورفيقتها «مارية» اكليل الشهادة وذلك بفضل تعليمنا وتوجيهنا وتدريبنا وتلقيننا اياهما كلمة الحياة من ينبوع الحياة، فقد تغلبتا على سلطان الظلام وداستا كل العواطف البشرية الزائلة توجهتا والسعادة تملأ صدريهما الى لقاء عروسهما الذي يملك في السموات بدعوة منه الى العرس. لقد دخلتا في اخدار الطوباويين وهما ترتلان اغاني المجد قائلين «المجد والعظمة لك يا سيدنا والهنا لانك انقذتنا من سلطة الجحيم ولانك جعلتنا اهلاً للتنعم مع قديسيك بدعوتك لنا الى وليمتك السماوية.

---

١ - «الفارو»: «حياة ايولوجيو» Vita Eulogii فصل ٩.

ان الكنيسة تبتهج بهذا الانتصار وليس احد احق مني بهذا الابتهاج لانهما تخرجتا على يدي. وقويتهما بعد ان اوشكت مقاومتهما على الانهيار[1].

وبعد خمسة ايام من هذه الحادثة اطلق سراح «اخلج» والمطران شاول وباقي الكهنة. وقد نسب اخلج هذه الحرية التي ينعم بها الى شفاعة فلورة ومارية اللتين وعدتا بالطلب من سيد المجد ان ينقذهم من سجنهم. واظهر شاول الطاعة للاسقف ريكافريدو، خلافاً لاخلج الذي ضاعف نشاطه ليتضاعف عدد الشهداء وادرك مأربه فان الكثيرين من الرهبان والنصارى من نساء ورجال جدفوا على النبي العربي وماتوا[2].

وقد بلغ الهوس من البعض ان وصلت جرأتهم الى المسجد الجامع، ففي ذات يوم دخله شاب وراهب عجوز وهما يهتفان: لقد جاء ملكوت السموات لاجل المؤمنين النصارى، اما انتم ايها المسلمون فالى الجحيم.

وقد تمكن القاضي بصعوبة كبيرة من انقاذهما من ايدي الحاضرين الذين احتدموا غيظاً وشاءوا تمزيقهما ارباً، ولكن فرض القاضي هيبته واقتادهما الى السجن وقطع ايديهما وارجلهما ثم رأسيهما في ١٦ ايلول سنة ٨٥٢.

وبعد ستة ايام من هذا الحادث توفي عبد الرحمن الاوسط كما سنرى.

دخل اخلج السجن على عهد الامير عبد الرحمن الاوسط لانه عارض علناً البراءة التي اصدرها المجمع الاسقفي وعلى رأسه المطران ريكفريد عام ٨٥٢ وانفصل عن شركته وانصرف الى تشجيع وبث روح البطولة والتضحية بالذات لاجل حياة افضل وكان يحفظ رفاة الشهداء ويحيطها بالاحترام والاجلال.

انتهت هذه الفترة من الاضطهادات وانتخب اسقفاً على طليطلة ولم يستلم منصبه بل ظل في قرطبة ليموت شهيداً مع العذراء «ليوكريسيا» (Leocricia) عام ٨٥٩ على عهد الامير محمد وليس الامير عبد الرحمن الاوسط الذي توفي عام ٨٥٢.

وقد شجع المسلمين ونشطهم في هذا المسلك بعض النصارى الذين تخلوا عن دينهم واعتنقوا اليهودية او الاسلام، ومنهم الشماس الالماني «بودو» BODO.

---

١ ـ «ايلوخيو: تذكار القديسين ص ٢٦٦-٢٧١.

٢ ـ ص ٢٦٨ Memoriale Sanctorum .

جرى هذا الحادث عام ٨٣٩ على عهد عبد الرحمن الاوسط. فهذا الشماس الالماني المثقف احسن ثقافة في قصر الامبراطور، وتمكن من الديانة المسيحية حتى صار برتبة شماس وهي الرتبة التي تسبق رتبة الكاهن. طلب السماح له بالذهاب الى رومة للحج. وفي الطريق جحد الديانة المسيحية واعتنق الديانة اليهودية واختتن مثل اليهود ولحا شواربه ولحيته وشعره واتخذ اسم «لعازار» وباع جميع مرافقيه في سوق الرقيق ولم يستثن منهم سوى قريب له جحد ديانته مثله. تزوج اليعازار بيهودية وفي منتصف آب وصل الى سرقسطة وكانت هذه المدينة في الثغر الاعلى خاضعة لسلطة قرطبة. ولم يصدق الامبراطور ان الشماس «بودو» قد جحد الديانة المسيحية[1].

وليس من السهل معرفة الاسباب التي حملت هذا الاكليريكي الذي ينعم بكل جاه ومنزلة في بلاط الامبراطور على جحود ديانته. نسبها مؤلف «الحوليات البرتنيانية» الى الجشع والبخل بينما الفارو يعزوها الى الفسق والدعارة.

قدم الى قرطبة سنة ٨٤٠ لبلاء النصارى وتعذيبهم واضطهادهم فقد حث المسلمين على الغاء الطقس الديني المسيحي وتحويل جميع النصارى الى الديانة الاسلامية او اليهودية بالقوة.

ونظراً لما لاقاه النصارى من الاضطهاد عن يد هذا الرجل الجاحد وجهوا رسالة الى الامبراطور كارلوس الاصلع يتوسلون اليه ان يطالب بهذا الرجل الجاحد.

وقبل توجيه كتاب الى الامبراطور جرت مناقشة دينية بين «الفارو واليعازار لا سبيل لذكرها.

ولقد صب «الفارو» جام غضبه بنوع خاص على ريكافريدو رئيس اساقفة اشبيلية الذي، ارضاء للمسلمين، اضطهد مطران قرطبة «شاول» ذاته واولوخيو وبقية النصارى فيطلق عليه اسم «الكلب الكَلِبُ» في كتابه «المرشد المنير»، ويقول عنه انه وضع في ايدي المسلمين السيف لكي يبيدوا به شعبَ المسيح الله. وقد وضع كتاباً آخر سماه «حياة اولوخيو»، جئنا على ذكره مراراً عديدة، يعزو الاضطهاد الاول الذي لحق النصارى الى المطران ريكافريدو اكثر منه الى الامير عبد الرحمن الاوسط.

قاطع جماعته المسيحية زمناً طويلاً حتى تصالح معهم اخيراً في مجمع عقد قبل عام ٨٦٢.

---

١ ـ Annales Bertiniani مجلد رقم ٣ من مجموعة Duchesme.

الفصل الرابع عشر
نصر الخصي

قرطبة سابحة في ليل بهيم والسكون مخيم على الاحياء وهجع الناس في القصور والاكواخ، ومن حين الى آخر يسمع نقيق الضفادع او نباح كلب يخرقان ذلك السكون المهيب. ونهر وادي الكبير يسير الهوينا الى البحر. وقصر قرطبة مثل بقية الدور غارق في الظلمة والمصابيح انطفأت ونام الناس فيه الا اثنان لم تعرف عيونهما لذة الرقاد، وانى لهما الرقاد والقضية تحتاج الى التفكير والى سهر ليال وشهور وسنين اذا اقتضى الامر، فالمسألة خطيرة جداً تتناول اعلى مرتبة في الدولة المروانية في الاندلس التي ثبّت اركانها عبدُ الرحمن الداخل. ويعصف فيها بين فترة وفترة ريح الفتنة ثم تنطفىء باللين او بالعنف.

توفي عبد الرحمن الداخل فخلف هشاما ثم توفي هشام فخلفه ابنه الحكم الربضي ثم مات الحكم وجاء بعده عبد الرحمن الاوسط ابنه، ومن سيأتي بعد عبد الرحمن الاوسط كاد يناهز الستين وصحته ليست على ما يرام ولم يجزم في الوريث الذي يخلفه من اولاده الذكور الخمسين وقد عجم عودهم واحداً واحداً فوجد ابنه البكر محمد اصلحهم علماً وذكاء وفطنة وتقى وتدبيراً. . وولد آخر ينازعه ويريد الامارة لنفسه او بالاحرى امه تريدها له ومن هو الولد ومن هي امه؟ انه عبد الله وانها طروب الجارية التي لعبت بفؤاد عبد الرحمن وسلبت منه لبه وانسته جميع نسائه واستأثرت بقلبه فهي المحظية لديه ولا ينازعها احد على حب عبد الرحمن الذي نظم فيها الاشعار وسد بابها ببدر الدراهم ليحظى برضاها وليزيل الجفاء الذي اوقعته به لانها انقطعت عن مكالمته اياماً.

هذه «طروب» تريد ولاية العهد لابنها، ولا يجاريها عبد الرحمن في مطلبها كما تشاء بل ترك فؤاده مقسماً بين محمد وبين عبدالله، وفي الباطن يفضل محمداً ولكن اكراماً لطروب تظاهر بميله الى عبدالله ابنها. ولكن هذا التصرف وهذه

الرجرجة لا ترضيها ولا تضمن المستقبل لابنها ولها طبعاً، الآن وقد دخلت في عقدها الرابع وبهت جمالها قليلاً، غير انها ما زالت قادرة على استهواء الرجال ان لم يكن بالجمال فبالمال او بالاغراء او بالتلويح بالمصلحة والمنفعة.

لم تعرف عينها الرقاد في تلك الليلة واستدعت نصر الخصي الذي علت منزلته عند عبد الرحمن بن الحكم حتى اصبح يتصرف باسمه في امور الدولة، وارتفع نجمه بعد ذلك حين عهد الامير اليه قيادة الجيوش ضد المجوس الاردمانيين عندما نزلوا بسواحل البلاد سنة ٨٤٣.

ودهش نصر من استدعائه في تلك الساعة المتأخرة من الليلة.
ولبى الدعاء وهو يتهالك مثل سيده الامير على ارضاء الوجه الصبيح.

ـ دعتني سيدتي وانا رهن اشارتها. نفسي فداء لمولاتي.
ـ لا اشك بصدق مودتك يا نصر واخلاصك لي فقد برهنت عنهما اكثر من مرة. ولكن الآن القضية خطيرة تحتاج الى اعمال الفكر والذهن والحيلة والبطش اذا اقتضى الامر ولا مندوحة عنه.

فراع نصراً هذا الكلام الذي تنطق به طروب وما اعتادها تجهر بهذا البيان. وازدادت رغبته ولهفته لمعرفة خطورة القضية.
ـ ولاية العهد يا نصر.
وتنفس نصر الصعداء، لقد خال الامر اكثر ايذاء وحرجا.

ـ وما يضر سيدتي، وولاية العهد اصبحت شبه مضمونة لابنها عبدالله فابوه على الاقل لا يرفضه، وانا بدوري عملت واعمل على استمالة طبقات الشعب بالرغبة والرهبة، على تأييد عبدالله.
ـ انت تعلم، يا نصر، ان الوقت ليس لصالحنا فبقدر ما يمر الزمن بقدر ما ينفر الناس من عبدالله الذي كما بلغني عنه انه منصرف الى اللهو والطرب والملذات اكثر من انصرافه الى ما هو اكثر جدية وهداية. ولكنه ابني، يا نصر، والأم لا تستطيع ان تتنكر لابنها مهما جار ومهما تبذل. واني اخشى وخشياني في محله انه يأتي يوم ليس ببعيد فيصرف الامير وجهه عن عبدالله وينصرف الى محمد اعتقاداً منه انه اصلح لاستلام السلطة بعده.

واستسلم نصر للتفكير ووجد في كلامها صواباً. النفوس في قرطبة تميل الى محمد وقد يتأثر الامير عبد الرحمن بالرأي العام وتكون الضربة قاضية ولا سبيل للوقاية منها.

ووجم نصر وتمثلت له سوء العاقبة اذا وصل محمد الى الحكم فالامور بينهما لا تدعو الى الاطمئنان ولا شك انه خاسر منزلته وجاهه. لا، ان هذا لا يكون لقد نعم بشبابه كي يشقى بشيخوخته؟

وتمثلت له حالته الشقيّة وقد رزحت على ظهره السنون وجفاه القريب والبعيد حتى الذين انعم عليهم وغمرهم بفضله واحسانه يزورون بوجوههم عنه كأنهم لا يعرفونه.

فقال لطروب: وما الرأي والتدبير؟

ـ انت صاحب الرأي وانت المتمرس الماسك زمام الامور بيدك والامير لا يرد لك طلباً ويسمع قولك، وقول وزرائه مردود لقولك الذي ليس له رد، وقد نلت منه فوق ما ناله خادم خاص مع امير رشيد. فكأنه شاء ان يعوض عليك ما الحقه بك ابوه من ضرر وقسوة وانت تعلم ما اقصد.

ومدت يدها الى مكان ما من جسمه فلم يضطرب ولم يختلج له نبض رغم حبه الدفين الذي يكنه لهذه المرأة التي طالما متع بمرأى وجهها النظر، ولا شيء غير النظر، لقد حرمه الامير الحكم رجولته لما جيء به من قرمونة فتى لم يتذوق بعد لذة الشباب وبهجته، فخصاه لانه وسيم الوجه. اجل حمل جماله الوبال عليه، فلو انه ولد قبيح الشكل لكان ينعم برجولته الآن ويشعر بشهوة اللذة. كم تعذب في باطنه وهو يرى هذه المرأة وهو المنصرف الى خدمتها، في اوضاع مثيرة، شفتاها الحمراوان مثل النحاس، شعرها بلون الحديد، وعيناها مسودتان كشفت عن صدرها امامه وبرز نهداها من تحت الغلالة الرقيقة.

كل لفتة منها نداء
وكل نظرة اغراء
وكل بسمة خطيئة.

وقد صح فيها وصف الواصف: امرأة بيضاء مديدة فرعاء تقوم فلا يصيب قميصها منها الا مُشاشة[1] منكبيها وحلمتي ثدييها ورانفتي اليتيها[2]، مملوءة الساقين ناعمة الاليتين مهضومة الخصرين رخصة الكتفين ناهدة الثديين حمراء الخدين كحلاء العينين لمياء الشفتين غيداء العنق مكسرة البطن.

---

١ ـ مشاشة، بضم الميم: رأس العضم اللين الذي يمكن مضغه.
٢ ـ الرانفة: اسفل الالية الذي يلي الارض عند القعود.

تلك هي طروب، كم من المرار خطرت امامه وهو جامد مشدوه امام هذا الجمال الذي يحرك الجماد.

وثارت فيه النقمة ولعن الحَكَم وتمنى لو ينتقم منه، ولا مجال للانتقام وقد طواه الردى ولفه التراب منذ زمان طويل. وها هو ابنه عبد الرحمن الاوسط، ولمس جريمة والده حيال نصر فشاء ان يكفر عن تلك الجريمة باحلال نصر المنزلة الاولى في القصر فهو يأمر وينهي والناس تسمع كلامه وتخاف سطوته والاعيان يحسبون له الف حساب. وما نفع كل هذا اذا حرم لذة الشهوة ولذة البنين وهي لذة شرعية تنعم بها وحوش البرية.

وايقظته طروب من تأملاته واقتربت منه ولامست خده فأخذ يدها وقبلها بلهفة وشوق وتمنى لو يضم اليه هذا الجسد الناضج النابض بالحياة والصارخ بالشهوة. وعاودته الرغبة مراراً ولكن بعد الضم والعناق والتقبيل ماذا؟ لا شيء.

وقرر في نفسه امراً ترضى عنه طروب او على الاقل تسكت عنه.

وشاءت زيادة ايضاح: هل الامر الجلل المقدم عليه له علاقة بمصير ابنها؟

فاكتفى نصر بالقول: ساضرب ضربة تهتز لها الاندلس من اقصاها الى اقصاها.

- الا سبيل للافصاح؟
- سيجرى كل شيء على خاطر مولاتي.
- بورك فيك يا نصر، لم تخيب ظني، ومتى تظهر النتائج؟
- عن قريب، قبل اسبوع تسمعين ما يثلج صدرك ويزيل قلقك وكربتك.

فدنت منه طروب تلاعبه وتداعبه وتتحسس جميع اعضائه كأنها تتحسس حيواناً اليفا. انها لا تخشى منه شرا. وتمنت في اعماق صدرها لو استطاعت ايقاظ حواسه. هذا الجمال الرجولي فيه قد تحول الى وداعة ورقة ولهفة لا تتعدى الضم والتقبيل. وقد بدأت تشعر بالرغبة نحو الرجل لا سيما وان عبد الرحمن قد توغل في الخمسين وشارف على الستين ثم ان حالته الصحية لا تجيز له التفريط، فانه منذ اشهر والألم في احشائه يبرح به بحيث انه تصدر عنه تصرفات فيها الكثير من الخشونة مما لم يعهد به في السابق. واستشار الأطباء في علته ولم يحسنوا تشخيص الداء:

«ولو عرف الطبيب دواء داء   لرد الموت من قاسى النزاعا»

وطرقت دماغ طروب فكرة شيطانية شاءت ان تواجه بها نصراً وعدلت. وقد يكون ادرك ما يدور في خلدها وشاء مفاتحتها بخطته وتراجع فقد تثنيه عن عزمه في اللحظة الأخيرة وتصرفه عنه ربما بقيت في صدرها بقية عطف نحو ذلك الأمير الذي تدله بحبها وبذل المستحيل لارضائها.

وكان قد انقضى الهزيع الأكبر من الليل وهم بالانصراف دون ضجة خشية اثارة الظنون لأن خروجه من عند مولاته في مثل هذه الساعة مدعاة للريبة: ما الحاجة للدخول اليها في مثل تلك الساعة وهو قادر ان يراها ساعة يشاء من اوقات النهار دون حرج ودون خشية؟،

واوقفته طروب وبات عندها تلك الليلة او ما تبقى منها.

وفي الصباح بادر الى الحراني الطبيب الذي يثق به كل الثقة وهو من اشهر الأطباء الذين عرفهم في ذلك العهد. ليس اندلسياً بل مشرقياً، ولقبه يدل عليه انه من حران واسمه الكامل: يونس بن احمد الحراني ورد من المشرق منذ سنوات واستوطن قرطبة ولذ له فيها المقام ونال شهرة واسعة لدى الخاص والعام وقربه الأمير عبد الرحمن الأوسط واكرمه. ويروى عنه، نقلاً عن الخليفة الحكم الثاني المستنصر المتوفي سنة ٩٧٦، ان هذا الحراني ادخل الأندلس معجوناً كان يبيع الشربة منه بخمسين ديناراً لأوجاع الجوف، فكسب به مالا. فاجتمع خمسة اطباء مثل حمدين وجواد وغيرهما وجمعوا خمسين ديناراً وهو مبلغ لا يستهان به في ذلك الحين وفي ايامنا هذه ايضاً واشتروا منه شربة من ذلك الدواء وانفرد كل واحد منهم بجزء يشمه ويذوقه ويكتب ما تأدى له منه بحسه. ثم اجتمعوا واتفقوا على ما حدسوه وكتبوا ذلك.

ثم نهضوا الى الحراني وقالوا له: قد نفعك الله بهذا الدواء الذي انفردت به ونحن اطباء اشترينا منك شربة وفعلنا كذا وكذا وتأدى لنا كذا وكذا وكذا، فان يكن ما تأدى الينا حقاً فقد اصبنا والا فاشركنا في علمه فقد انتفعت.

فاستعرض كتابهم وقال: ما اعديتم من ادويته دواء، ولكن لم تصيبوا تعديل اوزانه وهو الدواء المعروف بالمغيث الكبير

فاشركهم في علمه وعرف من حينئذ بالأندلس[1]

١ ـ ابن ابي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ـ دار الثقافة بيروت الجزء ٣ ص ٦٦

وكان له ابنان احمد وعمر، رحلا الى المشرق في دولة الناصر لدين الله واقاما هناك عشرة اعوام ودخلا بغداد وقرا فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قره الصابىء كتب جالينوس.

هذا الطبيب هو بغية نصر وهو من صنائعه.

وابصره الحراني قادماً اليه من بعيد على بغلته. فـدهش للأمـر: نصر الخصي الذي تنحني امامه الجباه يقصده، لا شك ان وراء الاكمة ما وراءها والا لاستدعاه اليه وعرض عليه حاجته.

ورحب به، طبعاً، وعد زيارته شرفاً لا يستحقه

- جئت اليك في امر ذي بال.

- انا رهن اشارة سيدي وهو ولي نعمتي والمفضل علي ولا انسى جميله ما حييت.

- دعنا من كل هذا واصرف هؤلاء الناس. اريد الكلام معك في خلوة.

- الأمر خطير لهذا المقدار يا مولاي؟

- انه اخطر مما تظن. ما ترى رأيك في شيء وتحوز به حسن رأيي ويسرع اليك العطاء الرغيب واكون لك من الممنونين.

- يا سيدي، بعض هذا غاية املي فكيف لي ببلوغه؟

- خذ هذه الألف دينار ابتداء فاصلح بها من شأنك واعمل لي «سنون الملوك»[1] من اجل ما تقدر عليه واشده فتكا. فيدك فيما عندي منطلقة..

- يا مولاي، اني لم اتعلم الا الأدوية النافعة فان اردت ان امضي واتعلم غيرها فعلت.

- دع عنك ذلك وفكر فيما طلبته منك ولك مكافأة افضل..

- يا سيدي، اني لم احسن الا الشيء النافع ولم اتعلم غيره ثم اننا نحن الأطباء نحفظ عهد ابقراط.

- ابقراط؟ وماذا قال ابقراط في هذا الموضوع؟

- قال: «اني اقسم بالله رب الحياة والموت وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج واقسم باسقولبيوس واقسم باولاياء الله من الرجال والنساء جميعاً واشهدهم جميعاً على اني افي بهذا اليمين وهذا الشرط وارى ان المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة ابائي واواسيه في معاشي واذا احتاج الى مال واسيته وواصلته من

---

١ - سنون: مسحوق تنظف به الأسنان، والمقصود به هنا بعض السموم.

مالي. واما الجنس المتناسل منه فأرى انه مساو لأخوتي واعلمهم هذه الصناعة ان احتاجوا الى تعلمها بغير اجرة ولا شرط ولا اشرك اولادي واولاد المعلم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط واحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة. واما غير هؤلاء فلا افعل به ذلك واقصد في جميع التدبير بقدر طاقتي منفعة المرضى واما الأشياء التي تضر بهم وتدني منهم بالجور عليهم فامنع منها بحسب رأيي ولا اعطي اذا طلب مني دواء قتال، ولا اشير بمثل هذه المشورة وكذا ايضاً لا ارى ان ادني من النسوة فرزجة تسقط الجنين واحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الزكاة والطهارة. فلا اشق ايضاً عمن في مثانته حجارة ولكن اترك ذلك الى من كانت حرفته هذا العمل، وكل المنازل التي ادخلها انما ادخل اليها بمنفعة المرضى. وانا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد ارادي مقصود اليه في سائر الأشياء وفي الجماع للنساء والرجال الأحرار منهم والعبيد. واما الأشياء التي اعانيها في اوقات علاج المرضى أو اسمعها في غير اوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا ينطق بها خارجاً فامسك عنها وارى ان امثالها لا ينطق به فمن اكمل هذه اليمين ولم يفسد منها شيئاً كان له ان يكمل تدبيره وصناعته على افضل الأحوال واجملها وان يحمده جميع الناس ومن تجاوز ذلك كان بضده[1]».

تلك يمين ابقراط وقد اقسمت هذه اليمين يا سيدي، لما كنت في بغداد ولا احنث بيميني فان الله لا يوفقني.

ـ الا يستهويك المال والجاه وتقديمك على سائر الأطباء في قرطبة والدخول الى القصر ساعة تشاء، وتتحكم بارادة الكبير والصغير هناك؟

ـ ان ما يدعوني اليه سيدي لهو من الخطورة بمكان، انه يتناول صاحب هذه البلاد، ومن يدري ماذا يجري بعد مقتله قد تنشب الثورات في الثغور وتفلت الأمور فيتناثر عقد هذه الدولة التي طالما عنى بها الأمويون، واعداؤها كثيرون في الداخل وفي الخارج يتربصون بها الدواهي. وقد دلت التجارب ان الثورات تنشب والفرنجة يتحركون في كل مرة تزول السلطة من قرطبة في الانتقال من يد الى يد. وهذا ما جرى بالفعل لما توفي عبد الرحمن بن معاوية ثم لما توفي ابنه هشام، يغتنم الأعداء فرصة انشغال الادارة المركزية بتشييع الجنازة واخذ البيعة واعداد مراسيم الانتقال فينقض الأعداء ناقضين الأحلاف والمواثيق

---

١ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن ابي اصيبعة دار الثقافة بيروت جزء اول ص ٤٣ ـ ٤٤

التي اخذوها على انفسهم في العهد السابق بحجة انهم لم يعودوا ملزمين بالتقيد بها فيقتلون ويسلبون وينهبون ما وصلت اليه ايديهم.

فاضطرب نصر عند سماعه هذا الكلام، فقد ظن في بادىء الأمر ان الحراني سيلبي طلبه بسهولة فهو صنيعته ولم يدخل في حسابه هذا الاصرار والعناد الباديين منه. ثم ماذا يهمه، ازدهرت الدولة او اضمحلت، او استلم السلطة فلان او فلان. لم تنجح هذه الوسيلة فسلك سبيل التهديد والوعيد.

ـ انت تعلم فضلي عليك، وانت صنيعتي واني قادر على ردك الى حالك الأولى وان اقصيك عن الأندلس اذا احببت.

فعظم الأمر على الحراني عند سماعه التهديد القاصم، ونصر ينفذ وعيده اذا خيب في امله. انه في حيرة لا يدري الخروج منها: ايقضي على الأمير عبد الرحمن؟ ايخالف نصراً حتى النهاية؟

وبدر له خاطر لمعت له اساريره فقال لنصر:

ـ هل لك ان تمهلني ثمان واربعين ساعة وانا اجيبك الى طلبك؟

فاستبشر نصر بالخير، حظه يوآتيه. فالقى الدنانير بين يدي الحراني وانصرف مسروراً واثقاً من نجاح خطته

وصادف ان شكا الأمير الى نصر فتوراً يجده، وهو غائب الظنون مكشح الشبهات عما يدبر له في الخفاء. فاشار عليه نصر بالدواء المسهل. وكان من عادته فذكره بادخاله

ووجد نصر ان الفرصة قد سنحت فاستدعى الحراني فوافقه على ادخال الدواء.

واستخلص نصر من الأمير عبد الرحمن الإذن بدخول الحراني الى خزانة الطب وتمكينه مما يريد من اخلاط دوائه ليقيمه على حده.

دخل الحراني خزانة الطب وبهره ما رأى فيها من الحشائش التي قلما توجد في مكان آخر. وكانت «فجر» حظية الأمير وضرة «طروب» لا تألو جهداً في الحط منها والتقرب من عبد الرحمن والعمل على مرضاته بشتى الوجوه والانصراف الى خدمته ما وجدت الى ذاك سبيلاً عن طيبة خاطر لأنها تحب مولاها بقدر ما تكره طروباً، ويسؤها ان يكون خصها بعطفه ومحبته مع انها انانية لا تبادله حباً بحب، تريد كل شيء لها ولولدها الذي انجبته للأمير عبد الرحمن.

ولما شاع في القصر ان الحراني يهيء الدواء الناجع للأمير شاعت «فجر»

ان تكون الوسيطة والمساعدة له في ارشاده الى الحشائش التي يحتاج اليها، فهي اكثر من مرة ساعدت غيره من الأطباء في اعداد الدواء للأمير.

وادرك الحراني ان فجراً واقعة في هوى سيدها الذي وضع فيها ثقته وان لم يبادلها حباً بحب، يثق بها فهي لا تخونه لأنها تحبه.

فناداها الحراني بحجة البحث عن حاجة لم يعثر عليها في خزانة الطب.

ولما دنت منه همس بها قائلاً: «اذا كان عندك قيمة لحياة الأمير عبد الرحمن سيدك حذريه من شراب الدواء الذي يقدمه له نصر او يرسله له وان يعمل على سقي نصر من الدواء نفسه تشاركاً له ومعيناً قبل ان يتذوقه الأمير.

فلما سمعت فجر هذا الكلام طار قلبها جزعاً وفرحاً في الوقت ذاته، انها تخشى على مولاها ان يصيبه مكروه، ولسبب ما قد لا تستطيع تحذيره قبل الموعد المضروب فيكون قد سبق السيف العذل. وسرت كل السرور لأنها سانحة تكشف فيها حبها لسيدها وسهرها على سلامته.

وتمنت لو لها جناحان تطير بهما الى الأمير.

وساعدها الحظ فالفته وحيداً فدنت منه وخاطبته همساً:

ـ لي حديث احب ذكره لمولاي على حدة دون رقيب.

وتسأل الأمير عن هذا الحديث الخطير الذي تريد ان تبثه فجر في مسامع الأمير.

وتلهف لسماعه. ولما اصبحا على خلوة بادرته قائلة: «كنت مع الطبيب يونس الحراني في خزانة الطب وانت تعلم انه يهيء لك الدواء فقد طلب الي ان ابلغ مولاي الأمير ان يمتنع عن شرب الدواء الذي سيقدمه له نصر

وبهت الأمير من سماع هذه الكلمات والتفت الى «فجر» وفي نظرته صرامة وقساوة.

ـ حذار، يا فجر، ان ما تبوحين به لفي درجة الخطورة. نصر يعمل لقتلي وقد جعلت مرتبته فوق مرتبة اولادي وحجابي ووزرائي؟ نصر يريد القضاء علي؟ أيرى في موتى فائدة له اكثر من وجودي في قيد الحياة؟

بماذا اسأت الى هذا الرجل حتى يضمر لي البغضاء، لم ير مني الا كل خير ونفع. ما ذنبي اذا كان خصاه والدي، رحمه الله، كما خصى غيره من الفتيان جيء بهم من اطراف المملكة وقد اشتهروا بجمالهم فخصاهم للخدمة.

ما زال متردداً بين التصديق والتكذيب.

والحف في السؤال: أحقاً قال لك هذا الطبيب الحراني؟

ـ هل بدر مني نحو الأمير ما يشتم منه غير الاخلاص والتفاني في خدمته والسهر على سلامته وراحته؟ وبالحقيقة ليس للأمير عبد الرحمن ان يشك في محبة «فجر» له. كيف ظل اعمى الى هذا الحد طيلة اعوام فاهمل من تتهالك على حبه ومرضاته، واقبل على من لا ترعى له عهداً ولا تريد سوى مصلحتها وما يدغدغ انانيتها. أليس لطروب يد في ما يسعى اليه «نصر»؟ فاذا تواريت عن مسرح الأحداث يكونان المستفيدين الوحيدين فيخلو لهما الجو في تنصيب عبد الله..

وظل على ريب من سوء نية الشخصين اللذين احبهما الأمير عبد الرحمن فوق الجميع: نصر وطروب. وها هما يكيدان له ويسعيان لهلاكه.

وتمنى في قرارة نفسه لو كان الخبر كاذباً حتى لا تنهار آماله ويتبين له انه كان على خطأ طوال حياته في تقديم هذين المخلوقين التاعسين على غيرهما من الناس.

وغاص في الكمدة كأنه فقد اعز شيء عنده وبالفعل فقد خسر آماله والآمال في كثير من الأحيان اعز على اصحابها من المصالح، فما حاله اذا رأى هذه الآمال تتبدد كما تبدد الريح الغمام؟.

واستسلم لتفكير طويل ورام الوحدة فلا احد يعكر عليه خلوته، فان ما بثت «فجر» في مسمعه هزه هزاً قوياً فزعزع منه رباطة الجأش وثبات العزم ورسوخ التصميم وبات يتوقع الساعة التي ينجلي فيها الشك عن وجه اليقين وتنكشف خفايا القلوب وتتفتح اسرار الضمائر.

وبات تلك الليلة على احر من الجمر لا يغمض له جفن ولا يستقر له قرار حتى طلع الصباح. وبكر نصر اليه بذلك الخلط المسموم كأنه يخشى ان يقع ما ليس بالحسبان فتفسد المؤمرة ويخيب الأمل. فبادره عبد الرحمن متهكماً: ما ظننت انك تغار على سلامتي بهذا القدر حتى باكرتني «بالدواء الناجع».

فبهت نصر للمفاجأة التي لم يتوقعها واللهجة التي يخاطبه بها، هل نمّ الحراني؟ وما يظنه يفعل فقد يصيبه بعض رشاش الدواء.

كل هذه الأفكار راودت مخيلته بسرعة وخال ان الأرض تميد به فاستعاد رباطة جأشه:

ـ يعلم مولاي الأمير، اني اغار على سلامته وصحته وعسى يجد في هذا الدواء الشفاء السريع.

ـ ولماذا لا تقول: الراحة الكبرى. ألا تشتهيها لي؟ انت الساهر على

راحتي الراغب في انقاذي من آلامي التي قلما تفارقني في هذه الأيام الأخيرة.

ـ معاذ الله ان يدور في خلدي خاطر يكون فيه اذى لمولاي الأمير فهذا الدواء، كما اكد لي الحراني فيه الشفاء السريع، فكأنه شوكة ونزعت، ومولاي يعلم ان الحراني من الأطباء المشهورين الموصوفين بالأمانة وطيبة الضمير، ولا يضاهيه احد من اطبائنا الأندلسيين..

ـ لم يعد لي غرض في هذا الدواء فقد حدث لي وعكة طاف بي ليلتي ولا فضل فيه للدواء. ولكن اشربه انت اذا كان من الجودة التي تصفها.

فامتقع وجه نصر لما سمع الأمير عبد الرحمن يطلب اليه شرب الدواء فقال:

ـ ايها الأمير، قرأت عن ابقراط انه قال: «لا تشرب الدواء الا وانت محتاج اليه فان شربته في غير حاجة ولم يجد داء يعمل فيه وجدت صحة يعمل فيها فيحدث مرضا.

فزجره الأمير عبد الرحمن وقال:

ـ سبحان الله، شيء اجتهدت لي فيه والطفت تركيبه تخاف غائلته؟ عزمت لتشربنه.

فعلم نصر ان مخالفة الأمير في هذا الوقت مستحيلة فامتلأ صدره خوفاً وقال:

ـ اذا كان الأمير مصراً على ان اشرب الدواء فلا مانع عندي.

وشرب بين يدي الأمير.

ثم استأذن في الذهاب الى بيته.

فأذن له وامره بالخروج. فانطلق يركض وركضه يزيده شرا.

وبدل ان ينصرف الى بيته توجه في الحال الى بيت الحراني.

ودهش الحراني لما رآه عنده:

ـ هل من حاجة اقضيها لك؟

ـ اظن ان منيتي قد دنت فقد تجرعت الدواء الذي اعددته للأمير، كرهاً مني ولم اجد وسيلة للاعتذار لأن الأمير لم يترك لي مجالاً، وقد بدأت اشعر بنار تلتهب في احشائي. انقذني من مصيبتي ولك نصف مالي واكثر.

فسر الحراني في داخله لنجاة الأمير غير انه لم ير من الحكمة والفطنة التصريح لنصر انه هو الذي دس من نبه عبد الرحمن الى التصرف على الطريقة التي تصرف بها.

وازداد نصر ضيقاً والسمّ يعمل في جسمه، وتوسل ما شاءت له نفسه ان يتوسل الى الطبيب الحراني ان ينقذه من بليته.

والحراني لا يهون عليه قتل نفس ارادت الموت لنفس اخرى فقال له:

- عليك بلبن المعز فان شربه يفتر عنك.

ففرق غلمانه في جميع نواحي قرطبة في طلب لبن المعز وما اسهل الحصول على لبن المعز في تلك الأيام من الربيع ونحن في شعبان ٢٣٦/نيسان ٥٨١، ومع ذلك لم يدركوه باللبن في حينه فعوجل قبل ان يؤتى به.

وما اشرق الصباح حتى شاع خبر وفاة نصر وطار بسرعة البصر حتى وصل الى القصر وادرك عبد الرحمن صدق جاريته «فجر» فهو مدين لها بالحياة.. فلم يشك في ان وفاة نصر ناتجة عن تجرع الدواء الذي اعده للأمير.

وهب الى مقصورة «فجر» دون سابق علم. وكان قد وصل الخبر الى مسامعها، وكذبته، حتى دخل عليها الأمير فجأة والكلام يجهر في عينيه والتأثر ينطق في ملامحه فهرعت الى استقباله والسرور يملأ فؤادها لم تتوقع هذا اللقاء وان كانت تشتاقه وتتمناه بكل جوارحها، فارتمت عند قدميه تقبلهما فرفعها اليه وضمها الى صدره: بورك فيك يا فجر، لولاك كنت الآن في عداد الأموات، لولاك لكنت مكان نصر الخبيث فقد صدق فيه المثل: «اتق شر من احسنت اليه».

- نفسي فدى الأمير، طوبى لي ان يزورني مولاي وابيت ضجيعته لأهبه من نفسي كل ما تنطوي عليه من هوى صادق واخلاص وتفان في خدمته.

- انا طوع يمينك وحبيس هواك، ما عرفت حقك حتى اليوم فما اغباني.

فاخذت رأسه بين يديها وصارت تداعب شعر لحيته باصابعها وتلثم جبينه وعنقه واذنيه بلهفة، واستغرب تلك الملامسات ودب مفعولها في جسده فكأن الستين عاماً الرازحة على كتفيه قد زال ثقلها وشعر بشبابه يتجدد وتعاوده قوته ويتحرك فيه نشاطه وقد خاله قد خبت فبادلها اللمسات والقبلات الحرار يوزعها على انحاء جسدها الذي لا تستره سوى غلالة شفافة يبين من خلالها بياض جسمها وتكاوين اعضائها واستدارة نهديها وانسجام فخذيها وضمر خصريها. فدس يده تحت الثوب ومسد فخذيها برفق اقشعر له بدنها ودخلت في استرخاء لذيذ تملك كيانها، وشعرت بحاجتها الى الرجل. غير أنها تمالكت وهمست في اذن عبد الرحمن كلمات استراح لها وعمل بموجبها فاستلقى على قفاه واستسلم طائعاً لرفيقته فجرّدته من ثيابه ببطء وتنقّلت شفتاها على جسده وبادلها القبلة قبلتين وطحن نهديها

على صدره بعد أن علته، وراقه منها هذا التصرف وهيج فيه الرغبة والشوق إلى امتلاك هذا الجسم المتفجر شهوة وحناناً وأنوثة في الوقت نفسه، ولا حاجة له ببذل أي مجهود لادراك وطره منها فقد مهّدت له الطريق وأزالت العوائق وسهّلت الوصول إلى المعين المقصود يروي منه الغليل، وطال مقامه فيه وخشيت عليه وخيم العاقبة. فقالت بصوت لا تدل نبرته على أن صاحبته مقتنعة بما تقول: «اذا شاء الأمير نهضت فقد يضر به طول المكث.».

وتمنت في قرارة نفسها لو يرفض فحالتها السادرة فيها هي غاية ما تصبو اليه، فقد ايقظت فيها شهوة ونشوة لم تعرفهما من قبل، فكأنها للمرّة الأولى تبيت مع هذا الرجل المستلقي على ظهره تحتها، ولو أعطيت الخيار لاشتهت أن تظلّ العمر كله في هذا الوضع. وخشيت من نفسها على نفسها، من لها ان يطفىء هذه الجمرة التي تزيد اوارا.

ومنذ ذلك الحين وعبد الرحمن يهرع الى مقصورتها كلما شعر بحاجة الى الراحة او تفريج ضيق النفس متناسياً جميع جواريه بما فيهن «طروب» لا سيما وقد علم في اعماق ضميره ان طروباً لها ضلع في المؤامرة التي كادت تودي بحياته. ومن ناحية اخرى فقد وجد المرأة التي تحب الرجل، لا الأمير ولا السيد.

وسر الناس بموت نصر واطبقوا على ذمه. وقال يحيى الغزال عدوه الموتور عند موته:

«اغنى ابا الفتح ما قد كان يأمله	من التصانع والتشريف للدور
وكل عرض وقرض كان يجمعه	حفيرة حفرت بين المقابير
لم يألها القوم تضييقا ولا وقعت	فيها الكرازين الا بعد تقدير
فصار فيها كأشقى العالمين وان	لفوه بالنفح في مسك وكافور
ما العرف لو اخبرونا بعد ثالثة	الا كعرف سواه في المناخير
وكان ازمع شيئا لم تكن سبقت	به من الله احكام المقادير
اذا اراد الإله الشيء كونه	فلن يضرك فيه سوء تدبير

قال ابن حيان: «وذكر ان الغزال انذر بهلك نصر من طريق التنجيم قبل وقوعه بمدة فقال (من الكامل):

قل للفتى نصر ابي الفتح	ان المقاتل حل بالنطح
واراه قهقر فيه ثم مضى	قدما ومدبرة الى الرمح
وارى النحوس له مساعدة	فانظر لنفسك واقبلن نصحي
ووجدت ذلك اذ حسبت له	مما يدل على غلا القمح

ونــزول امــر لا افــوه بــه	لــو كان يبْلغ بي الى الـربـح
واذا رأيـت الـبـدر في بـلـع	نـزل القضـاء بـابـرح البـرح
يـا رب طـالعـة العشـاء اتت	بخـلاف ذاك طوالـع الصبـح
ولـرب رافـلـة عـشـيـتـهـا	في الوشي اضحت وهي في المسح
تبكي عـلى من كان يكـرمهـا	نحّـاء بـيـن نـوادب نـحّ[1]

وقال ايضاً في نصر وذكر مسكنه بمنيته الى جانب مقابر الربض والنهر:

«ايا لاهيا في القصر قرب المقابر	يرى كل يوم واردا غير صادر
كأنك قد ايقنت ان لست صائرا	غدا بينهم في بعض تلك الحفائر
تراهم فتلهو بالشراب وبعض ما	تلذ بـه من نقر تلك المـزاهر
وما انت بالمغبون عقلا ولا حجى	ولا بقليل العلم عند التخـابر
وفي ذاك ما اغناك عن كل واعظ	شفيق، وما اغناك عن كل زاجر
وكم نعمة يعصي بها العبد ربه	وبلوى عدته عن ركوب الكبائر
سترحل عن هذا وانك قـادم	وما انت في شك على غير عاذر

ومقابر الربض هو تذكير بثورة الربض المشهورة التي نشبت ضد الحكم بن هشام في سنة ٢٠٢/٨١٨ والتي كانت من عواقبها ان امر الحكم بهدم كل مباني هذه المنطقة وتركها خلاء فتحولت منذ ايامه الى مقابر. وكان الحكم قد اوصى خلفاءه بألا يسمحوا باعادة البناء فيها. فاحترم من خلفه من امراء بني امية تلك الوصية، ولم يرتفع فيها بناء حتى نهاية الدولة. وقد اورد ابن حيان في القسم الخاص بالحكم بن هشام الربضي من كتاب «المقتبس» وهو الذي مـا زال مخطوطـاً اورد نصاً طريفاً حول وصية الحكم المشار اليها فقال انها ظلت محترمة مدة قرنين من الزمن حتى ايام الخليفة هشام الثـاني المؤيد بن الحكم المستنصـر حينما كان يضطلع بامور الدولة الحاجب العامري المظفر عبد الملك بن المنصور بن ابي عامر اذ سمح للناس بالبناء هناك. واتفق ان مر الخليفة هشام المؤيد بهذه المقابر فرأى الناس شارعين في عمارتها فغضب وارسل الى الحاجب المظفر رسالة يلومه فيها اشد اللوم على سماحه للناس بعمارة الربض على ما في ذلك من مخالفة لوصايا اسلافه وانتهاك ما جرى به التقليد، وطلب الى الحاجب ان يأمر بهدم ما بني هناك. فانصاع عبد الملك لتلك الرغبة وامر بهدم كل ما ارتفع من بناء وتسويته بالأرض كما كان. وقد استمر هذا التقليد حتى بعد سقوط

١ ـ نح ينح نحيحا: تردد صوته في جوفه.
ـ بلع: منزلة القمر

الدولة المروانية .وظل جارياً محترماً حتى سقوط قرطبة بأيدي النصارى، يشهد ذلك قول ابن الأبّار في الحلة السيراء في معرض الحديث عن الحَكَم بن هشام واخماد ثورة الربض:

«وهو الذي اوقع باهل الربض فنسب اليه وامر بهدمه وتعطيله وصير ذلك وصيته فيمن خلفه وعهداً على بنيه ما كان لهم من سلطان في الأندلس، فلم يعمّر ولا اختطت فيه دار الى آخر دولتهم. ثم بعدها الى ان ملك الروم قرطبة يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ١٢٣٦/٦٣٣ واقام على ذلك نحواً من اربعمائة سنة وثلاثين سنة، ولا اعلمه إلا كذلك الى اليوم.

وذكر الفقيه محمد علي بن احمد بن حزم ان نصراً هذا الذي تنسب اليه «منية نصر» الأثير كان عند الأمير عبد الرحمن بن الحكم وكان من الفتيان المنتقين الذين خصاهم ابوه الأمير الحكم من ابناء الناس الأحرار ليستخدمهم داخل قصره. وابوه المعروف بأبي الشمول من اسالمة اهل الذمة[1] من اهل قرمونة[2] نال بابنه نصر دنيا عريضة وكان موته قبيل مهلك نصر ابنه بايام.

وبعد وفاة نصر الفتى انزل السلطان عبد الرحمن زرياباً مغنيه في منية نصر الخصي اثيره بعد موته. فقال الشاعر يحيى الغزال في ذلك:

«ذكر الناس دار نصر لزريا	ب واهـل لنيلهـا زريـاب
هكـذا قـدر الإلـه وقـد تجـ	ـرى بما لا تـظنـه الأسباب
اخـرجوه منهـا الى مسكن ليـ	ـس عليه الا التراب حجاب
لا يجيب الـداعيه فيـه ولا ير	جـع من عنـده اليـه جـواب
وتغـانت تلك المـراكب عنـه	واميلت الى سـواه الـركـاب
ليس معه من كل ما كان قد جمـ	ـع الا ثـلاثـة اثـواب

١ ـ هذه الاشارة الى اسالمة اهل الذمة ذات قيمة كبيرة في التعريف بطائفة كبيرة من طوائف المجتمع الأندلسي، والمقصود بها من اعتنقوا الاسلام من العجم والنصارى. وكان الأندلسيون يستخدمون في التعبير عن هؤلاء كلمتين: «الأسالمة» والمسالمة». وقد استعمل ابن الفرضي في تراجم كتابه تعبيراً مشابهاً للذي نقله ابن حيان عن ابن حزم، اذ ذكر في ترجمة عبد الله بن عمر بن الخطاب الاشبيلي انه كان من مسالمة الذمة فملأ اشبيلية علماً وبلاغة ولساناً حتى شرقت به العرب. وكثيراً ما يستخدم ابن حيان كلمة «المسالمة» في القطعة الخاصة بالأمير عبد الله من كتاب «المقتبس» وقد استبلغ في دراسة هذا اللفظ.

٢ ـ قرمونة CARMONA مدينة تقع في مقاطعة اشبيلية وعلى بعد ٣٥ كيلومتراً من الشمال الشرقي واسمها في الأصل لاتيني CARMO اذ كانت من المدن التي اختطها الرومان. وكانت من القواعد الأندلسية الكبيرة على عهد المسلمين، يضاهي سورها سور اشبيلية. وكانت فيها سلف بأيدي البربر ولم يزل اهلها ابدا اهل نفاق. وهي حصينة على رأس جبل حصين منيع، وهي على فحص ممتد، جيد الزراعات كثير الاصابة في الحنطة والشعير. ومن مدينة قرمونة الى شريش الى كورة شذونة ثلاث مراحل.

وتـلاشـى جمـيـع ذاك فـلـما ... يبق الا ثـوابـه او عـقـاب
عسكـر جنـدوا فليس بمـاذو ... ن لهم عنه ان يكون الحساب
فـرأيت الرقـاب من اهله ذلـ ... ـت وعزت من آخرين رقاب
وكذاك الزمان يحدث في تصـ ... ريفـه الـذل والبـلا والخراب
لتعجبت والـذي منه اعجبـ ... ـت اذا ما نظرت شيء عجاب
لـكـأن الذي تـولى الـذي كـا ... ن عـلـيـه مخـلد لا يـراب
فعله بعـده كفعل امرىء ليـ ... ـس عليه بعد الممات حساب
ولَـعَقْـلُ الفتى صـحـيـح ولـكن ... حيـرتـه الأوراق والأذهـاب[1]

وليحيى الغزال قصيدة اخرى في هذا المعنى دون ان يذكر فيها شخصاً معنيًّا:

ارى اهـل اليسـار اذا تـوفـوا ... بنـوا تلك المقـابـر بـالصـخـور
ابـوا الا مـبـاهـاة وفـخـرا ... عـلى الفقـراء حتى في القبـور
فـان يكن التفاضـل في ذراها ... فـان العـدل فيهـا في القعـور
رضيت بمـن تـأنق في بـنـاء ... فبـالـغ فيه تصـريف الأمـور
الّما يبصروا مـا خـربتـه الـد ... هـور من المـدائن والقصـور؟
لعمـر ابيهم لـو ابصـروهم ... لمـا عـرف الغني من الفقـيـر
ولا عـرفوا العبيـد من الموالي ... ولا عرفوا الاناث من الذكور
ولا من كان يلبس ثوب صوف ... من البـدن المبـاشـر للحـريـر
اذا اكـل الثـرى هـذا وهـذا ... فما فضل الكبير على الحقير؟

ثم ان الأمير عبد الرحمن اختص الفتى سعدون لخدمته الخاصة بعد وفاة نصر. ثم قبض على مسرة الخصي الفتى الكبير وعباس اخيه فسجنا وذلك في شهر صفر من السنة ذاتها التي توفي فيها نصر. وصير مكان مسرة قاسم الخصي الصقلبي.

وقد وجد لمسرة ثمانية آلاف دينار دراهم[2]

ويستدل من اشعار الغزال وابن الشمر والشكاوى الكثيرة التي تقام ضد نصر الخصي انه لم يكن محبوباً عند الخاص والعام فالجميع اجمع على بغضه ولم

---

١ ـ الوَرِق: الفضة او اذا كان الورق بفتح الراء فيكون الدراهم المضروبة.
٢ ـ الدينار يساوي ٣٦ درهماً.

يكن يحظى الا بعطف الجارية طروب والأمير عبد الرحمن، وهذا الأمير ايضاً ابغضه بعد مماته لأنه تأكد له ان نصراً كان يبغي الخلاص منه.

وكانت في ايام الأمير عبد الرحمن مخارج للناس الى الاستسقاء في زمن الجدوب، وكان البروز في اكثرها الى مصلى الربض بعدوة نهر قرطبة. فحضرهم مخرج استسقاء آخر ايام الأمير عبد الرحمن بعد مهلك نصر الخصي الغالب على رأيه.

انذر الناس به ليوم يعينه الى الربض على عادتهم. فانكر ذلك الفقيه عبد الملك بن حبيب، وكتب الى الأمير عبد الرحمن يذكر ان نصراً هو الذي عاق الناس عن مصلى «المصارة» وتولع بصرف بروزهم الى مصلى الربض لقربه من قصره هناك، وان البروز الى مصلى المصارة المتصل بالبلد ارفق بالناس واحوط على ازدحامهم في القنطرة فقد صح عندهم ان جماعة منهم هلكوا يوم الاستسقاء غرقاً في النهر، فاثقلوا قارباً ونزلوا فيه لياذاً من ضيق القنطرة فرسب بهم وهلك منهم جماعة.

فمصلى المصارة ارفق بالناس كافة، فان من حركّته منهم اراقة او انتفضتْ به طهارته تقارب عليه شطُ النهر، فدبّ الناس من قرب، ونال حاجته بسرعة، ومن طلب منهم التستر لشأنه امكنه الاستجنان بداخل الجنات الملاقية للمصارة فتبرى فيها من غير بعد عن مصلاه. فصوب الأمير رأيه وانصرف البروز للاستسقاء الى «مصلى المصارة» الذي اختاره عبد الملك بن حبيب.

ونجد في كتاب «المُغرِب» في حلى «المَغرب» (الجزء الأول تحقيق الدكتور شوقي ضيف)، شكوى يقدمها الكاتب «محمد بن سعيد الزجالي» في رسالة وجهها الى عبد الرحمن الأوسط يتذمر من تصرف نصر الخصي حياله وقد جاء في هذه الرسالة:

«قد علم ما خصني به دون نظرائي من المنزلة الرفيعة التي اصبحت علماً من اجلها محسوداً، مرمياً بالحدق، تسلقني الألسن وتجول في الأفكار، وعندما استوى بناؤ ها وقام عمودها، واسترخت اطنابها سعى في هدمها من لا ازال اوثل شرف ذكره واجل رفيع قدره».

الفصل الخامس عشر
وفاة الأمير عبد الرحمن الأوسط

توفي الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان ليلة الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر من سنة ثمان وثلاثين ومائتين الموافق شهر ايلول ٨٥٢، فدفن يوم الخميس في تربة الخلفاء، وهي المقبرة الملكية التي كانت ملحقة بقصر الخلافة المواجه للمسجد الجامع بقرطبة وادلاه في قبره اخواه المغيرة وامية وصلى عليه ابنه محمد ابن عبد الرحمن.

المغيرة بن الحكم هو الذي تنسب اليه منية المغيرة وهي ربض من ارباض قرطبة يقع في شرقيها اذ كان بها منزله. وقد ذكر ابن حزم ان اباه قد ولاه العهد بعد اخيه عبد الرحمن ولكن هذا لم يلبث ان خلعه.

ويقول ابن عذارى: ان الحكم حينما اشتد به المرض سنة ٨٢٢/٢٠٦ اخذ البيعة لابنه عبد الرحمن ثم للمغيرة من بعده فبويع للأخوين في دار عبد الرحمن بن الحكم.

أما امية بن الحكم فنعرف عنه ان عبد الرحمن اخاه عهد اليه بقيادة الحملة التي غزت طليطلة سنة ٢١٩ وحاصرها حصاراً شديدا.

وكان مولد عبد الرحمن الأوسط بطليطلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة وابوه الحكم يومئذ واليها لوالده الأمير هشام، فكانت سنه اثنتين وستين سنة. وكانت خلافته احدى وثلاثين سنة وثلاثة اشهر وستة ايام.

وقال ابن عبد البر القرطبي وهو من موالي بني امية: وكان بصيراً بالحديث والفقه وله كتاب في الفقهاء بقرطبة وكان وثيق الاتصال بعبدالله جد عبد الرحمن الناصر. فلما اتهم عبد الله بمحاولة خلع ابيه واغتياله قبض على ابن عبد البر معه واودع السجن وقد اتهمه الناصر بانه هو محرض ابنه على هذه المحاولة لطمعه في ان يتولى قضاء قرطبة. وتوفي ابن عبد البر في سجنه ٩٥٠ مسيحية،

وقيل انه خنق في السجن وعلى كتاب ابن عبد البر في فقهاء قرطبة كان اكثر اعتماد ابن الفرضي في تاريخ «علماء الأندلس» حتى انه نقل عنه في اكثر من مائة وثلاثين موضعا. وكذلك ابن سعيد في كثير من المواضيع التي تحدث فيها عن قضاة قرطبة.

قال هذا الفقيه: «توفي عبد الرحمن الأوسط ليلة الخميس لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين ٨٥٢م

وقيل بل هي لثلاث خلون منه، فكانت خلافته احدى وثلاثين سنة وثمانية وعشرين يوماً وقيل بل خمسة اشهر، وقيل ثلاثة اشهر واربعة ايام وقيل ستة ايام.

دفن يوم الخميس من غد ليلة موته، في روضة الخلفاء بقصر قرطبة وصلى عليه ابنه الأمير محمد الوالي مكانه. وكانت سنه اثنتين وستين سنة ومولده بطليطلة من الثغر الأدنى.

وقال الفقيه بن وضاح بن بزيع القرطبي مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية، روى بالأندلس ثم رحل الى المشرق رحلتين سمع فيها من كبار الزهاد والمحدثين ويعتبر هو وبقي بن مخلد القرطبي مدخلي علم الحديث والبصر بطرقه وعلله الى الأندلس ولد سنة ٢٠٠ وتوفي ٢٨٧/٩٠٠

قال احتجب الأمير عبد الرحمن بن الحكم عن الناس قبل موته مدة من ثلاثة اعوام او نحوها من اجل علة اصابته طالت به واشتدت عليه فمنعته الحركة وهدت قوته واحدثت عليه رقة في نفسه ووحشة في خاطره وشدة اسف على ما نفق عليه من عصارة ملكه.

فذكر انه قال يوماً لأكابر خدمته الخاصة وقد حفوه في مرضه وفيهم سعدون الذي اختصه بعد مهلك حظيه «نصر» ومن يليه:

- «يا بني، - وبذلك كان يخاطبهم مستلطفاً لهم ومرفقاً بهم - -، لقد اشتقت ان اعاين ضوء الدنيا وفسحة الأرض إذ قد حميت (منعت) من الخروج اليها فلعلني اعلو مرقبة يسافر بصري فيها فاتسلى بالنظر الى بسيطها وجسمي منزع (نزع الشيء: اقتلعه من مكانه)، فهل سبيل الى ذلك؟ فقالوا له: نعم يا مولانا.

وابتدر اكابرهم انفاذ امره. فاخذوا سرير خيزران لطيفاً وثيق الصنعة من اسرة الخلافة ووضعوا فوقه فراشاً خفيفاً وثيراً وحشوه الريش، اجلسوه فوقه واحتملوه على اعناقهم فصعدوا به الى العلية على هيئته التي كانت من بنيان

الأمير على باب الجنان من ابواب القصر القبلية[1] ثم هبطوا كذلك فعانوا ذلك مرات يسوقون به سرير الأمير في تعاريج درجة الدائرة حتى استوى لهم ذلك كما ارادوه وامنوا على الأمير المشقة فيه.

فوضعوا الأمير عبد الرحمن فوق ذلك الفراش وشدوه من جهاته واستوثقوا من اضطرابه وصعدوا به هوناً حتى صيروه بأعلى تلك العلية فاجلسوه صدرها وادنوه الى الباب الأوسط منها فاشرف على صحراء الربض قدام باب القصر وسرح بصره فيها ورآها الى كدى القنبانية[2].

ونظر الى النهر امامه والسفن تجري فيه صاعدة ونازلة.

فاستروحت نفسه وانشرح صدره وشكر لخدمه ما تجشموه من ادنائه من مسرته وقال لهم:

- يا اولادي، اجلسوا الآن حوالي وانسوني بكلامكم ومتعوني باحاديثكم ولا تنقبضوا عني بشيء مما تتحدثون به بينكم اذا انفردتم كيما اشتغل بذلك عما اقاسيه من علتي.

ففعلوا وانس هو بذلك وانبسط وقطع اكثر نهاره في تلك العلية. ودنا المساء فدعوه الى النزول الى مجلسه فبينما هو يتهيأ لذلك اذ وقعت عينه في الصحراء قدامه على قطيع شاه وهي ترعى في منحدرها ولم ير معها راع يسوقها فقال لهم:

- يا اولادي، ما بال هذه الغنم مهملة ولا راعي لها؟

فتأملوا فقالوا:

- يا مولانا، راعيها قاعد الى جانبها يستريح في فيء جنان طروب تجاهه يتملى (يمتع النظر اليها) في انحدارها.

فاثبت بصره في ذلك الغنم فتنفس الصعداء وارسل عبرته يبكي حتى اخضل لحيته وقال:

- وددت، والله، ان اكون مكان ذلك الراعي ولا انشب[3] فيما نشبت من

---

١ - باب الجنان من ابواب قصر قرطبة الجنوبية، وهو يطل على نهر وادي الكبير وعلى مقبرة الربض او صحراء الربض، كما يذكر بن حيان، وهو الفضاء الواسع الممتد ازاء القصر الخلافي ويفصله عنه مجرى الوادي الكبير، وهو الذي كان الحكم بن هشام قد امر بهدم مبانيه وتسويته بالأرض بعد ثورة الربض.

٢ - «الكدى» جمع كدية، معناها الربوة. وهناك مواقع كثيرة في اسبانيا ما زالت تحمل هذا الاسم العربي حتى الآن باقياً «بنفس الصورة» Alcudia

أما «القنبانية» بالاسبانية Campina، والمقصود بها هنا الحقول الواسعة الممتدة في جنوبي قرطبة والاسم لاتيني الأصل Campus.

٣ - نشب ينشب في الشيء اشتراه. النشب: العقار، المال الأصيل من نقود وماشية.

الدنيا ولا اتقلد من امور الناس ما تقلدت.

ثم استغفر الله كثيراً ودعاه.

ونزلوا به الى مهاده فلم تطل فيها بعد نهاره هذا حياته.

وذكر احمد بن الأمير محمد بن عبد الرحمن قال: «اعتل جدي الأمير عبد الرحمن علته التي توفي فيها فطاولته ونهكته وماطلته مدة، تارة تخف عنه وتارة تثقله فيركس ويضعف وينبون العلاج عنه على اجتهاد اطبائه في التماس شفائه. فعمي عليهم وقت سقامه. فلما كان قبل وفاته باربعة ايام او نحوها، انحط مرضه وتحركت له قوة خال بها انه مبل من ضناه فامر بان يصلح له الحمام ويعدل مزاجه. فاحتم فيه واجد خضابه وكان يواليه ويجمل به.

وحدثته نفسه بالركوب مع عياله طلب النزهة وهو يأمل الأنظار والموت ادنى اليه من وريده. فلما عزم على اتيان ما سولته له نفسه من ذلك، دعا حاجبه عيسى بن شهيد وكان خفيفاً على قلبه، فاوصله الى نفسه صبيحة اليوم الذي قضى نحبه في آخره فبشره بتخفيف مرضه وانبعاث نشاطه وقال له:

- كيف ترى خضابنا يا عيسى؟

فقال له:

اصلح الله الأمير سيدي، احسن خضاب رأيت قط، وادله على انتعاش سيدي واقتيامه البقاء بخلوص القمر من انكسافه بفضل الله عليه وعلى رعيته.

فسره قوله وقال له:

- ان بعض كرائمنا سألننا تجديد العهد لديهن بالركوب معهن للنزهة على مقتضى العادة فاخرج من فورك فانظر في اقامة ما يحتاج اليه لنزهتنا على اتم رسومها واعجل بذلك فانا متحركون صبيحة غد بحول الله.

فمضى عيسى لشأنه.

وقال الأمير للراشدة[1] القائمة على رأسه:

- ادخلي الى خزّانة الكسوة فمريها ان تتخير لنا مما عندنا من الوشي رداء يُوسُفياً من افخر نوعه فجيئنا به.

---

١ - كانت وظيفة «الراشدة» من وظائف قصور الخلافة في ظل بني امية وقصور كبار رجالات الدولة. وقد اشار «ليفي بروفنسال» في حديثه عن وظائف القصور وطبقات اهل الخدمة فيها الى انه يبدو من بعض نصوص المقتبس ان قصر الأمير كان يشمل على عدد كبير من القائمات بالخدمة من النساء تراسهن «قهرمانة» وتتلوها الوصيفات والطاهيات والراشدات اي المدبرات ويبدو من هذا النص كما يذكره الدكتور مكي ان الراشدات كن ذوات الصلة المباشرة بالأمير القائمات على رأسه وانه كانت لهنّ الرئاسة على «الخزانات» اي الأمينات اللواتي يعهد اليهن بحفظ الخزائن المختلفة مثل خزانة الكسوة المذكورة هنا.

فمضت الراشدة وجاءته برداء يوسفي معمر لم تر العيون آنق منه، فامر بعض اكابر الخدم ان تخرجه الى عريف الخياطين بالقصر.
وهنا لا بد من توضيح كلمة عريف:

يقول الدكتور محمود مكي في تعليقه على مخطوط «المقتبس» وقد جئنا على ذكره في مكان آخر: «اصطلاح «العريف» من الاصطلاحات الشائعة في الحديث عن النظم الادارية الأندلسية. ويبدو انه كان يستخدم اولاً في التنظيم العسكري الطبقي، فنحن نجد صاحب كتاب «اخبار مجموعة» تحقيق «لافونتي الكنترة» يذكر ان حرس الأمير الحكم بن هشام الربضي يتألف من الفي رجل مقسمين الى عشرين فرقة كل منها من مائة رجل على رأس كل فرقة عريف». على ان الاصطلاح اتسع بعد ذلك الى الدلالة على رئيس مجموعة من الخدم او رؤساء الحرفين او الصناع دون ان يعني ذلك عدم استخدامه في التنظيم العسكري الطبقي. ويدل على ذلك شيوعه في كتاب «ابن حيان» نفسه للدلالة على رؤساء الفرق العسكرية الصغيرة.
واما هنا فان «عريف الخياطين» هو رئيس المشتغلين بهذا العمل في داخل القصر الملكي كما هو واضح. ولا بد انه كان عرفاء آخرون يراسون طوائف الحرفيين ممن كانوا يقومون بالخدمة في القصر. وقد انتقل لفظ «العريف» من العربية الى الاسبانية دون تحريف كبير «ALARIFE» وان كان اصبح مقتصراً على الدلالة على رئيس البنائين.

قلنا ان الأمير عبد الرحمن الأوسط طلب الى بعض اكابر الخدم ان تخرجه الى عريف الخياطين بالقصر فليقطعه ثوباً للبوسه ويتخذ منه قلنوسة لحاجبه عيسى كيما يلبساه جميعاً لركوبهما صبيحة غدهما، ويجمع الصناع على اتمامهما للبوسهما. فعاد اليه الخادم بجواب عريف الخياطين، فذكر ان خياطة الجلد لا تمكنهم في مثل الوقت الذي حده لدقة صنعة الثوب والأناة لنقشه وتعذر جمع الأيدي عليه، فضلاً من عمل القلنوسة التي يستأنف تجسيدها لحاجبه من فضل الثوب =
فشق ذلك على الأمير عبد الرحمن وكسر منه حتى ثناه حاجبه عيسى عن ذلك بلطفه وهون عليه الخطب وقال له:
«في الذي تحويه خزانة الأمير من الثياب ورفيع القلانس ما فيه مندوحة عن استكداد هذا الثوب الذي لا يؤمن الخطأ في حثه ولن يفوته نيل ما قام في خاطره منه لأقرب مداه بحول الله وتجاوزه بالابلاء الى ما سواه، كما ان عندي

من جليل خلعه ورفيع قلانسه ما اسره بالتجمل به في خدمته. فليضع عن نفسه العزيزة كلفة هذا في مثل هذا الوقت الضيق ولينفذ عزمه في تفريج نفسه بنزهته.

فوضع ذلك الرداء على كرسي في المجلس وعزم على الاضراب عنه والعمل على الحركة صبيحة غد. فنظر عيسى فيما امره به وهيأه على رسومه.

وانقضى نهارهم، فما هو الا ان صلى الأمير المغرب، فانتكثت مريرته وثارت علته وحضره حمامه فتهوع ودعا بالطست فقاء دماً غبيطاً وعاود ذلك مراراً فلم يقلع عنه وجعه حتى لفظ نفسه وقضى نحبه.

سبب وفاة عبد الرحمن الأوسط:

لكي نشخص المرض الذي اودى بحياة عبد الرحمن الأوسط لا بد من معرفة بدء علامات المرض، وماذا حدث له في ساعة وفاته. اننا نعرف هذه الأمور من المؤرخ ابن حيان كما ذكرناها: متى ابتدأ المرض وكيف كانت النهاية.

رأينا انه اعتزل الناس قبل ثلاث سنوات من وفاته بسبب العلة التي تضايقه واخذت تزداد خطورة شيئاً فشيئاً: ارتفاع درجة الحرارة وفقدان شهية الطعام، مما ادى الى حالة انهيار جسدي تطورت الى انهيار نفسي فتكاثر حزنه وغمه.

فنرى ان العلة طالت وتخللتها حميات وفقدان شهوة الطعام وانخفاض الوزن وهزات نفسية.

وقد جئنا على ذكر حالة الوفاة: «دعا بالطست فقاء دماً غبيطاً وعاود ذلك مراراً فلم يقلع عنه وجعه حتى لفظ نفسه وقضى نحبه نتيجة بصاق دم. ورغم ان بصاق الدم له اسباب كثيرة يمكن القول ان اهمها هو تمدد الأوردة في المريء ESOFAGO اذ ان القرحة في المعدة المدماة، تنزف الدم عادة عن طريق الشرج. ويستدل من التشخيص ان مرض الأمير لم يكن قرحة في المعدة بل انه تحجر او تليف في الكبد احدث انتكاث مريرته وهزاله وانحطاط قواه الجسدية والنفسية. واسباب هذا المرض كثيرة منها: التهاب الكبد والادمان على شرب الكحول، ولم يكن هذا نادراً في قرطبة الاسلامية، ثم تفشى الأمراض مثل الملاريا وحمى التيفوئيد. نستبعد ان يكون سبب الوفاة قرحة خبيثة في الكبد أو في المعدة لأن تطورها يكون سريعاً ولا يمكن في اي حال من الأحوال ان يصل

الى ثلاث سنوات كما هو معروف. ومن المحتمل ان يكون مرضاً من الأمراض الوافدة، تأثر منه الكبد فقضى عليه بنزيف دموي. وليس السل الرئوي لأن التاريخ لا يذكر لنا ان الأمير عبد الرحمن كان يسعل او كان مصاباً بعسر الاستنشاق.

والتحسن الأخير الذي لمسه الأمير فجأة في صحته لم يكن تحسناً حقيقياً بل يسمونه يقظة الموت، اي مثل الاضاءة الأخيرة قبل ان تنطفىء الشمعة نهائيا.

والحقيقة ان الكثيرين من المرضى الذين طالت علتهم وقد اشرفوا على الهلاك يشعرون فجأة بتحسن غريب، انه يعني اقتراب النهاية وهذا ما جرى لعبد الرحمن الأوسط.

وقعد الأمير محمد من ليلته مكانه فتنظر الى ذلك الثوب الموشي المرجى قطعه موضوعاً على الكرسي فعرف شأنه مع والده مساء ليلته فعجب وقال:

ليصر كفن الأمير، نضر الله وجهه.

فعمل ذلك به واصبح حديثه موعظة لمن سمع به.

وكان عبد الرحمن قد رشح عبد الله بن طروب للولاية بعده. وكان نصر الخصي يعضده ويخدم امه «طروباً» الحظية عند عبد الرحمن، كما رأينا. الا ان عبد الله هذا كان مستهتراً منهمكاً في الملذات. فكان اولو العقل يميلون الى اخيه محمد. فلما مات ابوهما، وكان ذلك بالليل كما رأينا، اتفق رؤساء الخدم ان يعدلوا بالولاية عن عبد الله الى محمد.

توجه احدهم الى دار محمد وجاء به على بغلة في زي صبية كأنه بنته تزور قصر جدها.

فلما مر على دار اخيه عبد الله وسمع ضجة المنادين وليس عنده خبر من موت ابيه انشد:

«فهنيئاً له الذي هو فيه والذي نحن فيه ايضا هنانا

ولما دخل القصر بعد تمنع من البواب، وتم له الأمر تلقاه بحزم ولم يختلف عليه احد من جلة اقاربه.

ويقول احمد الرازي: وجدت بخط ابي بكر عبادة الشاعر لطاهر بن حزم الشاعر من قصيدة يرثي بها الأمير عبد الرحمن ويهنىء الأمير محمداً ابنه بالخلافة:

(الطويل)

سقى الله قبرا بالنخيل غمامه تكاد اذا حلت عراها تفطر
رأى الله اذ ولى الأمير محمدا لكم عصمة يا ايها الناس فاشكروا
فما نطق الأقوام فيه قناعة وهي في ابي بكر لعمري كثروا
تبسمت الدنيا اليه واقبلت اليه قلوب الناس لا تأخر

ولعبد الله بن بكر الملقب «بالنذل» في ذلك من «المتقارب»

الا ان في الدهر للمبصرين عجائب تبهر انظارها
تسور المنايا فما من عزيز يدافع بالعز تسوارها
وكان بالأمس سراج العلا يسوس البلاد واقطارها
على حين احكم ريب الدهور وعرف الأمور وانكارها
اتته منيته بغتة وقد كان في الأرض جبارها
توسد بعض وثير الحشايا خلال المقابر احجارها
وخلاه انصاره مفردا وقد كان بالأمس انصارها
فلله ما استودعت في النخيل اكف الرجال ومن زارها

وهذا الشاعر ابو محمد عبد الله بن بكر المعروف بالنذل، لقب لقبه به «قريعة مؤمن بن سعيد الشاعر في بعض اهاجيه له. كان مؤدباً بالنحو عالماً باللغة مبرزاً في الشعر، وادب اولاد الأمير عبد الرحمن بن الحكم ومن الأرجح انه توفي في ايام الأمير محمد وكان يحب الغلمان وهو القائل من قصيدة في الأمير عبد الرحمن الأوسط.

«ايرجو المشركون لهم بقاء وقد عزم الأمير على الجهاد

ومن لطيف شعره قوله:

اذا لم يكن لي من ضميرك شافع اليك فاني ليس لي منك ناصر
الآن لداود الحديد بقدرة عليك على تليين قلبك قادر
صبرت وما لي بالتصبر طاقة فيا ليت قلبي مثل قلبك صابر
وفارقتني فالدار غير بعيدة واوحش شيء ان يفارق حاضر

وله من الشعر:

وما ضمني يوما وإياك مجلس من الدهر الا وهو لي منك غائظ
واني لا غنى الناس عن كل مجلس يلاحظني فيه على الكره لاحظ[1]

ولا بد انه نفس الشاعر الذي ترجم له ابن الآبار في التكملة رقم ١٢٤٠ مسمياً اياه عبد الله بن بكر الكلاعي القرطبي، الذي يعرف «بالقملة العجمية». وقال انه كان شاعراً محسناً مطبوعاً رثى الفقيه يحيى بن يحيى المتوفي سنة ٢٣٤/٨٤٨

ويستوقف نظرنا هذا اللقب الذي كان ينبز به الشاعر وهو ما نراه مرة بالعربية في صورة «النذل» عند ابن حيان وابن سعيد ومرة اخرى في صورة «القملة» بالعجمية لدى الزبيدي وابن الآبار. وقد حاول فرنسيسكو سيمونيت في مقدمة معجمه الكبير الذي درس فيه مدى نفوذ اللغة العجمية وانتشارها بين الأندلسيين المسلمين حاول ان يفسر هذا اللفظ فقال انه الصورة العربية للفظ EL camello ومعناه الجمل. وقبل خوليان ريبيرا هذا التفسير. غير ان الدكتور محمود مكي لا يرضيه هذا التفسير لأن لا سيمونيت ولا ريبيرا كانا يعرفان لقبه العربي «النذل». اذ من الواضح ان اللفظة الأعجمية هي تفسير للكلمة العربية.

وقد اعدنا النظر في هذه الكلمة فبدأ لنا فيه رأي نطرحه للمناقشة هو ان لفظ «القملة» محرف «القنلة» اي «Canalia» باللاتينية الدارجة المشتقة من كان «Can» باللاتينية ومعناها الكلب وهكذا نراه ان لفظ النذل يطبق تماماً على «القنلة» الذي نحسبه محرف الى «القملة».

ونحن لنا رأي آخر، ولماذا لا تكون الكلمة الأعجمية «كميلو» Camelo وتعني: الغش والمخادعة والمخاتلة.

١ - ابن سعيد المغربي: المغرب جزء اول صحفة ١١٣ - ١١٤

المصادر

- المقتبس من انباء اهل الأندلس : لابن حيان القرطبي. حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمود علي مكي، القاهرة ١٩٧١
- المغرب في حلى المغرب : لابن سعيد المغربي. حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف، الجزء الأول والجزء الثاني.
- تاريخ الأندلس لابن الكردبوس : ووصفه لابن الشباط. تحقيق الدكتور احمد مختار العبادي. معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٧١
- جمهرة انساب العرب : ابن حزم الأندلسي تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، دار المعارف ـ مصر
- نصوص عن الأندلس : ابن الدلائي: تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهواني، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية مدريد ١٩٦٥
- نفح الطيب : المقري، اربعة اجزاء طبعة المطبعة الأزهرية ـ القاهرة.
- تاريخ اسبانيا الاسلامية : ابن الخطيب تحقيق وتعليق «ليفي بروفنسال، دار المكشوف ـ بيروت ١٩٥٦
- ديوان يحيى بن حكم الغزال : حققه وشرحه وقدم له الدكتور محمد رضوان الدايه، دار قتيبة ١٩٨٢ ـ دمشق
- الأدب الأندلسي : الدكتور احمد هيكل دار المعارف الطبعة الثامنة.
- تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس : الدكتور السيد عبد العزيز سالم، الجزء الثاني، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية

- تاريخ قضاة الأندلس : الشيخ ابو الحسن النباهي الأندلسي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.
- تاريخ قضاة قرطبة : الخشني
- مقدمة ابن خلدون : ابن خلدون، المطبعة الكاثوليكية - بيروت.
- عبدالله عنان : دولة الاسلام في الأندلس، العصر الأول القسم الأول.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ابن ابي اصيبعة - دار الثقافة - بيروت.
- الحلل السندسية : الأمير شكيب ارسلان جزء اول وجزء ثان ١٩٣٦
- ابن القفطي : تاريخ الحكماء، مخطوط الاسكوريال.

- Dozy: Historia de los musulmanes de Espana. t. I madrid
- Guy Breton: Historia de amor de la Historia de Francia. I.
- Marcelino menendez y Pelayo: Historia de los Heteredoxos. I.
- Isidro de Las Cagigas: LOS MOZARABES. T.I. Madrid 1948
- Arjona Castro: Vida y muerte de Abdel Rahman II. B.R.A.C Cordoba Vol. I. 1979 nº 100.

الفهرس

صفحة

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

صفحة

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

سلسلة «أبطال من الأندلس»

ظهر منها حتى الآن:

- بلاي الرومي ، أو العرب في اسبانية وجنوبي فرنسة
- عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)
- الناصر لدين الله (عبد الرحمن الثالث أول خليفة في الأندلس)
- صبح البشكنسية أو (الدولة العامرية)
- السيّد عنترة الاسبان ، أو الأندلس على عهد ملوك الطوائف وقدوم المرابطين إليها
- عبد الرحمن الأوسط

المطبعة البولسية
جونية - لبنان